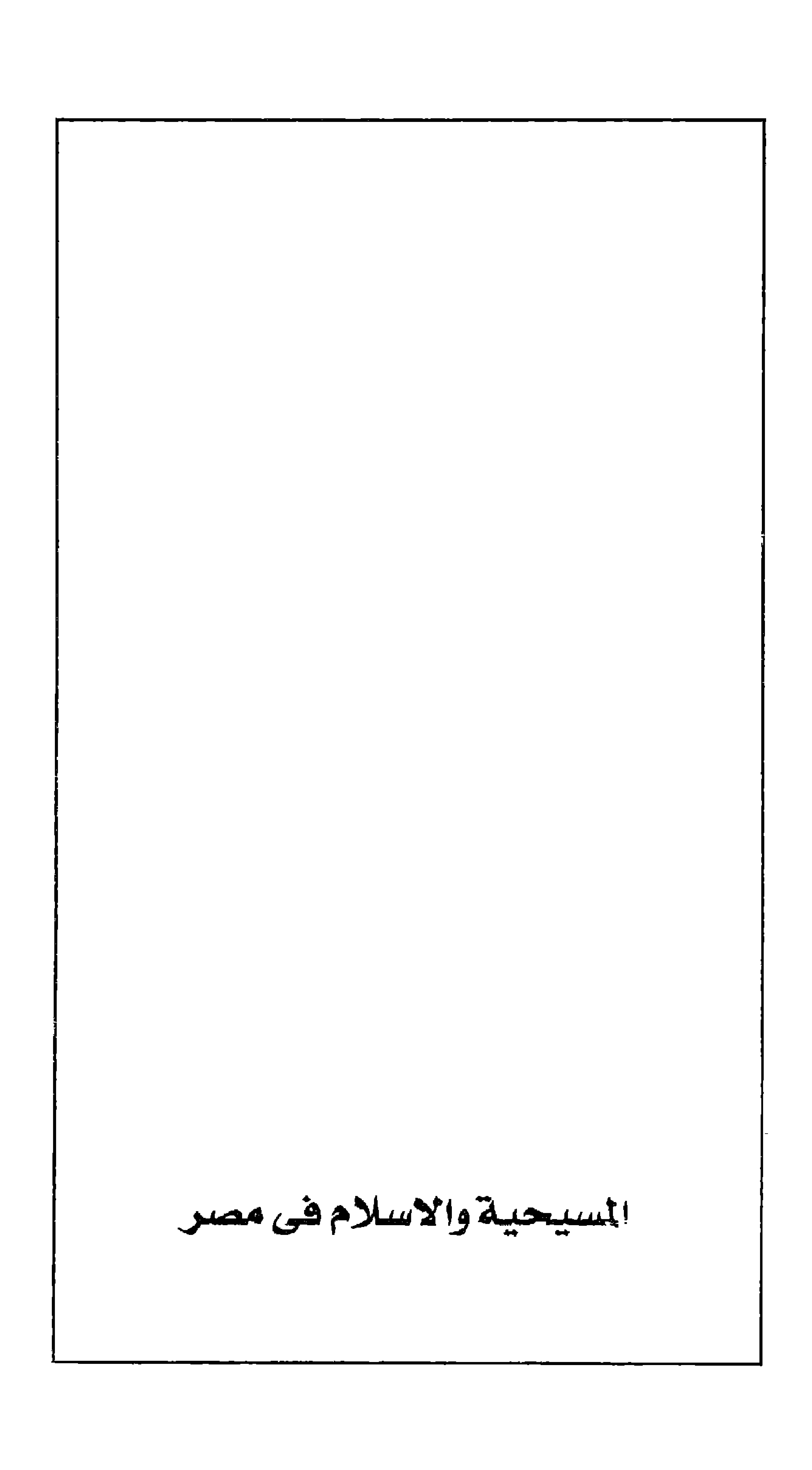


المسيحية والإسلام فى مصر

د. حسين كفافى

الأعمال الخاصة

الهيئة المصرية العامة للكتاب



المسيحية والاسلام فى مصر

المسيحية والاسلام في مصر

تأليف: د. حسن كفافي



مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

المسيحية والاسلام فى مصر

تاليف: د. حسين كفافى

الغلاف

الإشراف الفنى:

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

إهداء

أهدى هذا الكتاب إلى أرواح شهداء مصر، الذين حملوا مسيرة الإنسانية ومشاعل الدين والتوحيد، بما فيها من عذاب واستشهاد.. من عهد دقلديانوس مرورا بجميع عصور القهر والعبودية حتى عبور أكتوبر المجيد الذى استشهد فيه المسيحى والمسلم دون أدنى فرق.

د. حسين كفافى

هذا الكتاب... لماذا؟

هذا الكتاب رسالة حب إلى المصريين كافة - مسلمين ومسيحيين - تؤكد أسس الوحدة بين أبناء الشعب العريق: رباط الدم والجنس الواحد، التاريخ الطويل، المصلحة والمستقبل المشترك. لقد دخل مصر - خلال تاريخها الطويل - الكثير من الإغريق والفرس والرومان .. اندحر منهم الكثير وبقى القليل، لينصهر فى بوتقة الشعب والوطن الواحد، ثم اعتنق بعض المصريين - الأقباط - (المسيحيين) الإسلام.

وأيا كانت أسباب دخول المصريين الإسلام وانتظامهم فى صفوفه - سواء أكانت اقتناعا بالدين الجديد، أم حبا فيه، أم رغبة فى المساهمة والمشاركة فى تحرير مصر من نير الاستعمار والاحتلال الرومانى وطرده، أم لكل هذه الأسباب مجتمعة - فهناك حقيقة هامة واضحة تبدو أمام الجميع ولا سيما دارسو تاريخ مصر، هذه الحقيقة هى أن الوحدة الوطنية كانت دائما الأساس القوى الثابت، الذى لا يضعف ولا يلين أمام ما يقوم به أعداء مصر لافتعال الفتنة، أو تغذية أسبابها ودواعيها لدى المتعصبين الذين يقعون فى شرك السياسة التى تهدف إلى تفتيت وحدة الشعب، التى كانت تخرج من جولاتها مع الاستعمار أشد قوة وأكثر تماسكا.

سبق أن صدرت بعض المؤلفات فى هذا الموضوع، وإنه ليشرفنى أن أتصدى لهذه الرسالة، امتدادا لمن سبقونا فى هذا الصدد، وخاصة الحديث عن الجوانب الاجتماعية والإنسانية فى العلاقة الحميمة بين المسلمين وإخوانهم الأقباط المسيحيين، فطبقا لعلم الوراثة فإن الانسان يحمل فى الغالب الأعم معظم صفات الأخوال، وأيضا يحمل فى وجدانه الحب والمعزة والتقدير، وأيضا لم يؤرخ التطور لهذه العلاقة، بما تحويه من علاقات اجتماعية وإنسانية، قد يكون لهم العذر كل العذر، إذ أن الأحداث متلاحقة، ولم تسجل فى حينها ولم توثق فى وقتها، وما سجل بالفعل منها يشوبه الغموض ولم يكشف أستارها أو يحل غموضها أحد، وعلى ما يبدو أن ذلك مرجعه إلى تلاحق الحوادث إذ أن الأحداث كانت تسابق الزمن فى تلاحقها، لذلك جاءت أقوال المؤرخين متضاربة أحيانا، مبالغ فيها وكثيرا ما تأتى كأنها صور من الخيال أو حواديت، وفى هذا المجال يقول دكتور بتلر فى مقدمته لكتابه الشهير «فتح مصر» عن الظلام الذى يلف هذا الموضوع وهذه الفترة كلها: فكان الوالج فى هذا الظلام الدامس مقدما على تيه حالك من الخلاف والتناقض، وقد يلوح قولنا هذا كأن فيه مغالاة ومبالغة، ولكنه الحق الذى لاشك فيه، ويعززه رأى كاتب معروف وهو (Brooks. w.e) إذ يقول فى هذا الصدد «وقل أن نجد حادثا هاما من حوادث التاريخ قد خفيت أخباره واختلفت رواياتها كما هو حال تاريخ فتح الاسكندرية، حقا إن تاريخ غزو العرب للدولة الرومانية كلها تاريخ معتم غامض، ولكن تاريخ مصر أشد إعتاما وحلوكة».

ومرورا بكل المؤرخين الأوائل، خلال المراجع التى رجعنا إليها فى تاريخ هذه العصور، منذ وصول السيدة البتول إلى مصر وفى صحبتها ابنها يسوع.. حتى نهاية القرن العشرين - أى طيلة عشرين قرنا - كنت أثناء كتابتى ومراجعتى وتدقيقى فيما بين السطور أتوه فى التضارب بين المؤرخين بداية بالواقدى فى القرن الثامن والبلازدى وعبد الحكم وابن قتيبية والطبرى فى القرن التاسع وياقوت وأبى الفرج والنووى والقزوينى فى القرن الثالث عشر وأبى الفدا وابن خلدون فى القرن الرابع عشر والمقريزى وابن حجر العسقلانى وأبى المحاسن والسيوطى فى القرن الخامس عشر.

وهكذا كان الكثير من الكتابات ينقل عن الأوائل بما فيه من حقائق وخيالات، ومن المؤرخين المصريين الأقباط سعيد بن بطريق، والأسقف ساويرس (ابن المقفع) جاءت أخبار الكنيسة القبطية على درجة كبيرة من الأمانة، وكان على قمة هؤلاء الكتاب القس منسى يوحنا فى كتابه «تاريخ الكنيسة القبطية»، وأيضا المؤرخة العظيمة الراحلة إيريس حبيب المصرى فى قصة الكنيسة القبطية «الأجزاء الخمسة».

وخلال هذا الحشد الهائل من الكتابات لا نملك إلا القرائن القليلة المتاحة، وسياق الأحداث ومنطق الأمور وتسلسلها لكى ندعم بها خيالنا، وفى النهاية وجدت أنه من الضرورى والأولى بنا، والأحق لنا والأجدر بنا أن نتولى كتابة تطور علاقة الأجداد الأوائل، وأن نسجل هذه الفترة الخصبة من تاريخ مصر بعين المصريين، أقصد: أحد المصريين.

وفى مجال: هل المصريون كانوا يرحبون بالغزاة دائما؟

فالشعب المصرى فى إجماله شعب ودود ورحيم، كرمه الله فى الإنجيل عندما ذكر شعب مصر وباركه (مبارك يا شعب مصر) وكذلك ذكر الله سبحانه وتعالى مصر فى القرآن بكل حب أكثر من مرة.. فلم تكن العنصرية أساسا فى خلاف، فالمصرى يعرف حق الجار على جاره ولم يكن الدين أساسا فى اختلاف. فالشعب المصرى تمسك بإنسانيته ووطنيته، فإننا نقول إن المصريين كانوا دائما يشعرون بأنهم أمة متماسكة فيما بينها تحافظ على استقلالها وشخصيتها من أن تندمج فى أمة أخرى، وهكذا حافظت هذه الأمة على شخصيتها ولم تكن لترضى بأن تفتح ذراعيها لكل سيد جديد وتقف فى وجه السيد القديم، بل كل ما فعلته أن بقيت مكانها لا تحرك ساكنا - برغبتها - تاركة ميدان القتال بين المنافسين؛ إذ لم يكن لها مصلحة فى الدفاع عن سيد أذاقها من العذاب الكثير فى محاولته القضاء على استقلالها.

وهكذا تظهر الأمة المصرية فى ثوب العزة والأنفة، وهى الأمة التى تسلل الإسلام إلى قلوب الكثير منها حتى من بقى مسيحيا.

وفى هذا يقول المفكر الكبير مكرم عبيد: «إننى مسلم وطنا ومسيحى دينا». ونحن من ناحيتنا لا نركن إلى العواطف الجياشة ولا نستسلم للخيال الجامح، ولكننا نستسلم لحب المصريين ومصر فقط، وكانت الوثائق المحايدة ومنطق الأمور رائدنا..

وهكذا جاهدنا فى الكتابة بحياد ومنطق وصدق. وفى هذا الصدد سوف نستوثق معا عزيزى القارئ أن المصريين جنس واحد من رحم واحد، فالمصريون (الأقباط) هم أخوال المسلمين فى الغالب الأعم، وأيضا أولاد عم بدرجة أخرى.

وهكذا يضم المصريين كلهم وطن واحد أو تضمهم وطنية واحدة كما يقول الدكتور فؤاد اسكندر.

وإن كانت الأهرامات قد شهدت على روعة الحضارة المصرية وأثرها، فإن الوحدة الوطنية دليل على عراقة وأصالة هذا الشعب العظيم، الذى رحب على أرضه وفى قلوب أفراده بالأديان السماوية، مع بقاء كل منهم على دينه وعقيدته، فيبقى فى النهاية شىء مؤكد واحد وهو أنهم إخوة: دماؤهم واحدة، وجنسهم واحد، وعنصرهم واحد.. حيث الدين لله والوطن للجميع. أما ما يحدث أحيانا وعلى فترات متباعدة من التباس فى الأمور أو من فتن مصطنعة، فهى سحب طارئة، تظهر قليلا ثم تزول، ولا تترك خلفها إلا شعبا متحدا عطوفا لا يعرف الفرقة ولا الانقسام.

وسوف نلمس تلك الحقيقة من خلال ما ستعرضه على صفحات جزئى هذا الكتاب، [illegible] الفرس لمصر فى مطلع القرن السابع الميلادى، قتل قائد الاحتلال [illegible] فى مدينة الإسكندرية فى يوم واحد ثمانين ألف رجل ودمر [illegible] وشرد من بها من رهبان وراهبات، وحول مدينة [illegible] سيطرتها تم تخريب ٦٢٠ ديرا، وفى الصعيد فى منطقة [illegible] آلاف راهب فى يوم واحد.

[illegible] خرج الفرس ودخل الروم مرة ثانية، كان همهم الابتزاز والقهر. و[illegible] سخط المصريين عليهم أشده، خصوصا عندما رأوا أن ملوك و أباطرة القسطنطينية كان شغلهم الوحيد هو إرغامهم على اعتناق مذهب الإمبراطور.

واستمر الاضطهاد للمصريين الأرثوذكس أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة (المونوفزتين)، وتحملوا البلاء واستمرت مطاردتهم وقتلهم واغتصاب ما بقى من كنائســـهم، وسلب منازلهم، حـــتـى أشــرفت مملكة الروم على الزوال، وأصبحت فى حـال انحطاط كـامل بسبب التـعصبات الدينية والاخـتلافـات المذهبيـة، ولهـذا السبب كثرت القلاقل فى البـلاد واهتـزت واضطربت هيبة الإمبراطورية البيزنطية فى عيون المصريين لاسيما أنهم كانوا يشاهدون قرب سقوطها، ما كان يترصدها من كل الجهات، فاستعمل الحكام والولاة العنف والقوة فى تنفيذ أغراضهم.. فكان ذلك داعيا إلى سخط الأهالى على الحكام، وتعديهم عليهم والسعى إلى إخـراجهم من مصر إلى أن وصل الظلم إلى آخر مـداه، والبطش إلى منتـهاه، بأن عين هرقل كـيرس (المقوقس) واليا وبطريركا على مـصـر، حـينذاك هرب (البـابا بنيـامين) من ظلم وعـسف الاسـتـعـمـار البيـزنطى، ولأنه لم يستطع أن يتـجـاوب مـع العـقـيـدة المسـتـوردة «عـقـيـدة الطبيعتين».

وكـان اختـفاء البابا بنيامين «البابا الشرعـى للبلاد» طيلة ثلاثة عشر عـاما كاملة، تعرضت فيها البلاد للخراب وأصبحت الكنائس أطلالا والأديرة خرابا.

واستمر الشعب المصرى بعد ذلك على مدى قرون - مسلمين ومسيحيين - فى زورق واحد يمخر بهم عباب التاريخ، وتتقاذفهم أمواجه ما بين هدوء يتشح بوشاح العدل، فترة حاكم عادل، رشيد، قوى، وبين فترة أخرى يعم فيها الظلم والاضطراب عندما يكون الحاكم فيها ظالما وضعيفا . هكذا على كل الشعب مسلمين ومسيحيين.

وذاكرة التاريخ تذكر حكاما عظاما بجانب عمرو بن العاص مثل الوالى عمر بن عبد العزيز، ومحمد على باشا والى مصر، الذى أرسل البعثات إلى أوروبا من كافة المصريين لا فرق بين مسيحى ومسلم.

وما ذكريات ثورة ١٩١٩ ببعيدة - فها هو خطيب الثورة القمص سرجيوس - هكذا كـان يلقبـه المصريون لفصاحـة لسانه، وأسلوبه المميز المحبب لقلوب

المصريين - فقد كان مصريا حتى النخاع، ولم يكن للتعصب مكان فى قلبه، ولا للغل موضع فى صدره، ولا للكراهية مساحة فى مشاعره.

فقد وقف القمص سرجيوس على منبر الأزهر الشريف معلنا أنه مصرى أولا، ومصرى ثانيا، ومصرى ثالثا، وأعلن أن الوطن لا يعرف مسلما ولا مسيحيا، بل مجاهدين فقط دون تمييز بين عمامة بيضاء أو عمامة سوداء، وقدم الدليل لجميع المستمعين إليه بوقفته بعمامته السوداء على منبر الأزهر. وكذلك كان يخطب فى الشوارع وفى الميادين، بل كان يخطب من نوافذ القطارات أثناء نقله إلى المنفى مقبوضا عليه.

وذات مرة وقف فى ميدان الأوبرا عند مواجهة فندق الكونتننتال يخطب فى الجماهير المتزاحمة : لا فرق بين مسلم ومسيحى.. كلهم مصريون، وفى أثناء خطبته تقدم إليه جندى إنجليزى، شاهرا مسدسه فى وجهه، حينئذ هبت الجماهير المحتشدة محذرة إياه : «حاسب يا أبونا حيموتوك».

وفى هدوء أجاب أبونا: «.. ومتى كنا نحن المصريين نخاف الموت؟ دعوه.. لتروى دمائى أرض وطنى التى ارتوت بدماء آلاف الشهداء، دعوه يقتلنى ليشهد العالم كيف يعتدى الإنجليز على رجال الدين ..» «وأمام ثباته واستمراره فى الخطابة تراجع الجندى الإنجليزى عن قتله».

ومازالت أرجاء صحن مسجد ابن طولون تختزن ذكرى القمص سرجيوس أيضا وشقيقه الشيخ الغاياتى، يتناوبان الخطابة من فوق منبر المسجد، فلما ضاق بهما الإنجليز ذرعا، قاموا بنفيهما معا إلى رفح بسيناء، وكانا فى منفاهما يتحدثان عن مصر، ويتغنيان بأناشيد الحب والهيام بمصر.

وهكذا استمرت منظومة الحب على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان تتأكد معها: وحدة الدم والجنس واللغة والعنصر، ووحدة الوطن، وهو ما سوف نستعرضه فى هذا الكتاب إلى ما قبل الأربعة عشر قرنا الأخيرة، عندما وطئت أقدام السيدة مريم المقدسة أرض مصر وبرفقتها ابنها الوحيد عيسى عليه السلام.

وكيف استمرت القصة على مدى عشرين قرنا من الزمان تروى للأجيال..
لم نشأ فى هذا الكتاب إلا تأكيد المنظومة - منظومة الحب - لتكون دائما تحت أعين الجيل الصاعد، ولتكون نبراسا لحمايتهم من الأراجيف المغرضة - التى أحيانا ما تجد لها صدى - خشية أن تصبح حروبا أهلية. وليست الحرب الأهلية اللبنانية ببعيدة عن الأذهان، ببشاعتها وحقدها وغلها، وأيضا حروب البوسنة والهرسك، والتى لاقى فيها المسلمون الهوان من إخوانهم فى الإنسانية وجيرانهم وإخوانهم بالأمس، حيث ضربت بالأخلاق والقيم الإنسانية عرض الحائط خلال عشرين قرنا من الزمان.

وأخيرا وليس آخرا عزيزى القارئ عذرا من وجود قصور أو تقصير فى وصول هذا الكتاب إلى ما ترجوه وما كنت أرجوه، فقد فكرت أكثر من مرة أن أعيد ترتيب الكتاب، أو أعيد ترتيب أوراقه أو فصوله أو إلغاء بعض الفصول، تجنبا للتكرار أو إضافة لشئ هنا أو هناك، ومضى الكتاب - لشهور- لا أستطيع أن أفعل شيئا من كل هذا، وأصبحت كثير الشكوى من كثرة الأعمال وملاحقة المسئوليات، ولازمنى القلق..

وأخيرا بلقائى مع العلامة والجغرافى النابغة الدكتور أحمد إسماعيل ذكرنى بالعماد الأصفهانى - وكان شاعرا معروف القدر، وكاتب الإنشاء فى القرن السادس الهجرى - بقوله: «إنى رأيت إنه لا يكتب إنسان كتابا فى يومه إلا قال فى غده لوغير هذا لكان أحسن.. ولو زيد كذا لكان يستحسن .. ولو قدم هذا لكان أفضل.. ولو ترك هذا لكان أجمل، هذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

وبذلك حسم الأمر، وألقيت بنصوص هذا الكتاب إلى المطابع والله فعال لما يريد - فنحن من جملة البشر.

عزيزى القارئ.. أرجو أن تترك كلماتى تخاطب وجدانك وعقلك وروحك فهذه الرسالة هى كلمة صادقة من قلب مفعم بالحب لكل المصريين - مسيحيين ومسلمين - أودعها هذا الكتاب.

«وعلى الله قصد السبيل»

منشية البكرى أول يناير سنة ١٩٩٤

د. حسين كفافى

الجزء الأول

المسيحية فى مصر

مصر والمسيحية

«اذهب ياشيطان لانه مكتوب للرب
إلهك تسجد وإياه وحده تعبد»

«إنجيل متى الإصحاح الرابع آية ١٠»

مصروالمسيحية

كانت مصر دائما أرض الاديان، وشعبها شعب نشأ وتربى على قيم الإيمان والتوحيد، منذ الفرعون إخناتون أول الموحدين، ومن قبله جاء سيدنا إبراهيم نبى الله إلى مصر بحثا عن عقيلته سارة بعد خطفها وبيعها إلى فرعو ن مصر بحثا عن عقيلته سارة بعد خطفها وبيعها إلى فرعون مصر .. وبعدها جاء أنبياء ورسل عديدون: فجاء يعقوب حفيد أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ليصاحب ابنه يوسف الذى نشأ فى القصور الملكية الفرعونية فى تانيس، ومن بعدهما تبنى الفرعون أيضا سيدنا موسى. وهكذا كانت مصر أرض الأديان والأنبياء والرسل ومهبط الرسالات، وتستمر مسيرة التوحيد إلى أن جاء عصر النور والخلاص، عندما رزقت السيدة مريم البتول بابنها عيسى المسيح، وبدأ وهو فى المهد يبشر بالمسيحية.

هنا يبدأ اليهود فى الإحساس بالخطر، فقد تحققت النبوءة فى ملاحقته هو و أمه، ورموها بالفسوق وكل ما هى منه براء؛ فاضطرت السيدة مريم إلى الهرب، ومعها ابنها الطفل «المسيح» من ظلم الرومان ومكائد اليهود، خوفا على حياتهما . تركت مريم بيت خالها فى بيت لحم بفلسطين، ولم يكن هناك

مأوى تلجأ إليه إلا الأرض المباركة «مصر»، ولم يكن هناك شعب أرحم بها ولا أرض أحن عليها وعلى وليدها - الذى مازال فى المهد - غير شعب مصر.

وظلت السيدة مريم ومعها ابنها يسوع تنتقل من مكان إلى مكان متخفين عن جنود الرومان، إذ كان الجواسيس - من وثنيين ويهود - يتابعونهم أينما حلوا . ولا نملك تحت أيدينا المدة التى عاشها يسوع فى مصر ولا يقينا الشهور أو السنين التى جال فيها ربوع مصر، ولكن المحقق إنه استمر - على الأقل - حتى موت هيرودوس، أما إذ ا كان قد بقى بعد هيرودوس بمصر، فهذا لا نعلمه، والقول فى هذا الشأن كثير، فبعضهم يظنون أنه مكث سنتين، وغيرهم أربعة سنو ات، وبعضهم ست سنوات والله أعلم[1].

واستمرت الدعوة المسيحية من خلال تلاميذ المسيح والحواريين الذين يقومون بالتبشير والدعوة (الكرازة) للدين الحق للعالم أجمع وللخليقة كلها، فالإيمان المسيحى كان ينتشر سريعا ليضرب بجذوره فى أعماق ووجدان البشرية كلها، ويمتد فى أحشاء الإنسانية طولا وعرضا، ولكنه كان فى احشاء ووجدان الشعب المصرى أكثر عمقا.. معلنا بإيمان بما جاء على لسان السيد المسيح فى رده على طلب الشيطان أن يسجد له نظير وعده له بأن يملكه ممالك العالم ومدنه، حينذاك قال له المسيح. «اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد». كما ورد فى إنجيل متى الإصحاح الرابع الآية رقم ١٠.

كانت حينذاك الأمبراطورية الرومانية كلها تسعد بالوثنية وتقدم القرابين للآلهة - وكان الكنهة خلال هذا المناخ هم المستفيدون بهذه القرابين، وكان الشعب يبذل الغالى و النفيس من أجل غسل الخطايا ورفع الذنوب والخلاص من كل ما أرتكبوه من آثام.

بدأت الديانة المسيحية تنتشر ببطء خلال شعوب الأمبراطورية، وكان الشعب المصرى - أو تستطيع أن تقول الشعب القبطى Egypto - هو أكثر شعوب الأمبراطورية استجابة للدين الجديد؛ فهو شعب متدين بطبيعته، له حضارته

وثقافته ووجدانه منذ قدوم سيدنا ونبينا إبراهيم ومن بعده سيدنا يوسف عليهما السلام، ومنذ ولد النبى موسى عليه السلام فى أرض جاشان فى مصر أيضا. فهو شعب له فلسفته فى الدين وله جذوره فى الوحدانية، وله تقاليده فى الأخلاق والمثل العليا والإيثار، واحترام الصغير للكبير، وعطف الكبير على الصغير، وأيضا العطف على الكهل، وعلى المريض وتبجيل الوالدين، وتكريم الأم وتقديسها، وتكريم المرأة عموما ووضعها فى مكانها المناسب، فهى محور الأسرة، والأسرة نواة المجتمع لهذا كله.. فالمصريون أول من أجل حماية السيدة مريم البتول والسيد المسيح، فكان هؤلاء المسيحيون الأوائل والمصريون على وجه الخصوص يسببون أرقا مستمرا للإمبراطورية، بداية بالإمبراطورية وحاشيته من القادة والضباط، ونهاية بالجنود والأتباع. وكان من الضرورى - فى المقابل - أن يقوم الإمبراطور ورجاله بالتصدى لهذا الدين الجديد، وهؤلاء الذين يقومون بنشره، ولكل من يعتنق هذا الفكر الجديد، فى أول الأمر اعتقد الإمبراطور ورجاله أن هذا الدين ما هو إلا نحلة أو مذهب جديد من مذاهب اليهود المنتشرين فى أنحاء الإمبراطورية، ولكن سرعان ما ظهر أن الدين يكشف اليهود وما حرفوه من شريعة موسى وأيضا يعريها من ماديتها، فبدأ اليهود فى الكيد ضد السيد المسيح وتلاميذه وحوارييه .. وقصة يهوذا الأسخريوطى مازالت ماثلة فى أذهان البشرية، حينما باع المسيح، وأبلغ عنه جنود الإمبراطورية أن الذى سيقابله بعد العشاء مع الحواريين هو المسيح، وبالفعل ما أن انتهوا من العشاء - جميعا - والمسيح وتلاميذه مازالوا على المائدة التى نزلت من السماء، قبض الجنود الرومان على السيد المسيح، وذهبت القصص تنسج حول صلبه.

وأيا كانت القصص والاختلافات والانشقاقات والهرطقات التى وصلت إلى حد القتل بين طوائف وجماعات تلاميذ المسيح والحواريين، فان الديانة المسيحية انتشرت فى العالم، وكان لمصر بالتحديد دور فى انتشار العقيدة وتشكيلها بما لمصر من تراث فى الفكر والفلسفة والدين والتوحيد، وأيضا تعدد الآلهة، أو تعدد الصفات فى إله واحد، كل هذا و اليهود يحاربون الدين الجديد.

استمحيك عذرا عزيزى القارئ فى أن نرجع إلى الوراء قليلا لتدرك مدى ترقبهم وانتظارهم لهذ ا الدين الجديد.

فقد بشر اليهود فى العهد القديم (التوراة) بظهور المسيح ليخلصهم مما هم فيه من ضلال.. وفعلا انتظروه وتوقعوا مجيئه.. وتنبأ أنبياء اليهود بقدوم المسيح ووصفوه وتوقعوا مجيئه.. وتنبأ أنبياء اليهود بقدوم المسيح ووصفوه بسلوكه الهادئ المتواضع وبكل صفاته (لا يصيح ولا يصرخ ولا يسمع فى الشارع صوته) (سفر إشعياء ٤٢ آية إشعياء ٢ سفر زكريا ٩ آية ٩) ومع ذلك - وكنا ذكرنا - تربصوا به ولاغرو فى ذلك فهم كما وصفهم القرآن الكريم - وقتلة الأنبياء .. قد أعمت أعينهم روح التمرد والكبرياء التى كانت تعتمل فى داخل قلوبهم وفى صدورهم واستمروا فى عنجيتهم يصمون الآذان عن سماع كلام السيد المسيح ومواعظه.. إذ كانو يعتدون بأصلهم بأنهم من ذرية إبراهيم عليه السلام أبى الأنبياء، وأنهم شعب الله المختار فكيف ينصاعون لبشر أيا كان .. وأخيرا اجتمعوا وقاموا على المسيح يوشون به إلى الحكام ليعدموه، متحملين قصاص جريمتهم هم ونسلهم من بعدهم «دمه علينا وعلى أولادنا» (إنجيل متى إصحاح ٢٧ آية ٢٥) ص ٣٥ ح المصدر السابق.

واستمروا بعد ما فعلوه بالمسيح - فى غيهم - يلاحقون المسيحيين الطيبين محاولين استئصالهم من أوطانهم، وكانت أساليبهم فى ذلك ثلاثة أساليب:

أولا: الأسلوب المباشر: بالتعذيب والانتقام

ثانيا: أسلوب الوشاية: لدى السلطات الرومانية أو أى حكام فيما بعد - فهم دائما يتقربون للحكام لينالوا من المسيحيين، وفيما بعد من المسلمين والمسيحيين وخلق الوقيعة بينهما.

ثالثا: أسلوب الخداع: وهو أسلوب تحريف الفكر السليم.

فتلك هى محاولاتهم الدؤوبة لتحريف الإنجيل وخلق المذاهب المغرضة العديدة حتى تضرب من الداخل بعضها البعض بالنزاع والتشاجر بين أتباعها أى فيما بينهم من داخل المجتمع. وفيما يلى سوف نستعرض معا تاريخ وصور

التعذيب العديدة من الضرب بالسياط والمطاط(٢) والكماشات وحرق المسيحيين بالنار والمشاعل والزيت المغلى. ويمزقون أجسادهم بالآلات الحادة والادرمازتى وتقطع رؤوسهم ويموتون جوعا ويصلبون.

وقد استمر هذا التعذيب والاضطهاد أع وأعواما عديدة، فلم يكن يمر يوم إلا وكان يعذب فيه المئات من المسيحيين، وكانت كلما انتهت محاكمة فرقة منهم قدمت المجموعة الأخرى التى تليها، وكان المسيحيون المحكوم عليهم يساقون وهم فى نزعات الموت يرتلون المزامير والمدائح لخالقهم وفاديهم القدوس. وكانت الإسكندرية وقتذاك مدينة شهيرة بما لها من أثر على الثقافة العالمية إذ كانت جامعتها العريقة، وكلياتها المختلفة وأقسامها العديدة فى كل العلوم الدينية والدنيوية من فلسفة ولاهوت ولغات وديانات قديمة وتاريخ وزراعة وطب وهندسة وفلك وكيمياء وصيدلية، تضم صفوة من الأساتذة والفلاسفة والنساك فى شتى العلوم التجريبية والفلسفية، وأيضا كانت الإسكندرية تضم مكتبة غنية بمقتنياتها من كتب وأبحاث ودراسات وبرديات، واستطاعت المدينة العريقة أن تستقطب هذه الديانة الجديدة، وكان لظهور هذه الديانة الجديدة فى الإسكندرية بتفوقها وثقافتها، وحضارتها وغناها وكانت أيضا أكبر ميناء فى شرق البحر الأبيض المتوسط المسيحى فى أنحاء مصر السفلى ومصر الوسطى ومصر العليا بصرف النظر عن أن مؤسس الكنيسة المرقسية هو مرقس الرسول أحد الحواريين عند نزوله الأسكندرية عام ٥٠ ميلادية أو بعد رحيله. فقد اعتبر الحكام الرومان المسيحية بادئ الأمر إحدى النحل اليهودية - كما جاء ذكر ذلك فى الأوراق السابقة - فتركوها وشأنها؛ إذ كانت روما متسامحة كل التسامح فى المسائل الدينية، ولم تحاول أن تستأصل شأفة أى عبادة جديدة، إلا إذا كانت منافية للمبادئ الأخلاقية، أو لتعارضها مع السياسة العامة، أما فيما بعد فقد اعتبر المسيحيون مواطنين أشرارا، وذلك بفعل مكائد ودسائس اليهود - وأيضا عنصرا خطرا ضد المجتمع ليس فقط لأنهم كانوا يترفعون عن ممارسة شعائر الديانة الرسمية ولا يشتركون فى عبادة روما المؤلهة، أو الروح الحارسة للإمبراطور ولا لأنهم لم يقدسوا صور الأباطرة

ولكن تضامنهم وخلوتهم وقت التعبد كانا يوحيان بأنهم جماعة سرية، وهكذا كال لهم اليهود اتهامات من بينها ممارسة أبشع العادات كالزواج المحرم والشعائر المخلة بالآداب وإهراق الدماء، وتقديم دماء الأطفال وغيرهم قربانا للآلهة طبقا للطقوس الخاصة بهم، ومع ذلك كان حكام الولايات يحجمون أشد الإحجام فى معظم الأحيان عن تطبيق قانون العقوبات الرومانى عليهم، كما وجد من الوثنيين وأقربائهم من كانوا يتسترون على أصدقائهم من المسيحيين، أو حتى من كانوا مستعدين مجرد استعداد للقيام بهذا الدور مع تطبيق قانون العقوبات الرومانى، لكن طريقة التطبيق كانت تتعامل مع المسيحيين بطريقة تتجاوز حدود ماهو مألوف، فكان العذاب والقسوة هما الأساس فى التشفى من هؤلاء المساكين، الذين لم يسيئوا لأحد ولم يسببوا ضررا لأحد، وهكذا كله من كيد اليهود. واستمر العذاب خلال قصص الشهداء وسير بطولات المؤمنين وتضحياتهم وروحانياتهم، وهكذا كان الصمود وصلابة هؤلاء المؤمنين المسيحيين.. وما سوف نطالعه عزيزى القارئ فى الأوراق التالية.

هوامش الفصل الأول

(١) القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة صـ٩ .

(٢) القمص شنودة السريانى - الاستشهاد فى المسيحية - مطبعة دار العالم العربى - طبعة فبراير. ١٩٦٩ - صـ ٢ وما بعدها.

التعذيب والتسابق للاستشهاد

«دماء الشهداء بذار الكنيسة»

العلامة ترتليانوس (القرن الرابع الميلادى)

التعذيب والتسابق للاستشهاد

بعد أن استعرضنا فى الفصل الأول، كيف انتشر الدين المسيحى فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية بسرعة النار فى الهشيم فى يوم ريح عاصف وكالفيضان الكاسح لكل ما يعترضه، ومنها بالطبع مصر وكيف تصدت فصائل اليهود للدين بالكيد والتآمر لهؤلاء المسيحيين البسطاء، وكيف كالوا لهم الاتهامات الباطلة، ومن ناحية أخرى كيف كان هؤلاء المسيحيون يتسابقون زرافات ووحدانا ـ من أجل الاستشهاد ـ مؤكدين إيمانهم المسيحى، حاملين صلبانهم..

نستعرض فى هذا الفصل بعضا من صور البذل والتضحية من الذين أحبوا الله أكثر من أنفسهم، وضحوا بدمائهم من أجل رفع شأن الكنيسة ورفع شأن الدين المسيحى، وكيف قدم هؤلاء المسيحيون أرواحهم نماذج للحب والبذل والايمان، ومحبة كل البشر حتى الأعداء، وكيف كانوا يتحلون بروح المسيحية المفعمة بالحب، بالحب الخالص، الحب الباذل، الحب الذى يستهين بكل شئ ويتخطى كل الصعاب، ويصبر على الأزمات، وفى هذا يقول القمص السريانى فى كتاب الاستشهاد فى المسيحية: «المسيحية هى ديانة الحب؛ فإلهنا هو الحب ذاته (رسالة يوحنا الأول ٤ الأية ٨) ويتميز أتباعها عن غيرهم بالمحبة

(إنجيل يوحنا - الإصحاح ١٣ - الأية ٣٥) وقمة المحبة ما جاء بإنجيل متى الإصحاح ٥ - الأية ٤٤، أحبوا أعداءكم، باركو لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم فمن لم يعرف المحبة لا يعرف الله»

ولهذا كانت المسيحية هى المحبة فى أبهى صورها، وهى أيضا الألم فى مفهوم جديد ومذاق جديد لنشر الدين المجيد، وكما أوضحنا أن المسيحية كانت تنتشر فى كل أنحاء الإمبراطورية وعلى رأسها مصر، وكان للإسكندرية دور كبير فى حركة الديانة المسيحية، فيما بين شعب الإسكندرية ومثقفيها وعلمائها وفلاسفتها وكهنتها ونساكها - يبدو أنه كان للمناقشات العلمية فى أمو ر الدين الجديد دور فى اتساع حدة الخلاف وتجسيد العداء بين العلماء والفلاسفة والكهان والرهبان والنساك.. أهل الإسكندرية من ناحية، والرومان والحكام ورجال الإمبراطور من ناحية أخرى، مما أضاع على المدينة مركزها كعاصمة لدولة مستقلة، ورفض الإمبراطور أغسطس إنشاء مجلس للشورى لأهل الإسكندرية، بينما أقر لليهود جميع امتيازاتهم.. فقد كانت دوافع هجوم أهل الإسكندرية على اليهود أسهل من الهجوم على الرومان مباشرة، وبلغ من جراء زيادة المذابح الطائفية فى المدينة أن تدخلت الحامية الرومانية لقمع الاضطرابات وإرسال الوفود من جانب الفريقين إلى الإمبراطور، وإلى محاكمة بعض زعماء الإسكندرية أمام مجلس الإمبراطور، وفى ذلك يقول الكاتب المؤرخ اليهودى - وشهد شاهد من أهلها - واسمه فيلون السكندرى (Phlion) فى مؤلفه السفارة إلى جابوس (Legatio and Gaiunm) وهو الإمبراطور الشهير (كاليجولا) (Caligola) وعهده فيما بين ٣٧م - ٤١م ونشأ عن ذلك أدب الرسائل للإسكندريين (Acta Alexandrinorum) والذى يتشابه إلى حد كبير مع أعمال الشهداء المسيحيين، وكانت هذه الرسائل تصف شجاعة الأبطال الأوائل. وسوف نستعرض فى الصفحات التالية[1] بعض الصور لما كان يحدث من ظلم وتعذيب واضطهاد للمسيحيين الأوائل - من أدب الرسائل، وهى قصة أحد مديرى المعاهد الذى خاطب الإمبراطور بجرأة (وكان الامبراطور

حينذاك كلوديوس الذى حكم فى الفترة ما بين ٤١ م إلى عام ٥٤ ميلادية) قائلا «أنت الابن الذى تبرأت منه سالومى اليهودية، وقد اعتبرت هذه المقولة من الناظر تطاولا على الامبراطور، واعتبر أن هذا الناظر قد قذف الإمبراطور، بأبشع الأوصاف .. وهكذا ظلت الاضطهادات والتعذيب بسبب وبدون سبب واستمرت المحاكمات الجائرة والصورية غير المنطقية حتى عصر الامبراطور نيرون من عام ٥٤ حتى عام ٦٨ ميلادية - هذا الإمبراطور المجنون الذى أحرق روما وهو يعزف على قيثارته نغما نشازا متهما المسيحيين بإحراقها وهو فى الحقيقة يرمى إلى أن يحرق المسيحيين من سكان روما إذ أصبح سكان روما كلهم مسيحيين. واستمر التعذيب فى سائر أنحاء الإمبراطورية، وعلى رأسها مصر، حتى عصر الإمبراطور ديكيوس Decius الذى كان قد أصدر أمرا بأن يقدم جميع الرعايا بالامبراطورية إلى السلطات شهادات تفيد تقديم الرعايا القرابين للآلهة الوثنية، وأنه سكب الزيت على الأرض إكراما للآلهة. وكان الذين لا يقدمون هذه الشهادات يعتبرون خارجين عن دين الآباء، أى مسيحيين، وفى هذا المناخ لجأ بعض المسيحيين ممن لم يثبت الإيمان فى قلوبهم إلى أن يقدموا للسلطات شهادات مزورة حتى لا يعذبوا ويكتموا الايمان فى قلوبهم، وكان المسيحيون الحقيقيون الأبطال يعتبرون هؤلاء الذين يكتمون إيمانهم ضعاف النفوس والضمائر. وتعرض الذين رفضوا الامتثال لمرسوم الإمبراطور للاضطهاد والتعذيب بصورة وحشية، وكان الاضطهاد والتعذيب عموما يرجع إلى دوافع سياسية أكثر من رجوعه إلى دوافع دينية. ومن أقدم ما أرخ لهذه الفترة ما دونه المؤرخ سيتونيوس (Suetonius) الوثنى فى هذا الصدد (فى حوالى عام ٥٢ طرد الإمبراطور كلوديوس اليهود من روما لتمردهم على السلطة ظانا أو معتقدا أن المسيحيين الأوائل حرضوهم على التمرد، وفى هذا الصدد يقول المؤرخ شافت (Shaft) ممن شملهم منشور كلوديوس بطرد مواطنين من روما هما أكيلا وبرنتكلا لأنهما استضافا فابو لى الرسول وتقابلا فى كورنتس وبشر برسالته العقيدية المشهورة وكان فى طريقه إلى روما[٢].

وهكذا كانت السلطات تعاقب كل من يقابل أو يجتمع بالرسل أو حتى التلاميذ والحواريين.. فقد كان بولس الرسول خلال رحلاته تبشيره بالمسيحية يقابل الكثيرين ويلبى دعواتهم ويبقى فى ضيافتهم مثلما حدث ولبى دعوة بعض الإخوة فى مدينة صغيرة بجوار نابولى وعلى مقربة منها بحوالى ٤٠ ميلا.. هرع مجموعة إخوة من سكان روما لاستقبال بولس الرسول.

ومع بداية الثلث الأخير من القرن الأول الميلادى بدأت المسيحية فى الانتشار، آخذة فى الازدياد المطرد، مما دفع المؤمنين الأوائل إلى بناء كنيسة فى منطقة شرق الإسكندرية تسمى «بوكاليا» أى منطقة الأبقار أو مرعى البقر، ويقال إنه فى هذا الوقت أنشئ مارمرقس المدرسة اللاهوتية، وأقام بسطى رئيسا لها، ثم أخذ يجول فى جميع الأماكن التى يوجد بها المؤمنو ن مثبتا إياهم على إيمانهم الأقدس، وقد حدث فى يوم ٢٦ إبريل عام ٦٨م، بينما كان المسيحيون يحتفلون بعيد الفصح، والوثنيون يحتفلون بعيد إلاهم سيراسيس، أخذ الرسول مرقس يقبح عبادة المخلوق ونهى سامعيه عن هذا الضلال، وأرشدهم إلى طريق النو ر والحق والحياة، وكان الوثنيون يبغضونه بغضا شديدا، كلما رأوا نجا ح عمله واتباع الوثنيين له، ولما سمعوا منه هذه الأقوال استنكروها للغاية، وهاجوا فى المدينة طالبين برأس مرقس الرسول لتجرئه على آلهتهم فتربصوا له وضربوه وجروه من عنقه بحبل وأخذوا يطوفون به شوارع المدينة طوال النهار، ويجرونه على الصخور حتى تمزق لحمه وتهشمت عظامه وسال دمه البرئ وهو صابر محتمل الإهانات الشديدة والتحقير الكثير، حتى أتى الليل فى السجن حيث ظهر له ملاك الرب فى رؤيا وشد من أزره وقوى من عزيمته(٢).

واستمر المسيحيون يلتفون حول الرسل والتلاميذ والحواريين ويزداد اضطهاد الأباطرة لهم إلى أن جاء الأمبراطور أوميتان فيما بين ٨١ م و ٩٦م فضاق بهم ذرعا، وأمر بإبادة كل من هم من ذرية داوود، فأرسل واستحضر من فلسطين اثنين من أقارب الرب يسوع «بالجسد» وهما حفيدا يهوذا المدعو أخا الرب، لكن ما أن اطلع على ظروف فقرهما وحالتهما التى يرثى لها وبعد

أن سمع منهما عن معنى ملك المسيح وأنه ليس ملكا أرضيا عالميا حتى رق قلبه وعلى الفور أخلى سبيلهما. كما يؤكد ذلك قول المؤرخ باسيتوس أو تاكيتوس Tacitus الوثنى المعاصر لهذه الأحداث بقوله: إن الخرافة المسيحية قد أخمدت لزمان، يقصد مرسوم كلوديوس بإبعاد اليهود عن روما. والتى عادت للظهور ثانية تحت حكم نيرون فيما بين عام ٥٤م وعام ٦٨م ليعرف كيف اتهم اليهود المسيحيين فى السنين الأولى ظلما وبهتانا من قتل للأطفال وزنا بالمحارم واجتماعات المسيحيين السرية المسائية، هكذا كان يتقرب اليهود من السلطات وهكذا كان اليهود بتأثير عقد نفسية قديمة من أثر ما عانوه من الأسر البابلى أيام نبوخذ نصر.. وحريق الهيكل.. وخراب أورشليم على يد الرومان عام ٧٠ ميلادية وبعد ذلك جاء عهد الإمبراطور تيسوس.. فتكاتفت الظروف ضدالمسيحيين بتصفيتهم جسديا بالقتل والذبح والحرق وبالوسائل المختلفة وبتركهم منفردين مع الحيوانات المفترسة لتسلية أهالى روما والمدن الكبرى، ثم عادت الكرة ثانية بثورة أو عصيان باركوكبا - ابن الكوكب (Bar - Coch-ba) المسلح ضد الدولة الرومانية فى عهد (هادريان) الإمبراطور فى عام ١٣٥م فختمت مصيرهم كإمارة وكقومية بالإبادة والهجرة من فلسطين غداة تدمير أورشليم (القدس) والهيكل اليهودى بها مرة أخرى، ومن وقتها تحولت الشخصية اليهودية إلى شخصية مستضعفة خائفة مذعورة كما يقول هنتجتون المؤرخ اليهودى، تريد أن تحقق أغراضها بالتزلف إلى الحكام وبالمكر والخديعة، فضاعفوا لهم الكيل ضعفين فى وسائلهم ضد المسيحيين إثر عدائهم القديم للإغريق، فمنذ ظهور المسيحية واليهود لها بالمرصاد ومنذ رحلات الرسل للتبشير كان اليهود يشككون فى أقوال الرسل ويؤكدون على نقاط الاختلاف فى أقوال الدعاة والتلاميذ والحواريين، وتعميقها، لخلق عوامل الفرقة وتأكيد عوامل الخلاف ومحاولة خلق عوامل فرقة جديدة، وبذلك يضعون عوامل عرقلة الدعوة والكرازة العالمية «المسكونة»، ومثل ما حدث فيما بعد فى صدر الإسلام عندما وضعوا بذرة التشيع والتى خرجت منها عشرات النحل والمذاهب التى تخرج عن الإسلام بدرجات متفاوتة مثل البهائية والقاديانية والعلوية والاثنى عشرية وأيضا مذاهب جديدة لتكفير المسلمين..

وبعد ذلك استطاع اليهود أن يزيدوا الفرقة المسيحية بخلق مذاهب غريبة مثل شهود يهوه والسبتيين.. والماسونية والإلحاد.. نعود مرة ثانية إلى أساليب التعذيب التى اتخذها الرومان فى مجال تعذيب المسيحيين والتى ليس لها مثيل، فقد مثلوا بهم وجعلوا منهم تسلية لأهل روما ولأهالى المدن الكبرى، فى هذا نتصور المسرح غاصا بالجماهير المنتظرة بشغف لهذه التسلية الهمجية المتعطشة للدماء، وحفنة من المسيحيين واقفة فى وسط الملعب، وفى المقابل أسد متحفز أو نمر ضار أو مجموعة من الذئاب الجائعة، أو الكلاب البرية المسعورة، وتطلق هذه الحيوانات من أقفاصها وسط تهليل المتفرجين المتعطشين للدماء، ويبدأ الصراع بين هؤلاء المسيحيين العزل من أى سلاح إلا من سلاح الإيمان ضد هذه الحيوانات المسعورة الجائعة.. وفى النهاية يسقط البشر، وقد فتكت بهم الحيوانات، ويسقطون شهداء، ومن هؤلاء من لم يكن نال الشهادة، ويأتى الجنود فى النهاية بالسيوف على رقابهم فتضع حدا لآلام هذه الأجساد الممزقة أربا بنهاية سعوا اليها وطلبوها من أعدائهم وهى الاستشهاد .. يا لها من نهاية مأساوية بكل معانى البؤس والشقاء والعذاب والإيمان وأيضا الحب لقاتليهم.

وفى نهاية القرن الثانى وبدء القرن الثالث فى عصر البابا ديمترى الذى استمر على رأس الكنيسة معتليا كرسى البابوية ٤٢ سنة حدثت اضطرابات بمدينة الإسكندرية، مما دفع ليتوس الوالى الرومانى على مصر بمضاعفة الاضطهاد للشعب وعلى رأسها البطريركية، فهجمت حملة من الجنود الرومان على البطريركية ونهبوا أمتعتها وسلبوا الأوانى الفضية والذهبية وكل ما فيها من غال ونفيس، وقبض على البطريرك نفسه ونفى إلى أوسيم التى كانت مزدهرة حينذاك، وبقى بها إلى أن هبطت حدة العذاب(٤).

وهكذا تعاقبت جملة ملوك على المملكة الرومانية بعد فالريان، فتعطلت موجات التعذيب على مصر، حتى اعتلى عرش الإمبراطورية دقلديانوس عام ٢٨٤م وكان والى مصر حينذاك رجل اسمه أخيلوس واستقل بمصر ونادى بنفسه ملكا عليها، واختار طيبة عاصمة له وأقام بها أربعة سنوات لم يتمكن «جالريوس»

الوالى الرومانى فى خلالها من إخضاعه؛ فاضطر الإمبراطور دقلديانوس أن يحضر بنفسه إلى مصر ليقتص من أخيلوس على هذه المخالفة والجرأة ويخلص البلاد من يده، ولدى وصوله حاصر الإسكندرية وضيق عليها تضييقا شديدا، وبعد ثمانية أشهر فتحها عنوة واستولى عليها فأحرق المدينة وفتك بأهلها فتكا ذريعا(٥).

وكان قد ظن أن المسيحيين هم الذين أثاروا هذه الفتنة وناصروا أخيلوس، فاستعمل معهم الظلم والعسف والجور فى ذلك وارتكب ما لا يخطر على بال أحد من المآثم والمظالم، واقتفى أثر أخيلوس العاصى الذى هرب إلى داخل البلاد، فكان القيصر أينما حل يوقع بهم ويقتلهم ويهدم كنائسهم ويخرب معابدهم ويعذب رؤساءهم ويسبى نساءهم وأولادهم، وسبى كثير من أهل الإسكندرية وأباح لجنوده باقى أهلها ليفعلوا بهم ما يشاؤون، فعاثوا فى الأرض فسادا وأهلكوا الحرث والنسل وقتلوا وفتكوا ونهبوا وأراقوا الدماء أنهارا واشتدوا شدة لم يسبق لها مثيل.

واستمر دقلديانوس يعذب المسيحيين بأفظع أنواع العذاب رغبة فى تمزيق شملهم وحملهم على السجود للأصنام، وروى بعض الآباء أن دقلديانوس ركب ظهر فرسه وأمر جنده ألا يتركوا القتل حتى تسيل الدماء على الأرض وترتفع حتى تصل إلى ركبة فرسه، فكان من الألطاف الإلهية أن سقطت به الفرس على الأرض فتلوثت ركبتاه بالدم فتم قوله وأبطلوا القتل، غير أن كثير من المسيحيين كانوا محبوسين وقضى عليهم بالموت أو بالنفى، ولما شعروا بأن دقلديانوس ينوى بهم شرا تركوا مصر وفروا إلى بلاد أخرى.

وقد استمر الاضطهاد جاريا فى مصر ضد المسيحيين على مدار ثلاث سنوات، ففى نهايتها أصيب دقلديانوس بالجنون بعد أن أذاق المسيحيون ما لا يوصف من العذاب، ووصف أسابيوس المؤرخ فى هذا الصدد من واقع مشاهدته(٦): «أنه يصعب على الكاتب الماهر أن يصف ما تجرعه الشهداء فى صعيد مصر من عذاب قاس وآلام تشيب لها النواصى، فقد كانوا يأتون بهؤلاء الشهداء ويمزقون أجسادهم وينزعون عنها الجلد إلى أن ينكشف اللحم، وهكذا يفعلون بباقى أجزاء الجسم إلى أن يموتوا، أما النساء فكانت تربط إحداهن من

إحدى قدميها وترفع فى الهواء بواسطة آلة مخصصة لذلك بعد أن يخلعوا عنها ملابسها ويكشفوا كل جسمها وتظهر أمام جمهور المتفرجين بمظهر تنفر منه الإنسانية وتأباه كل النفوس الأبية، وكثيرون ماتوا بواسطة الأشجار بالطريقة الآتية، وهى أنهم كانوا يقربون غصنين قويين من شجرتين متقاربتين بآلة وضعت لهذا الغرض، ثم يجيئون بالشهيد ويربطونه بهذين الغصنين إحدى الساقين بأحدى أغصان الشجرتين والساق الأخرى بالغصن الآخر للشجرة الأخرى ثم يتركونهما ـ كلا من الغصنين ليعودا إلى أصلهما، فهذا يعتدل لجهة اليمين مثلا والآخر للشمال، والشهيد بينهما تتمزق أضلاعه وتسحق عظامه سحقا وتتطاير أجزاء جسمه واشلاءه فى الفضاء من قوة الدفع وشدة الاندفاع .

ولم تكف هذه الفظائع أيام وشهور بل كانت تستمر سنينا طوالا وهى فى أفظع حالاتها، وكيثرا ما كان يصدر حكم بقتل عشرة أشخاص فى لحظة واحدة، وأحيانا يقتلون عشرين رجلا مرة واحدة، وأحيانا ثلاثين وستين، ومرة حكم على مائة رجل بالموت فماتوا فى يوم واحد مع زوجاتهم وأولادهم الصغار، وذلك بعد أن ذاقوا من العذاب ألوانا(٧) .

وقد روى أوسابيوس أيضا قائلا: «وقد شاهدت بعينى بينما كنت واقفا أراقب جمعا غفيرا من المسيحيين جمعوا لينالوا الشهادة، ولكن بطرق مختلفة، فكان بعضهم تجز رؤوسهم، وبعضهم يحرقون فى أتون النار المتقدة حتى أن السيف الذى كانت تقطع به الرؤوس قد فل حده وتحطم تحطيما لكثرة ما سحق من الرقاب، وكذلك السيافون تعبوا وخارت قواهم من ذبح الآدميين ـ شهداء المسيحيين ـ فكانوا يستريحون لحظات ريثما يتنفسون الصعداء، وفيما تقدم يتضح ولاشك اننا شهود عدول على(٨) ما شهدناه بإيماننا من الغيرة الخارقة والقوة الإلهية الصحيحة والفرح فى الروح القدس الذى ملأ قلوب هؤلاء الذين يؤمنون بالمسيح ابن الله، إيمانا متينا جعلهم يتقبلون الموت بصدور منشرحة وثغور باسمة، حتى أنه عند ما كان يصدر الحكم على واحد منهم بالإعدام كان الأخرون يندفعون من كل صوب مزدحمين فى المحكمة أمام القاضى معترفين له بأنهم مسيحيون غير مبالين بما يلحق بهم من عذاب مريع

واضطهاد شنيع، بل كانوا يجاهرون بكل جرأة وشجاعة بديانتهم الحقيقية التى تعلم بوجود إله واحد عظيم خالق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها،

ومن العجيب الغريب أنه عندما كان يصدر الحكم النهائى بموتهم كانوا يقابلون هذا الحكم بفرح وتهليل حتى أنهم يرنمون ويرتلون أغانى الحمد والشكر لله الذى أهلهم لأن يموتوا لأجله، وكانوا يظلون يفرحون ويطربون إلى آخر نسمة فى حياتهم عندما تفارق أرواحهم أجسادهم.

نعم إن هذا غريب، ولكن الأعجب من هذا كله أن الأفراد الذين اشتهروا بغناهم وثرواتهم والذين عرفوا بطيب محتدهم وشرف نسبهم وذاع صيتهم فى الآفاق خصوصا لأنهم برعوا فى الفلسفة والعلم ونبغوا فى المعرفة والعرفان، وهؤلاء كانوا يحسبون كل هذه الأمجاد والمزايا من سقط المتاع، ويزدرون بها ازدراء فى جانب أهمية الدين الحقيقى والإيمان الصحيح بربنا ومخلصنا يسوع المسيح(٩).

هكذا كانت الجهالة والوثنية متمثلة فى السلطات المسيطرة على كل مقاليد الأمور فى الإمبراطورية بكل أرجائها فى عداوة شديدة، ومقاومة شرسة وكراهية لا تقاوم للمسيحية، من بداية عهد العالم بها ومحاولة إبادتها وهى فى مهدها ولا سند لها، اللهم إلا من ترس الإيمان، ودرع البر وخوذة الخلاص، وسيف الروح الذى هو روح الله.. (عن رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس الإصحاح ٦ الآيات من ١٤ إلى ١٦ حتى ٣١٨) ظلت الحرب قائمة بين الطرفين، حرب لا تكافؤ فيها، حب وصبر من المسيحيين، وجرائم وظلم من الإمبراطور ورجاله.. وظلت هذه الحروب وهذا الصراع قائما حتى مطلع القرن الرابع الميلادى حينما اندحرت وثنية الإمبراطورية الرومانية نهائيا، وظهر مجد المسيحية، ازداد عندئذ اليقين المسيحى بإيمان الفضائل تعميقا لمفهوم العبادات والجلد والصبر على الاستشهاد وتحققت للعلامة ترتليانوس نبوءته القائلة (دماء الشهداء بذار الكنيسة) وكان مصداق هذا أنه على بعد ميل واحد من روما عند قنطرة فلفيا كان عند هذه القنطرة بداية مظاهر انتصار المسيحية على لسان قسطنطين عندما أعلن مرسوم ميلان عام ٣١٣م.

هوامش الفصل الثانى

(١) القمص شنودة السريانى - الاستشهاد فى المسيحية - مطبعة دار العالم العربى - طبعة فبراير - ص ٢٢ وما بعدها.

(٢) القمص شنودة السريانى - الاستشهاد فى المسيحية - مطبعة دار العالم العربى طبعة فبراير ١٩٦٩ ص ٢٢ وما بعدها.

(٣) القمص منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - ص ١٦ .

(٤) القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - ص ٢٤ .

(٥) القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - ص ١٧٧ .

(٦) القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - ص ١٧٨ .

(٧) القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - ص ٢٤ .

(٨) المرجع السابق ص٢٤ .

(٩) القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - ص ١٧٩ .

الطريق إلى الرهبنة

«إن أراد أحـد أن يأتى ورائى فلينكر نفسـه
ويحـــمل صـليـــبـــه ويتـــبـــعـنى»

(إنجيل متى الإصحاح ١٦ الآية ٢٤)

الطريق إلى الرهبنة

في الأوراق السابقة طالعنا سويا، كيف كان الرومان يسومون المسيحين الأوائل سوء العذاب هم والشعوب المستعمرة المقهورة على امتداد خريطة العالم القديم في أوروبا وآسيا وأفريقيا... وكان كل شعب يذوق العذاب بمقدار، ولكن النصيب الأوفر والقدر الكبير من التعذيب كان لمصر والمصريين، الذين كانوا يتسابقون للاستشهاد لايبالون بصور التعذيب العديدة، فمصر كانت دائما الواحة لكل ضيف، فقد استضافت المسيح، وأحاط المصريون العائلة المقدسة بالرعاية والحماية والحنان والحب، ورأوا السيد المسيح، وقابلوا السيدة البتول مريم، خلال رحلتهم القاسية المليئة بالمخاطر والاستبسال من أجل الاستشهاد والموت في سبيل العقيدة المسيحية الجديدة، فليس من رأى كمن سمع، هكذا كان تعاطف المصريين مع العائلة المقدسة بالغا ومفعما بالحب والتقديس، فقد رأوا السيدة العذراء والسيد المسيح ولمسوهما وصافحوهما ورويت القصص والأحاديث عن هذه اللقاءات وأصبحت تراثا وعقيدة، لذلك كان نصيب المصريين من قسوة التعذيب أشد وأنكى من أي شعب آخر من شعوب الإمبراطورية الرومانية، فالمصريون آووا وحموا العائلة المقدسة الأم الرحيمة

مريم البتول وابنها الطفل الصغير بجسمه الرقيق وتستروا على الأماكن التى أختبأت فيها العائلة المقدسة...

وتحتفظ لنا ذاكرة التاريخ ببعض صور التعذيب التى لاقاها المصريون الأوائل من جنود الرومان والولاة، وهاك قصة أحد ولاة الصعيد، وهى ولاية أنصنا - وهى المنطقة التى تضم مركز إسنا، أى جنوب محافظة قنا الحالية، وكما يبدو أن التعذيب فى صعيد مصر كان يضرب به المثل فى قسوته، ولكنه الصابر الصبور، وتقبل أهل مصر وصعيدها على وجه الخصوص لهذا التعذيب الوحشى بصبر ورضا، وكان هذا الوالى - يسمى أرجوس - ملكيا أكثر من الملك وإمبراطوريا أكثر من الإمبراطور، يسعى لإرضاء سيده بتعذيب كل من يعتنق المسيحية، وكل من يعلن عن اعتناقه الدين الجديد المسيحى، يقدم الوالى أرجوس هذا ضحاياه المسيحيين قرابين ولاء للإمبراطور، وكان أثناء مروره على ولايته يتفقد بنفسه مدى تطبيق الأوامر الإمبراطورية وكيفية سيطرة الجنود والضباط على هؤلاء المسيحيين المتمردين على دين الآباء والأجداد، الذين يسببون أرقا مستمرا للإمبراطور ورجاله من ولاة وقواد وجنود. هذا القهر المستمر والعذاب المتزايد لأهل مصر دفع الكثير من الوثنيين أنفسهم للعطف على المسيحيين من كثرة ماشاهدوه من شدة الاضطهاد والعذاب الواقع عليهم، بل كانوا يتحملون عبء العقاب الواقع عليهم، إن كان حكما بالسجن أو بأحكام الغرامة المتلاحقة بدون سبب أو بسبب تسترهم على جيرانهم المسيحيين، وكان القديس أثناسيوس يقيم فى البطريركية الأرثوذكسية فى الإسكندرية، يراقب كل شئ، ويسمع ويحلل وكان يكتب ويسجل الكثير مما يراه.. وفيما يكتب عن رواية «اكليمنتوس السكندرى» بأن الكثير من المسيحيين كانوا يصلبون يوميا بواسطة الوثنيين بإيعاز من يهود الإسكندرية، ومنهم من كانت تقطع رءوسهم أو يحرقون أمام أعين أبنائهم، مثل ماحدث لأحد أهالى الإسكندرية، وكان يدعى «ليونيداس» ويبدو أنه كان من أعيان المدينة حينذاك، وكان قد اعتنق المسيحية ضمن من اعتنقوها، لذلك فقد قتل بأفظع ماتكون الوحشية أمام ابنه «أوريجانوس»[1]

وهذه رواية أخرى عن فتاة كانت تدعى «بوتوميا» وكانت شابة صغيرة مازالت عذراء على قدر كبير من الجمال والفتنة ذات أخلاق حميدة، اعتنقت المسيحية، حينذاك هددها الجنود بهتك عرضها، والفتك بشرفها إن لم تترك هذا الدين وتعود إلى دين الآباء والأجداد، ولكنها كانت ذات شخصية قوية وإيمان متين، فتمسكت بدينها، وبالفعل افترسها هؤلاء الجنود والضباط الحيوانات واعتدوا عليها وكان نصيبها فى النهاية الحرق، قد يكون الحرق هذا لإخفاء جريمتهم الأولى، وهى هتك عرضها، وماتت فى النهاية على أسوء مايكون التعذيب والتمثيل والقتل.. وأعظم مايكون الاستشهاد.

هذا شريط صغير قصير لذاكرة التاريخ عن بعض أحداث التعذيب التى لاقاها المصريون من قتل وحرق.. وفى كل مكان وزمان من الإسكندرية حتى حدود مصر الجنوبية.. فى بلاد النوبة ومابعدها... يلاحق كل المسيحيين المؤمنين... وهكذا لم يستسلم المصريون للعذاب والقهر ولكنهم لاذوا بالصحراء والفيافى واحتموا بالمقابر المهجورة وبالمغارات هروبا من صنوف العذاب وألوان الهوان، والتى صورها لنا المعاصرون لحكم الإمبراطور «دقلديانوس» وهى الفترة التى وصل فيها التعذيب إلى منتهاه والظلم إلى أقصاه لدرجة أن المصريين دون غيرهم من شعوب الإمبراطورية الرومانية قد اعتبروا عام ٢٨٤م بداية للتقويم المصرى - التقويم لعام الشهداء - لهذا كله فر الكثير من المؤمنين المصريين إلى الصحراء يتجمعون ويمارسون تعاليم الدين الجديد فى الخفاء، وانتشرت العبادة المسيحية تحت الأرض، فكان البطاركة والشمامسة يقومون بالتدريس والتبشير فى المناطق النائية المعزولة والبعيدة عن أعين الرومان وجنود القيصر، واستمرت المسيحية تنتشر هكذا سرا طيلة ثلاثة قرون بعيدا عن متناول الأيدى الطويلة لجنود الرومان.

فكان الهروب بعيدا عن أعين السلطات من جنود الشرطة إلى الأماكن النائية، وبدأ هذا الهروب أفرادا ثم تحول إلى جماعات صغيرة، وبدأ فى نهاية القرن الثالث يأخذ شكل الظاهرة المتكررة، ومع الوقت أصبح نمطا فى العبادة، والتنسك، وكانت هذه الجماعات تختار بالطبع أماكن مناسبة، فعندما يحطون

رحالهم فى مكان يختارونه طبقا لوفرة سبل الحياة، كوفرة المياه الجوفية المناسبة، كأن يكون المكان به بئر فعلا ـ منتجة. أو بئر مهجورة يقومون بإعادة حفرها وتطهيرها، وكان لكل جماعة منهم دليل على دراية بالصحراء ودروبها واستطلاع النجوم ومعرفة الاتجاهات، ومع ذلك كانوا فى أحيان كثيرة يتوهون فى الصحراء ويفقدون طريقهم ويهلكون، فنادرا ماكانوا يصلون إلى مقصدهم إلا بعد جهد جهيد....

وهكذا كانت الحكومة والأجهزة الأمنية هكذا فى كل زمان ومكان فى قلق من هذه الهجرات الجماعية، فكانوا يتعقبونهم حتى وهم هاربون وهم يتعبدون بضمائرهم ويتهجدون بقلوبهم وصدورهم تحت الأرض، وخلف الأسوار، وفى الخرائب، ومن كان يضبط منهم يسام ألوان العذاب، فكانت محطاتهم الأخيرة الكهوف فى ثنايا التلال والجبال على تخوم الوادى وفى مقابر الفراعنة المهجورة، وأطلال المعابد القديمة، وأقاموا الأديرة بعد ذلك، فكانت هذه الأديرة مراكز للإشعاع الدينى، ومقرا للعبادة، وهكذا بدأت بذرة الرهبنة، بطريقة بدائية، على الفطرة، وكانت هذه المراكز الدينية أو هذه الأديرة متقاربة مثل دير الأنبا بولا ودير الأنبا أنطونيوس غرب ساحل البحر الأحمر، (أقدم الأديرة فى العالم على الإطلاق).

ولذلك فان الانبا أنطونيوس – الذى أنشا الدير المسمى باسمه يسمى أبا الرهبان أو كوكب البرية الشرقية أى الصحراء الشرقية.

وهكذا تقوم الأديرة بدورها فى تقديم أولادها بروحانياتهم الشفافة للكنيسة المصرية الأرثوذوكسية، وتستمر المسيرة القومية المصرية خلال هذه الحقبة من تاريخ مصر.

وأحيانا كثيرة كانت الأديرة متباعدة متناثرة فى الصحراوات المصرية سواء أكانت فى الصحراء الشرقية أم فى الصحراء الغربية أم سيناء، فقد تصل المسافات بين الدير والدير الآخر إلى مئات الكيلو مترات، مثل الأديرة الموجودة فى سيناء، فيما بين ديز الطور على ساحل خليج السويس ودير وادى الراحة (دير سانت كاترين) فى سفح جبل موسى وجبل كاترين والدير الصغير

فى وادى فيران، وأحياناتكون الأديرة قريبة جدا من بعضها البعض مثل أديرة وادى النطرون.

وأيا كان الأمر من قرب الأديرة أو بعدها عن بعضها البعض أو كونها نائية وبعيدة عن الوادى والعمران، فإنها تعد مدارس وحلقات درس، حيث يتم تلقين التلاميذ الجدد من المسيحيين الدروس، وكانت هذه الحلقات تحفها الريبة والحذر وتحيط بها الشكوك وينتاب مرتاديها الخوف والرعب والفزع، فما أكثر العملاء والجواسيس الذين يندسون بين هؤلاء المؤمنين ويلبسون مسوح الرهبان، ويتظاهرون بالخشوع وفى نفس الوقت يتجسسون عليهم وينقلون أخبارهم ويدسون عليهم الجديد من الأخبار المحرفة والمعلومات المشوشة والتى تهيئ مناخا أكثر عزلة فيما بين هؤلاء المسيحيين بعضهم البعض، فى هذه الظروف الموحشة والحياة القاحلة. وكان يصاحب اللجوء للصحراء هذه عبادة الله فى المغارات والكهوف والأديرة، وأيضا فى المقابر الفرعونية المهجورة مثل مقابر الملكات فى الضفة الغربية من الأقصر ومناطق المقابر الفرعونية المتفرقة فى مصر مثل أبيدوس وأخميم وماحولها فى جبال الحواويش والسلامونى، ومازالت آثار إقامة هؤلاء النساك والرهبان على حوائط وأسقف هذه المقابر، وفى المنيا حيث مقابر بنى حسن وأسيوط وسيناء. وبهذه المناسبة سوف نعرج إلى أعماق الصحراء المصرية حيث البيئة النقية والهدوء، فقد كانت مكانا مناسبا للرهبان طالبى الصفاء والهدوء هروبا من الظلم والعذاب الذى كانوا يلاقونه ولم يكن لهم من يحميهم أو يدفع عنهم هذا العذاب سوى الموت نفسه، فكانوا يهيمون على وجوههم هاربين، يتعقبهم جنود وضباط الإمبراطور، يقتلون من تصل إليه أيديهم ويتركون من يهرب لعله يهلك فى الصحراء من القيظ أو الجوع والعطش، وكانت مجموعات الهاربين تتحرك خوفا من بطش جنود وضباط الإمبراطور فى تحفظ وحذر.

ومع مغيب الشمس، عندما يتحرك الليل ليلف الكون بعباءته السوداء ويعم الظلام كانوا يفضلون السير فى جنح الليل لتجنب أشعة الشمس الحارقة خصوصا فى صحراء وحرارة الرمال المهلكة وندرة المياه فى هذه الصحراء

المقفرة من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الليل يسترهم من أعين جنود الإمبراطور، وكانوا يملكون طرقهم بمساعدة المرشدين الذين يعرفون مسالك الدروب والطرق فى الوديان والجبال بهداية النجوم والتى كان المصريون يدركون كنهها ويتفوقون فى معرفة أسرارها.

وكانوا يعرفون مواقع الآبار. وكان بعض العابدين يؤثرون السلامة ويفضلون أن يبقوا بجوار أهليهم فيلجأون إلى مناطق قريبة ليبنوا أديرتهم على ضفاف النيل وعلى تخوم الوادى، والبعض أكثر حيطة كما ذكرنا من قبل يلجأون إلى مناطق أبعد، والبعض كان يغامر ويختار مناطق بعيدة جداً ويلجأ إلى أعماق الصحراء فى الواحات وفى سيناء مثل سانت كاترين أو الطور أو وادى فيران أو وادى غرندل والتى جاء ذكرها من قبل.

كانت مصر بطبيعة الحال كما أوضحنا سابقا غنية بالعلماء ورجال الدين والفلسفة والعلوم المختلفة الذين يعر فون الكثير عن الأديان وفلسفاتها وماتدعو إليه، منتشرين فى أكثر من جامعة ومدرسة على أرض مصر، هناك فى الصعيد علماء طيبة وفى الشمال جامعة أون (عين شمس حاليا) - وعلى رأس هذه الجامعات والتجمعات العلمية جامعة الإسكندرية بما فيها من حشد هائل من العلماء ورجال الدين، فكانت الجامعة تعج بالعلماء والمبعوثين من كل بقاع الإمبراطورية الرومانية، وكان الموضوع الرئيسى فى هذه الحقبة هو الديانة الجديدة، وكانت المدرسة اللاهوتية التابعة لجامعة الإسكندرية مركزا لدراسات قانون الإيمان لهذه العقيدة الجديدة، وكانت قلبا لكل الفكر اللاهوتى المعاصر حينذاك.

وهكذا كانت جامعة الإسكندرية بعلمائها المسيحيين تغلف الديانة الجديدة بالعلمانية، وأصبحت الديانة الجديدة مجالا للفلسفة أو الهرطقة، من كثرة النقاش حول الإيمان وقوانينه وطبيعة الإله....

كانت المنطقة تعج بالفلسفات وتفور بالأفكار المختلفة تبعا للمذاهب الكثيرة والمشارب الفلسفية. وهاهو ميليتس أسقف ليكوبوليس واختلافه مع القديس بطرس بابا الإسكندرية نفسه، وقانون الإيمان أن الله واحد فى ثلاثة أقانيم،

وسابليوس وإيمانه بفكرة أن الإله واحد ولكن بعدة أسماء. وأيضا أريوس وإيمانه بوحدانية الله وأن الله أقدم من الابن السيد المسيح لأنه مخلوق به.

وهكذا كانت المناقشات فى أروقة جامعة الإسكندرية ومدرسة اللاهوت وأيضا فى دهاليز الأديرة المنتشرة حوله، وسرعان ماأدى هذا الاختلاف إلى العداوات.

وتعدت المناقشات طبقة العلماء والمثقفين إلى بسطاء الشعب والعامة، وبذلك أصبح العامة يرددون مايناقش فى دهاليز الجامعة والأديرة والكنائس بدون فهم أو استيعاب، فكانوا يتجادلون فى شوارع الإسكندرية، ويصرخ الواحد منهم فيوجه الآخر قائلا: ياهرطوقى من الأكبر الوالد أم المولود؟ وآخر يقول هل من المعقول أنه يوجد ابن قبل ولادته؟ - وبالطبع لم يفهم هؤلاء البسطاء السذج أن لفظة ابن نسبة مجازية - لكنهم اتخذوها حرفية، ومن ناحية أخرى كان أتباع أريوس يرددون فى الشوارع: أيمكن أن يوجد ولد قبل أن يولد؟(٢).

وأيا كان من أمر اختلاف المشارب فى تفسير الظواهر الإلهية المحيطة - والذى وصل إلى حد الخلاف والاختلاف(٣) وقتل بعضهم بعضاً - فإننا فى هذه العجالة لم نشأ إلا أن نلقى الضوء على أن المناقشات العلمية والفلسفية كانت محتدمة لدرجة انزواء القضية الأصلية والحقيقة الفطرية وهى وحدانية الله وأزليته، والذى دفع بالكثير إلى الخروج إلى الفلاة للتعبد والعيش بعيداً فى الصحراء والجبال. وفى هذا المجال لا يسعنا إلا أن نتذكر قصة أبى الرهبان الأنبا أنطونيوس الذى سلك طريق الرهبنة واتجه مع مجموعة من النساك إلى جوف الصحراء الشرقية - كما أشرنا من قبل - ومن الطبيعى أن يكون ضمن هذه المجموعة البناءون والنجارون والحدادون والفلاحون والصيادون، والعمال العاديون، وأيضاً الأطباء، وكان الأنبا أنطونيوس مصرياً من أسرة طيبة، والداه يمتلكان ثروة لا بأس بها وكانا مسيحيين، وأما عن الباعث له على الرهبنة فكانت هو روح التقشف والزهد منذ البداية مع المسيحية شأنه شأن كل العباد والنساك فى هذا العصر، وأيضاً مما دفع هؤلاء إلى الرهبنة هو الاضطهادات المتتالية التى دفعت المسيحيين الأوائل إلى الصحراء والتى اتخذها البعض

موطناً، هذا علاوة على تأثير ونفوذ كنيسة الاسكندرية على الرعايا المسيحيين والثورة على الجسد والعزلة عن العالم(٤).

واستمر الأنبا أنطونيوس مع مجموعته مخترقين الصحراء الشرقية متجهين شرقاً فى اتجاه البحر الأحمر وأخيراً حطوا رحالهم فى مكان قريب من البحر على مسيرة يوم من شاطئه. وفى الغالب الأعم كانت هناك مجموعات سبقت الأنبا أنطونيوس فى الذهاب إلى هذه المنطقة، وأنه رحل إلى هذه المنطقة فى تاريخ لاحق لهذه المجموعات، ولكنه هو الذى قاد مجموعته الأخيرة والتى قامت ببناء هذا الدير وحفرت هذه الآبار - لعلها أعادت حفر وتطهير وتنظيف بئر مهجور كانت فى هذه البقعة الهادئة المباركة - وقاموا بصناعة كل ما يحتاجونه، وأيضاً تجهيز الأرض وزراعتها، بما يكفل لهم حياة التقشف أو الحد الأدنى للكفاف، ومن الطبيعى أنه كان هناك نوع من الاتصال الحذر فيما بين هذه الأديرة وبين الاسكندرية، أما الاتصال بين الأديرة بعضها وبعض، فيبدو أنه كان نادراً أو منقطعاً لبعد المسافات بينها.

وفى عصر الامبراطور دقلديانوس وهو عصر قمة الاضطهاد والتعذيب كما ذكرنا من قبل حيث وصل عدد القتلى من الشهداء إلى أكثر من ٨٠٠٫٠٠٠ نسمة(٥)، وحرصاً على مضاعفة التعذيب والتقتيل والذبح لكافة المسيحيين، كان القيصر جالريوس Galerius نائب دقلديانوس فى الشرق معارضاً عنيداً للمسيحية، وبذل جهداً لدفع الامبراطور إلى اضطهاد المسيحيين واستصدار أربعة قرارات فيما بين عامى ٣٠٢م، ٣٠٥ ميلادية للحث على سياسة الاضطهاد بما فيها حرق الأناجيل والكتب الدينية واعتبارهم خارجين على القانون، وقتل كل الرجال والنساء والأطفال الذين رفضوا تقديم القرابين للآلهة الوثنية، وكان وقع الاضطهاد شديداً على المصريين لدرجة أنهم اتخذوا من عام ٢٨٤م - وهو تاريخ تولية دقلديانوس عرش الإمبراطورية - بداية للتقويم القبطى كما أشرنا من قبل. وكان انتصار المسيحية هو فى الحقيقة تاريخ ظهور الدولة البيزنطية فى عهد قسطنطين الكبير، ففى عام ٣٠٥ ميلادية مرض دقلديانوس واعتزل وتولى مكانه جالريوس، وفى عام ٣١١ مرض واعتقد أن

سبب علته هو انتقام إله المسيحيين منه، لهذا أصدر فجأة مرسوماً يمنع اضطهاد المسيحيين وعفا عن المسجونين منهم وأطلق سراحهم، وأعلن حقهم في الوجود.

ويبدو أن هذا المرسوم لم ينفذ بصورة فعلية، إذ أن الجنود والضباط والمرشدين - ومن خلفهم اليهود - لم يكن من السهل عليهم الإقلاع عن التعذيب والاضطهاد الذى أصبح جزءا لايتجزأ من عملهم، فهو روتين يومى مستمر، حينذاك كانت الأخبار تصل إلى الأديرة وأماكن اختفاء هؤلاء المسيحيين الأوائل معلنة انتهاء الاضطهاد، وأحيانا تعلن أن موجة الاعتقالات والتعذيب بدأت مرة أخرى. وعندما كان معه هؤلاء الرهبان والنساك والمتعبدون، يترددون على القرى والمدن القريبة، تاركين أديرتهم وقلاياتهم، ليحضروا الحد الأدنى لما يحتاجونه ليستطيعوا مواصلة الحياة لحد الكفاف، كانوا يسترقون السمع لما يدور ويعرفون آخر الأخبار عن إخوانهم المسيحيين ومايلاقونه من تعذيب واعتقالات وقهر، وفى رحلة من رحلات أبى الرهبان الأنبا أنطونيوس للإسكندرية مرورا ببابليون كان متتبعا لمجموعة م المسيحيين المساقين إلى حتفهم بالوسائل المختلفة إن كان بالمقصلة أو بإطلاق الحيوانات الجائعة المفترسة عليهم أو القتل بالحرق البطيئ وعلى مراحل أو بالزيت المغلى ويسكب فى فواههم أو فى آذانهم، وفى أماكن حساسة فى أجسادهم هكذا كان يتحمل هؤلاء المسيحيون المساكين تلك الصور الشاذة والجامحة فى التعذيب. كل هذا والأنبا أنطونيوس تواق للاستشهاد معهم، ولكنه كان فى نفس الوقت حريصا على بث الهمة والشجاعة فى نفوس هؤلاء الإخوة فى الإيمان، وكان يتتبع مسيرة هؤلاء وهم يرتلون المزامير وآيات الإنجيل، يرسمون علامة الصليب على صدورهم(٦)، فالصليب عنوان هذا الدين الجديد ورمزه وعنوان التلمذة المسيحية الحقيقية وسر قوتها وجوهر مجدها. هكذا صار الصليب شرطا أساسيا للتلمذة للرب، وفى هذا يقول إنجيل متى الإصحاح ١٦ الآية ٢٤: «إن أراد أحد أن يأتى ورائى، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى». وهكذا كان الأنبا أنطونيوس يتبع هذه الجحافل من الشهداء الأطهار يوما بيوم وساعة بساعة،

إلى أن جاء يوم المحاكمة الصورية واستمر فى بث الشجاعة فى نفوسهم، يشد أزرهم، ويقبلهم وهم يستقبلون الموت، ياله من مشهد رهيب مفعم بالأسى والحزن، فهو يعانق إخوانه وأبناءه وهم فى طريقهم للموت. كل هذا والأنبا أنطونيوس يبدو فى قاعة المحاكمة فى أحسن مايكون، رابط الجأش قوى العزيمة، وهكذا أمضى الأنبا أنطونيوس حياته مستغرقا فى صلاته الدائمة لتكتب له الشهادة، فيما بين الدير فى جوف الصحراء الشرقية ومدينة الإسكندرية حيث المحكمة الكبرى حيث محاكمة هؤلاء الشهداء الأوائل العظماء، ومن أعظمهم المغبوط الراضى بقضاء الله وقدره الأسقف بطرس الأول. وأخيرا انتهت حياة الأنبا أنطونيوس كرأس للكنيسة القبطية الأرثوذكسية بالإسكندرية البابا السابع عشر فى ٢٥ نوفمبر عام ٣١١م. وفى الدير الذى أقامه فى الزعفرانة فى صحراء الشرقية تتلمذ العديد من المسيحيين وعاش العديد من الرهبان وأنفقوا حياتهم فى الدرس والتحصيل وفى العمل الشاق والتقشف والتبتل والعبادة، وتخرج من هذا الدير وهذا الصرح الكنسى اثنا عشر قطبا تولوا رئاسة الكنيسة المصرية بالإسكندرية كما نوهنا عن ذلك فى الصفحات السابقة. ومن هؤلاء الرهبان العظام غير الأنبا بولا الذى ورد ذكره من قبل الباباوات التالية أسماءهم:(٧)

الأول: الأنبا أثناسيوس الرسولى وهو البابا العشرون تتلمذ على يد القديس الأنبا أنطونيوس.

الثـانى: الأنبا أثناسيوس الثانى وهو البابا الثامن والعشرون.

الثالث: الأنبا متاوس الأول وهو البابا السابع والثمانون الملقب بمتى المسكين.

الرابـع: الأنبا غبريال السادس وهو البابا الحادى والتسعون.

الخامس: الأنبا يونس الخامس عشر وهو البابا ٩٩.

السادس: الأنبا مرقس السادس وهو البابا ١٠٦.

السـابـع: الأنبا يؤنس السادس عشر وهو البابا ١٠٣.

الثامن: الأنبا يؤنس الثامن عشر وهو البابا ١٠٧.

التاسع : الأنبا مرقس الثامن وهو البابا الثامن بعد المائة.

العاشر: الأنبا بطرس السابع وهو البابا التاسع بعد المائة.

الحادى عشر: الأنبا كيرلس الرابع وهو البابا ١١٠.

الثانى عشر: الأنبا يوساب الثانى وهو البابا ١١٥.

ومن دير الأنبا بولا ذلك الصرح الذى يقع على مقربة من دير الأنبا أنطونيوس اعتلى كرسى البابوية ثلاث بابوات هم:

الأول : الأنبا بطرس السادس وهو البابا الرابع بعد المائة.

الثانى : الأنبا يؤنس السابع عشر وهو البابا الخامس بعد المائة.

الثالث: الأنبا مرقس السابع وهو البابا السادس بعد المائة

ويعتقد أن دير الأنبا بولا هو ثانى دير فى العالم بعد دير الأنبا أنطونيوس، وقد أنشأه الأنبا بولا وهو تلميذ الأنبا أنطونيوس - ولذلك كان يسمى أول النساك.

ومن الرهبان العظام أيضا أبو مقار الكبير، وهو الذى شيد الدير الموجود على حافة الدلتا فى المنطقة المعروفة حاليا بدير الأنبا مكارى، وفى هذه المنطقة فيما بين وادى النطرون جنوبا حتى غرب الإسكندرية شمالا كانت توجد الأديرة البدائية التى تم تهديمها كلها فى عهد الاحتلال الفارسى[٨] مع مطلع القرن السابع الميلادى كما سيأتى ذكره فيما بعد، ومن هذا الدير وحده وصل إلى كرسى البابوية خمسة وعشرون بابا وهم كما يلى: [٩]

الأول : الأنبا كيرلس الأول وهو البابا الرابع والعشرون الملقب بعمود الدين.

الثانى : الأنبا يونس الأول وهو البابا التاسع والعشرون.

الثالث : الأنبا إيساك وهو البابا الحادى والأربعون (إسحق) وكان كاتبا مبدعا.

الرابع : الأنبا قزما الأول وهو البابا الرابع والأربعون لم يستمر على الكرسى طويلا.

الخامس : الأنبا ميخائيل الأول وهو البابا السادس والأربعون.

السادس : الأنبا مينا الأول وهو البابا السابع والأربعون.

السابع : الأنبا يؤنس الرابع وهو البابا الثامن والأربعون أول من انتخب بالقرعة.

الثامن : الأنبا ياكوبس وهو البابا الخمسون (إعادة تعمير أديرة وادى النطرون).

التاسع : الأنبا يوساب الأول وهو البابا الثانى والخمسون.

العاشر: الأنبا قزما الثانى وهو البابا الرابع والخمسون وقد عاون معه الخليفة المتوكل(١٠).

الحادى عشر: الأنبا شنودة الأول البابا الخامس والخمسون وتعاون مع الولاة فى التنمية العمرانية وإنشاء قنوات للمياه العذبة تحت مدينة الإسكندرية.

الثانى عشر: الأنبا ميخائيل الثالث وهو البابا السادس والخمسون.

الثالث عشر: الأنبا غبريال الأول وهو البابا السابع والخمسون، وقد تمت سرقة جسد مار مرقس فى رسالته.

الرابع عشر: الأنبا قزما الثالث وهو البابا الثانى والخمسون وقد تمت فى عهده أحداث من التدمير والتقتيل.

الخامس عشر: الأنبا مكارى الأول وهو البابا التاسع والخمسون، وكان فنانا.. وحكيما.

السادس عشر: الأنبا مينا الثانى وهو البابا الواحد والستون، وكان شجاع وقوى الإيمان ومستقيم الخلق.

السابع عشر: الأنبا (فيلوثيوس) وهو البابا الثالث والستون، وفى عهده تمت إعادة الصلات بين كنيسة مصر والحبشة.

الثامن عشر: الأنبا شنودة الثانى وهو البابا الخامس والستون، وفى عهده كان الظلم يعم البلاد ولاقى المسيحيون مثل باقى الأمة ـ مسلمين ومسيحيين ـ الهوان والظلم والعذاب.

التاسع عشر: الأنبا ميخائيل الرابع (١٠٩٤).

العشرون: الأنبا كيرلس الثانى وهو البابا السابع والستون، القرن الحادى عشر، وكان مشرعا حكيما.

الواحد والعشرون: الأنبا مكارى الثانى وهو البابا التاسع والستون.

الثانى والعشرون: الأنبا ميخائيل الخامس وهو البابا الواحد والسبعون، وكان متواضعا وعفيفا ومطيعا.

الثالث والعشرون: الأنبا مرقس الخامس وهو البابا الثامن والتسعون وكان صبورا وورعا ومحباً للخير.

الرابع والعشرون: الأنبا متاوس الثالث وهو البابا المائة وقد اتخذ من الأنبا مكارى الكبير قدوة ونجما هاديا.

الخامس والعشرون: الأنبا ديمتريوس الثانى وهو البابا الحادى عشر بعد المائة، قد اعتلى الكرسى فى عام ١٨٧٠ القرن التاسع عشر وكان سياسيا فقد عرف كيف يكسب رضى كل من سلطان تركيا والخديوى إسماعيل.

وهكذا خلال عشرين قرنا من الزمان، ومع استقرار كلمة الله فى صدور المصريين ومع توالى جلوس الباباوات على عرش بابوية الكنيسة الأرثوذكسية المصرية (بطريركية الكرازة المرقسية بالإسكندرية).

وصل عدد الباباوات حتى نهاية القرن العشرين سبعة عشر بابا بعد المائة بجلوس البابا شنودة الثالث فى عام ١٩٧٢ والذى قدم من دير السيدة العذراء المعروف بالسريان(١١)، وفى هذا الصدد نود أن نشير إلى أن معظم باباوات الكنيسة المرقسية تخرجوا فى مدرسة الرهبنة والتبتل والتقشف، فقد وصل عددهم إلى حوالى ٧٠ بابا جاءوا من عدة أديرة تطرقنا إلى بعضها فى

الأوراق السابقة والتى يصل عددها حاليا مع نهاية القرن العشرين إلى قرابة المائة دير على امتداد خريطة مصر، منها الصغير ومنها الكبير. وهى الأديرة التى بقيت مما هدم على أيدى البيزنطيين وهى حالات قليلة، أو مئات الكنائس وآلاف الأديرة والقلايات، التى هدمت تماما وقتل من فيها من رهبان وقساوسة ونساك على أيدى الاحتلال الفارسى.

والشئ بالشئ يذكر، فإنه مع عدم استقرار الحكم وجنوح العدل وتفشى الظلم واضطراب الأمن، والذى معه تكون أيضا السيطرة على الصحراء منعدمة، فيكثر قطاع الطرق وتزداد اعتداءات البدو على القوافل التجارية ويصل الضياع الأمنى وعدم الاستقرار إلى حد الاعتداء على قوافل التجارة والحج.

وفى هذه الفترات تهددت الأديرة من هؤلاء البدو وقطاع الطرق، وليست الأديرة فقط التى كانت مهددة ولكن أيضا سكان القرى والواحات، واستمر الرهبان يعانون الظلم أحيانا وينعمون بالاطمئنان والسكينة فترات الحكم العادل شأنهم فى ذلك شأن كل الشعب المصرى - المسيحيين والمسلمين واليهود - على مدى العصور وعلى حد سواء. ترجع عزيزى القارئ مرة أخرى إلى صحراوات مصر فتجد فى سيناء ثلاثة أديرة أهمها دير سانت كاترين ومرتبط به دير وادى فيران الدير الصغير وكذلك دير الطور شمال مدينة الطور المطل على خليج السويس المجاور لحمام موسى.

وفى منطقة الصحراء الغربية توجد عدة أديرة تم إنشاؤها فى فترات متفاوتة خلال الاضطهاد البيزنطى الكبير فيما بين نهاية القرن الثالث وأوائل القرن الرابع، وهى الأديرة التى لم يسلم معظمها فيما بعد من الاعتداء الفارسى والتى أعيد ترميمها وبناؤها من جديد بعد تحرير مصر من الفرس والبيزنطيين، ومن هذه الأديرة دير مريوط الشهير غرب مدينة الإسكندرية.
ومن هذا الدير اعتلى الكرسى البابوى أربعة باباوات هم:

أولا: الأنبا دميانوس وهو البابا الخامس والثلاثون، وهو البابا الذى بذل مجهودا يفوق طاقة البشر من أجل أن يوضح العقيدة الأرثوذكسية.

ثانيا : الأنبا بنيامين وهو البابا الثامن والثلاثون، وهو البابا الذى هجر الدير وهرب إلى الفلاة مع بداية الاحتلال البيزنطى وحكم هرقل، واستمر هروبه خلال فترة الاحتلال إلى أن قدم إلى الإسكندرية وقابل عمرو بن العاص بعد رجوعه من مخبئه، وبعد أن أطمأن الحكم واستقر فى مصر على أثر تحرير مصر من الاحتلال البيزنطى الثانى، وهذا ماسوف نطالعه معا فى الفصول التالية.(١٢)

ثالثا : الأنبا ثيودوروس وهو البابا الخامس والأربعون والذى سعى سعيا دؤوبا من أجل الكمال المسيحى.

رابعا: الأنبا ميخائيل الثانى وهو البابا الثالث والخمسون والذى لم يستمر على كرسى البابوية إلا سنوات قليلة.

وهذا الدير تم تخريبه تماما على أيدى القوات الفارسية المحتلة ضمن ماهدم من أديرة وهدمته وتركته أطلالا متناثرة، أحجارا وأعمدة مهشمة ومتناثرة على امتداد صحراء الإسكندرية، وذلك فى أوائل القرن السابع والذى على أثره كانت هجرة كل الرهبان والنساك، ولكن بعد ثلاثة عشر عاما بعد تحرير مصر نهائيا من الفرس والبيزنطيين رفرف السلام على كل أرجاء مصر، وتم بناء بعض الكنائس والأديرة التى أمكن إعادة بنائها أو ترميمها. ومن الأديرة التى تخرج منها باباوات عظام دير الزجاج أيضا فى الصحراء غرب الإسكندرية، فقد اعتلى عرش الباباوية من هذا الدير ثلاثة باباوات وهم:

الأول: الأنبا بطرس الرابع وهو البابا الرابع والثلاثون والذى لاقى العذاب على أيدى الاحتلال البيزنطى(١٣).

الثانى: الأنبا سيمون الأول وهو البابا الثانى والأربعون، وكان متواضعا(١٤).

الثالث : الأنبا الكسندروس وهو البابا الثالث والأربعون وكان يمتاز بالحكمة والنزاهة (١٥).

وهذا الدير مثله مثل دير مريوط، فقد تم تخريبه تماما بمعرفة قوات الاحتلال الفارسي، وقد استمر مهدما إلى أن تحررت مصر وحكمها عمرو بن العاص بعدله وحكمته المشهودة وتم إعادة بناء معظم الكنائس والأديرة التى أمكن جمع أحجارها وأعمدتها المتبقية المتناثرة على امتداد الصحراء. ومن الأديرة المشهورة التى زودت الفكر المسيحى بالقدوة الحسنة: دير السيدة العذراء المعروف «بالدير المحرق» على ضفاف الوادى فى صعيد مصر، وتخرج فى هذا الدير ثلاثة باباوات هم:

الأول: الأنبا غبريال الرابع وهو البابا السادس والثمانون وكان عابدا مهيبا.

الثانى: الأنبا متاوس الثانى وهو البابا التسعون وفى عصره بدأ الهدوء

الثالث: الأنبا يونس الثانى عشر وهو البابا الثالث والتسعون، ولم يستمر على عرش البابا كثيرا.

ومن الأديرة الشهيرة الموجودة فى صعيد مصر، وتزود الكنيسة بالقدوة الحسنة دير الأنبا بيشوى وأنشأ هذا الدير الأنبا بيشوى وكان يلقب بالرجل الكامل وفى هذا الدير تخرج اثنان جلسا على كرسى البابوية هم:

الأول: الأنبا غبريال الثانى، وهو البابا السابع والتسعون

الثانى: الأنبا مكارى الثالث وهو البابا الرابع عشر بعد لمائة.

دير السيدة العذراء المعروف باليرموس.

وتقلد من رهبان هذا الدير ستة باباوات هم:

الأول: الأنبا فريستو دوللوس وهو البابا السادس والستون وهو أول من نقل كرسى البابوية إلى القاهرة.

الثانى: الأنبا يؤنس الرابع عشر وهو البابا السادس والتسعون.

الثالث: الأنبا متاوس الرابع وهو البابا الثانى بعد المائة.

الرابع: الأنبا كيرلس الخامس وهو البابا الثانى عشر بعد المائة (عصر مطلع القرن العشرين)

الخامس: الأنبا يؤنس التاسع عشر وهو البابا الثالث عشر بعد المائة

السادس: الأنبا كيرلس السادس وهو البابا السادس عشر بعد المائة.

ويأتي دير السيدة العذراء المعروف بالسريان، ومن المتعارف أن الذى شيد هذا الدير الأنبا يؤنس، وكان الأنبا يؤنس الخامس وهو البابا الثانى والسبعون. وفى هذا الدير تخرج لرئاسة الكنيسة الأرثوذكسية المصرية:

أولا: الأنبا غبريال السابع وهو البابا الخامس والتسعون وقد قام هذ البابا بتعمير دير الأنبا أنطونيوس ودير الأنبا بولا.

ثانيا: الأنبا شنودة الثالث وهو البابا السابع عشر بعد المائة. ومن الأديرة المحيطة بالقاهرة وأشهرها دير شهران وهو بمنطقة المعادى وفى هذا الدير تخرج ثلاثة باباوات هم:

الأول: الأنبا يؤنس الثامن وهو البابا الثمانون.

الثانى: الأنبا بطرس الخامس وهو البابا الثالث والثمانون.

الثالث: الأنبا مرقس الرابع، وهو البابا الرابع والثمانون.

وعلى امتداد الوادى فى صعيد مصر عشرات الأديرة الشهيرة منها:

دير أبو فانا: وفى هذا الدير تخرج الأنبا ميودوسيوس الثانى وهو البابا التاسع والسبعون.

دير مار بقطر: فى منطقة الفيوم، وتخرج فى هذا الدير الأنبا كيرلس الثالث وهو البابا الخامس والسبعون وهو أول من أنشأ مطرانية بالقدس.

دير أنبا صموئيل القلمونى: وتخرج فى هذا الدير الأنبا غبريال الخامس وهو البابا الثانى والثمانون.

دير أنبا يؤنس كامى: ومن هذا الدير اعتلى كرسى الكنيسة المصرية الأنبا يؤنس الخامس وهو البابا الثانى والسبعون..... إلخ.

وهكذا استمرت رسالة الأديرة فى تقديم العلم وترسيخ قواعد السلام وتدعيم الوحدة الوطنية.

هوامش الفصل الثالث

(١) القمص شنودة السرياني ـ الاستشهاد في المسيحية ـ مطبعة العالم العربي ـ طبعة فبراير ١٩٦٩ ـ صـ٢٢ ومابعدها.

(٢) القس منسى يوحنا ـ تاريخ الكنيسة القبطية ـ مكتبة المحبة ـ صـ٢٠٩.

(٣) القس منسى يوحنا ـ تاريخ الكنيسة القبطية ـ مكتبة المحبة ـ صـ١٨١ ومابعدها.

(٤) المرجع السابق ص٧١ ومابعدها.

(٥) صبرى معوض صـ٩٨.

(٦) حياة الأنبا أنطونيوس ـ ترجمة القس مرقس مراد ـ صـ٧١١ ومابعدها.

(٧) إيريس حبيب المصرى ـ قصة الكنيسة القبطية ـ الكتاب الخامس ـ مكتبة المحبة ـ صـ١٦٢ ومابعدها.

(٨) القس منسى يوحنا ـ تاريخ الكنيسة القبطية ـ مكتبة المحبة صـ٣٠٣، صـ ٣٠٤.

(٩) إيريس حبيب المصرى ـ قصة الكنيسة القبطية ـ مكتبة المحبة ـ صـ١٦٢ ومابعدها

(١٠) إيريس حبيب المصرى ـ قصة الكنيسة القبطية ـ الكتاب الخامس ـ مكتبة المحبة ـ صـ١٦١وما بعدها.

(١١) إيريس حبيب المصرى ـ قصة الكنيسة القبطية ـ الكتاب الخامس ـ مكتبة المحبة ـ ص ١٦٤.

(١٢) القس منسى يوحنا ـ تاريخ الكنيسة القبطية ـ مكتبة المحبة ـ صـ٢٩٠.

(١٣) إيريس حبيب المصرى ـ قصة الكنيسة القبطية ـ الكتاب الخامس ـ مكتبة المحبة ـ صـ١٦٥.

(١٤) المصدر السابق صـ١٦٥.

(١٥) إيريس حبيب المصرى ـ قصة الكنيسة القبطية ـ الكتاب الخامس ـ مكتبة المحبة ـ صـ١٦٥

الاضطهاد البيزنطى للمصريين

«يمنع اضطهاد المسيحيين ويعفي كافة المسيحيين، ويكفل لهم الحق فى الحياة والوجود والتسامح وممارسة شعائرهم المسيحية»

مرسوم ميلان ـ مارس عام ٣١٣

الاضطهاد البيزنطى للمصريين

بدأ العصر البيزنطى مع مطلع القرن الرابع الميلادى، وكان هذا فى نهاية حكم دقلديانوس.. واسمح لى عزيزى القارئ أن نرجع قليلا إلى الوراء لكى نستطلع الأحوال قبل تأسيس الإمبراطورية البيزنطية، فمع بداية حكم دقلديانوس فى أواخر القرن الثالث الميلادى، وبالتحديد فى عام ٢٨٤م، عندما تم تنصيب دقليانوس إمبراطور - حيث وصل التعذيب والقتل إلى أقصى مداه، على يد نائبه فى الشرق جالريوس، حتى أن المصريين اعتبروا يوم توليه الحكم - امبراطورا - بداية التقويم القبطى[١]، وعند مطلع القرن الرابع فيما بين عام ٣٠٢، ٣٠٥ أصدر دقلديانوس ونائبه جالريوس أربعة مراسيم تحث على اضطهاد المسيحيين، بما فى ذلك حرق الأناجيل والكتب الدينية، ومنع المسيحيين من التجمع وتحريم إقامة الطقوس والشعائر الدينية واعتبار من يقوم بالشعائر ويقيم الصلاة خارجا على القانون وتم قتل كل الرجال والنساء والشيوخ والأطفال الذين يرفضون تقديم القرابين للأوثان الآلهة، وبقدر ماشمل هذا الاضطهاد الإمبراطورية كلها غربها وشرقها، إلا أن نصيب مصر كان النصيب الأكبر - ولتسمح لى عزيزى القارئ أن نلقى الضوء على الإمبراطور دقلديانوس الذى كان معروفا بالحكمة وحسن الإدارة - إذ أنه تدرج فى المناصب الإدارية من القاعدة حتى القمة وكان شاهدا على عصره فكان أهلا

ليكون امبراطورا مصلحا، وأدرك أن هذه الإمبراطورية العظيمة المثقلة بالمشاكل والهموم لايمكن إدارتها بطريقة تقليدية، فبدأ فى وضع نظام غير تقليدى فى حكم هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف(٢).

وتنطلق بداية هذا العصر عندما بدأ دقلديانوس إصلاحاته الإدارية عام ٢٨٦م بعد توليه الحكم بعامين بفكرة كانت جديدة تماما، فقد قسم مسئولية إدارة الإمبراطورية فى يد إمبراطورين، يلقب كل منهما بلقب أغسطس، يحكم أحدهما الجناح الشرقى من الإمبراطورية، ويقوم الآخر بحكم الجناح الغربى منها. وكانت هذه الفكرة الجديدة تحمل فى طياتها بذور انقسامها فيما بعد. وفى عام ٢٩٣م قرر دقلديانوس أن يعين مساعدا لكل من الإمبراطورين أو نائبا اتخذ لقب قيصر يحل محل الأغسطس بعد وفاته أو استعفائه(٣).

واستقر دقلديانوس فى الولايات الأسيوية، ومصر، وكانت نيقوسيا مركزا لها، وعين رفيق سلاح قديم له اسمه ماكسيميان (Maximian) أغسطس على الحناح الغربى، يحكم إيطاليا وشمال أفريقيا وأسبانيا ومقره مدينة ميلان، أما القيصران المساعدان للإمبراطورين فهما جاليريوس (Galerius) الذى حكم شبه جزيرة البلقان وولايات الدانوب المجاورة ومركزه ميرميوم وهو قيصر لدقلديانوس، وقسطنطيوس قلورس (Constantius Clorus) الذى حكم فرنسا وبريطانيا ومركزه مدينة تريفيس يورك، وكان قيصرا لماكسيميان. ويلاحظ أن هذا التقسيم وتحديد المسئوليات هو لمنع قواد الجيش الامبراطورى من تعقب الأباطرة وعزلهم. واعتبر هؤلاء للإمبراطورية الرومانية الواحدة، وكل المراسيم والأوامر والقرارات الإمبراطورية أدركت ضمنيا - وقتذاك - بوادر الاختلاف بين الشرق اليونانى الإغريقى والغرب اللاتينى - ونجح هذا النظام إلى حد ما، مما جعلها تصمد أمام العدوان الخارجى مؤقتا(٤).

ومع وصول الإمبراطور قسطنطين الكبير وانفراده بحكم الإمبراطورية الرومانية ، قام باختيار مكان مستوطنة على شاطئ البوسفور مركزا لتأسيس عاصمة جديدة، وكان هذا النظام يحرم حكام الولايات من السلطات العسكرية ومن قيادة الجيوش - وجعل لقيادة الجيش فرسانا ذوى مؤهلات عسكرية

خاصة. وكانت مصر من الولايات الرومانية والتى كانت بالدرجة الأولى مزرعة للقمح والكروم، وكانت هذه الإجراءات المعقدة، تستلزم أعدادا كبيرة من الموظفين ذوى المرتبات الكبيرة، مما أرهق الدولة اقتصاديا، وهذا الإرهاق الاقتصادى تحملته مصر وحدها - ومن ناحية أخرى كانت الإجراءات تحمل فى طياتها عوامل فشلها(٥).

فزاد التضخم الاقتصادى، وزادت نفقات المعيشة بزيادة الأسعار، ولم تفلح الحكومة فى وضع حد للغلاء، وزاد غش العملات الذهبية فى محاولة للقضاء على الغلاء. ولم يستطع دقلديانوس الذى كان حتى هذا الحين وثنيا - أن يحل مشكلة قصور الوثنية فى بلوغ الاستقرار الاجتماعى والنفسى لجماهير شعوب الإمبراطورية الواسعة، فما زالت الشعوب العديدة المختلفة - ولمصر طبعا - النصيب الأوفر من الاضطهاد السياسى والاقتصادى من الرومان، فالمسيحية كانت قد تغلغلت فى نفوس العديد من شعوب الإمبراطورية، وكان الاعتقاد حينذاك سائدا بأن المسيحية تهدد أمن الإمبراطورية، وأن إنقاذ الإمبراطورية لن يتحقق إلا عن طريق اتباع الطقوس الوثنية الرومانية، فكان هذا الاعتقاد يدفع إلى مزيد من الاضطهاد فى محاولة لاستئصال المسيحية والقضاء عليها وقتل كل أتباعها، وفى هذا الوقت كانت مصر وشعبها المتدين أكثر شعوب الإمبراطورية تمسكا بالدين الجديد، وكان القيصر جالريوس نائب دقلديانوس فى الشرق معارضا شرسا للمسيحية ومن ألد أعدائها، ونجح فى دفع دقلديانوس إلى اضطهاد المسيحيين الذين انتشروا انتشارا يلفت النظر ويسترعى الانتباه، وهذا الاضطهاد - فى حد ذاته كان انتصارا للمسيحية، كما كان يعتبر تاريخ ظهور الدولة البيزنطية(٦).

ففى عام ٣٠٥م مرض دقلديانوس وتقدمت به السن، فتنازل هو ومكسيميان عن لقبيهما (الإمبراطور) واعتزلا العمل السياسى، وأصبح جالريوس حاكما للقسم الشرقى للإمبراطورية، خلفا لدقلديانوس، فى حين أصبح قسطنطيوس (والد قسطنطين) حاكما للقسم الغربى خلفا لماكسميان، وكان قسطنطيوس قد عرف بمواقفة السلمية تجاه معتنقى المسيحية، وتوفى فجأة عام ٣٠٦م وخلفه

ابنه قسطنطين، وفى عام ٣١١ مرض جالريوس مرضا عضالا، اعتقد أن سببه انتقام إله المسيحيين منه، لهذا أصدر فجأة مرسوما يمنع فيه اضطهاد المسيحيين فى اليوم العاشر من بؤونة سنة ٣١٢ فى جميع البلاد الخاضعة، وعفا بموجبه عن المسيحيين وأعلن حقهم فى الوجود، بل شمل الفرح كل أنحاء الإمبراطورية بعد الاضطهاد الذى اجتاحهم فى عهد دقلديانوس، وإن كان هذا المرسوم لم ينفذ بصورة فعلية حيث استمر الاضطهاد، وبصور مختلفة، ولم يكن الأضطهاد إلا زيادة فى إلقاء الزيت على النار، إلى أن اجتمع بعد ذلك قسطنطين وليكينيوس عند مدينة ميلان فى مارس عام ٣١٣م وكما أشرنا سابقا وأعلنا التسامح الدينى للمسيحيين، وأصدرا وثيقة سميت خطأ باسم مرسوم ميلان، ذلك لأن النص الأصلى للوثيقة لم يعثر عليه، والحقيقة أن هذه الوثيقة لم تكن مرسوما، ولكنها كانت رسالة موجهة إلى أحد حكام الولايات فى آسيا الصغرى وهو (حاكم نيوقوميديا) وكانت تحتوى على توجيه بحسن معاملة المسيحيين، وتوضح سياسة التسامح التى اتبعتها الدولة تجاههم.

والحقيقة أن هذه الرسالة الصادرة عن قسطنطين وليكينوس عبارة عن تأكيد لما ورد فى مرسوم جالريوس الصادر فى عام ٣١١، ويعتبر هذا المرسوم بداية عهد الاضطهاد البيزنطى للمصريين، فالعلاقة بين المصريين والبيزنطيين كانت علاقة محتل لشعب مستعمر.

وأعطت هذه الرسالة المسيحيين وغيرهم من معتنقى الديانات الأخرى كامل الحرية فى اتباع العقيدة التى يختارونها، وهكذا أصبحت الديانية المسيحية ديانة معترفا بها كغيرها من الديانات فى الإمبراطورية، وحثت هذه الرسالة حكام الولايات على عدم اضطهاد المسيحيين، وأن ترد إليهم أماكن تجمعهم التى اعتادوا العبادة فيها والتى صودرت، واحتوت الرسالة أيضا على وعد بإعادة ممتلكاتهم المصادرة ودفع التعويضات اللازمة من الخزانة الإمبراطورية للذين اشتروها.

تجدر الإشارة إلى أن انتصار المسيحية تحقق فى عصر قسطنطين الكبير، ولم يكن فى ذلك اعتراف بحقها فى الوجود فقط، بل فى وضعها تحت حماية

الدولة، وهذا فى حد ذاته له مغزى واضح فى تاريخ المسيحية الأولى، فالمسيحية ظهرت قبل قسطنطين بحوالى ثلاثة قرون، ولم يكن حتى عصر قسطنطين قد اعتنقها إلا أقلية صغيرة فى عالم البحر الأبيض، لهذا كان انتصار المسيحية بالذات على ديانات شرقية أخرى يرجع بالدرجة الأولى إلى تحمس الدولة لها واحتضانها، مثلها فى ذلك مثل الديانة الزرادشتية، عندما وقف حكام فارس الساسانيون إلى جانبها واتخذوها دين الدولة مما أدى إلى انتشارها.

واعتنق قسطنطين المسيحية فى عام ٣١٢م، وإن كان المؤرخون اختلفوا فى كيفية اقتناعه واعتناقه المسيحية، وأسس فى عام ٣٢٤م مدينة القسطنطينية واعتبرها عاصمة جديدة للإمبراطورية فى الشرق، وحين اكتمل فى ست سنوات بناؤها عام ٣٣٠م كعاصمة للدولة المسيحية باسم روما الجديدة منافسة لروما القديمة التى باتت عاصمة الدولة الإمبراطورية الرومانية الوثنية.

وهكذا يرتبط بمرسوم ميلان الصادر فى مارس عام ٣١٣م أمران هامان:(٧)

الأول: بداية مظاهر انفصال الدولة الشرقية عن الدولة الغربية.

الثانى: اعتناق الإمبراطور قسطنطين للديانة المسيحية.

وهذان الأمران انعكسا على العالم ككل من ناحية بوقع معين، وعلى مصر من ناحية أخرى بوقع أشد، وهذا مايهمنا فى هذا الصدد، وماسوف نحاول توضيحه فى الفصول التالية؛ إذ أن المصريين قد لاقوا من التعذيب مايزيد مايخالف كل أرجاء العالم وقتذاك، فقد كانوا يتحملون النصيب الأكبر عن سائر نحاء وشعوب الإمبراطورية الرومانية الشرقية، فمع اعتلاء قسطنطين عرش الإمبراطورية البيزنطية فوجئ بأن المسيحية لها روافد عديدة تملأ الساحة على اتساع الإمبراطورية من أقصاها إلى أقصاها، وكانت الاختلافات بين هذه المذاهب وتلك الروافد محيرة للغاية، وكانت مدينة الإسكندرية بؤرة هذه الساحة ومركز هذه الاختلافات، فقد كانت مدنية الإسكندرية وجامعتها الشهيرة هى مركز العلم والفلسفة؛ فهى الجامعة الأولى فى العالم التى تقوم

بواجبها فى التعليم والتثقيف والتنوير، يؤمها الطلاب من كل أرجاء المعمورة المسكونة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: كان المناخ السياسى وقتذاك عفنا مليئا بالمؤامرات مفعما بالدسائس(٨)، فاليهود من جهة يحسب حسابهم، حيث إنهم يتقربون من الإمبراطور بشتى الطرق - وهذا شأنهم - ضمانا لمصلحتهم، ومن جانب آخر رجال البلاط الإمبراطورى، لهم نفوذهم بجانب قواد الجيش، وكبار رجال الدولة، والاختلاف لم يكن مجرد اختلاف مذهبى عقائدى فقط، ولكنه وصل إلى حد العداء، ويصل أحيانا إلى ملاحقة أنصار المذاهب المختلفة بعضهم البعض وتعذيب بعضهم البعض.

وهكذا كان لزاما على الإمبراطور أن يسعى إلى لم الشمل ورأب الصدع وتجميع كل هؤلاء فى وحدة واحدة، خصوصا أن المسيحية ماجاءت إلا لتقرب الناس بعضهم من بعض، وتدعو إلى الحب والسلام والعمل على تجميع كل المذاهب فى وعاء المسيحية الحقة، ومازالت ذاكرة التاريخ تحتفظ بالكثير من صور ونماذج التعذيب التى لاقاها الشعب المصرى فى ظل الحكم البيزنطى، وحتى بعد اعتراف الإمبراطور بالمسيحية وظهور المذاهب المسيحية المختلفة فقد كان الأرثوذكس الملكانية والأرثوذكس المصريين والطوائف الأخرى المسيحية من ناحية، وبقايا الوثنيين والأريوسيون من ناحية أخرى(٩)، كل له ميوله وفروضه ومشاريه فكانوا يتفقون أحيانا ويختلفون أحيانا أخرى، واليهود ينتهزون فرصة هذا الاختلاف ليصطادوا فى الماء العكر ماشاء لهم الهوى.

وحتى بعد وصول منشور قسطنطين بانتهاء الاضطهاد، وتعليقه على أبواب المعابد الوثنية والميادين لم يلتزم كل الولاة وحكام الأقاليم بما جاء فيه، بل استمر التعذيب والتقتيل، ومازالت ذاكرة التاريخ تتذكر استشهاد بوليوس الأقفصى، الذى مات أثناء تعذيبه، وهذه صورة من الصور التى كان يتعرض لها المسيحيون، حتى مع وجود المنشور، والذى ينص صراحة على أن يقوم المسيحيون ببناء الأماكن التى اعتادوا الاجتماع فيها، ويقول كذلك إنه بناء على هذا الصفح الذى أذاعه قسطنطين طلب أن يتضرع المسيحيون لإلاهم من أجل سلامته وسلامة الشعب، لكى يتم الصلح لهم.

هوامش الفصل الرابع

(١) القس لمنسى متى - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ١٧٧ ومابعدها.

(٢)حسنين ربيع - تاريخ الدولة البيزنطية - دار النهضة العربية - صـ١٨ .

(٣) حسنين ربيع - تاريخ الدولة البيزنطية - دار النهضة العربية - صـ١٨ .

(٤) د. حسنين ربيع - مصدر سابق - صـ٢٢ .

(٥) د. حسنين ربيع - مصدر سابق - صـ٢٧ ، ٣٠.

(٦) حسنين ربيع - مصدر سابق - صـ٣٤ ومابعدها.

(٧) د. حسنين ربيع - مصدر سابق - صـ٣٤ .

(٨) د. حسنين ربيع - مصدر سابق - صـ٤٦ ومابعدها.

(٩) د. حسنين ربيع - مصدر سابق - صـ٤٨ ومابعدها.

الاعتراف بالمسيحية
مجمع نيقية

«مارسوا الصلح والسلام فيما بينكم واجتنبوا الحسد والنزاع... ماذا يهم إذا فاق أحدكم الآخر فى الحكمة والفصاحة؟!»

الإمبراطور قسطنطين

يوليو عام ٣٢٥ ـ مجمع نيقية

الاعتراف بالمسيحية "مجمع نيقية"

بعد اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية عند مدينة ميلان في مارس سنة ٣١٣ وإعلانه وثيقة التسامح الديني للمسيحيين وإصداره وثيقة سميت باسم (مرسوم ميلان) تحتوى على حسن معاملة المسيحيين مع ملاحظة أن هذه الوثيقة أتت كتأكيد لما ورد في مرسوم جالريوس الصادر في عام ٣١١م، ذلك المرسوم الذي أعطى للمسيحيين وغيرهم من معتنقي الديانات الأخرى - أعطاهم - كامل الحرية في اتباع العقيدة التي يختارونها كما حث هذا المرسوم على أن ترد إلى المسيحيين معابدهم وكل أماكن تجمعهم، كذلك قد احتوى على وعد بإعادة ممتلكاتهم المصادرة ودفع التعويضات لهم من الخزانة الإمبراطورية واحتضانها لهم بهذا - وغيره - بدأت المسيحية تظهر في النور وتمارس العبادة وجميع الطقوس الدينية على الملأ، بعد أن ظلت ردحا من الزمن - حوالي ثلاثة قرون - تمارس نشاطها الديني في الخفاء، تحت الأرض وخلف الأسوار وفي الأماكن الخربة، وذلك خوفا من قواد وجنود الإمبراطور وجواسيسه.

وبهذا أخذت الطوائف الدينية تتلاقى وتتحاور فيما بينها، وكان من الطبيعي أن يحدث خلاف - لحد ما - فيما بينها، وهذا الخلاف نتيجة طبيعية

بعد فرقة وتباعد ثلاثة قرون كانت تمارس فيها العقيدة تحت الأرض وفى الصحراوات وبعيدا هناك فى ثنايا الجبال وفى الكهوف وبعد ذلك فى الأديرة.

وهكذا كان عصر قسطنطين عصر انتصار المسيحية وانتشارها ووضعها تحت حماية الدولة.

وكانت مصر - حينذاك - تمتلئ بالأديرة والقلايات فى الأماكن النائية ومقابر الفراعنة المهجورة والكهوف المنعزلة وسط الصحارى الشاسعة حيث الذئاب الضارية والحيوانات المفترسة التى أستأنسها الرهبان، يجوبون الصحارى فى حركة دائبة يحملون الحكمة والفلسفة إلى الأديرة وأماكن العبادة، مزودين بالروحانيات والتقشف، ولابدع فى ذلك فمصر بلد العلم والفلسفة، كما كانت مشهورة - حينذاك - بجامعاتها العريقة، مثل جامعات عين شمس (أون) ومنف وطيبة، كما كان فى مقدمة كل هذه الجامعات جامعة الإسكندرية ذات المكتبة الزاهرة بالكتب القيمة والمراجع الثمينة والأسفار الضخمة، وفى هذه الجامعة كان يتخرج الأطباء والفلاسفة ورجال الدين واللاهوت والعلماء فى شتى فنون المعرفة، كما جاء ذلك من قبل.

هكذا كانت مصر غنية بالعلماء، ولا سيما علماء الدين والفلسفة، بجانب أن مصر كلها بعد ذلك وقفت فى خندق واحد وسط الجو المليئ بالانقسامات والمفعم بالصراعات بين الطوائف المختلفة، والاختلافات المذهبية الحادة والمتشعبة الجديدة، خصوصا أن مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزتى) كان قد تأصل بجذور عميقة فى وجدان الشعب المصرى لدرجة أن الأباطرة كانوا قد اتبعوا سياسة الترغيب أحيانا وسياسة الترهيب والتهديد أحيانا أخرى، كما قاموا بمحاولات عديدة لتقريب التوحيد بين المذهب اللاهوتى وبين معتنقى عقيدة الطبيعة الواحدة Monophysite وجذب كل ذلك إلى حظيرة الكنيسة القسطنطينية وهى كنيسة الدولة البيزنطية.

غير أن السياسة لهذا الخلاف الكنسى أدت إلى اتساع الفجوة الثقافية والدينية والقومية داخل الدولة البيزنطية.

وكثيرا ماكان يستخدم التهديد لنفس السبب، وهكذا استمرت سياسة القمع والاضطهاد في الشعب المصري بسبب اتساع الخلاف في الفكر اللاهوتي بين الحكام الذين يعتنقون المذهب الملكاني وبين الشعب الذي يعتنق مذهب الطبيعة الواحدة.[١]

وسط هذا الخلاف في الفكر اللاهوتي بين الحكام الذين يعتنقون المذهب الملكاني (الطبيعتين) وبين الشعب المصري الذي يعتنق مذهب (الطبيعة الواحدة). وسط هذا الخلاف والاختلاف والصخب فكر الإمبراطور قسطنطين في أن يسعى لرأب الصدع الذي نال من هيبة الدولة وأضعف كيانها، ووجد أن السبيل إلى ذلك هو وحدة الكنيسة لتكون أساسا قويا وسببا مباشرا في قوة الإمبراطورية وعظمتها. إذن، ماذا يعمل؟[٢].

تصرف قسطنطين لا بصفته إمبراطورا رومانيا فقط، ولكن بوصفه إمبراطورا وبابا بيزنطيا في آن واحد فقام بدعم عقد أول مجمع مسكوني (عالمي) في نيقية وذلك في عام ٣٢٥، هذا المجمع العالمي كانت مهمته الأساسية القيام بالتعبئة الكنسية في أوساط الأساقفة، بجانب أنه مؤتمر لتقريب المذاهب ثم الاتفاق على مذهب واحد لم يكن يهم الأمبراطور إلا أن يتفقوا على رأي واحد.... ولايهم أن يكون هذا الرأي خطأ أو صواب. فلم يكن يشغل الأمبراطور مايدور في حلقات النقاش وماذا في صدورهم وماذا تضم نفوسهم من قيم ساميه وماذا يدور في عقولهم من أفكار ونظريات وقوانين وأختلافات فيما بين طبيعة الإله إن كانت طبيعة واحدة أو طبيعتين، وأيضا فيما بين مشيئته إن كانت مشئة واحدة أو مشيئتين وأيضا إرادة الإله هل هي إرادة واحدة أو ارادتين ولكن في النهاية كانت رغبة الامبراطور الأساسية هي وحدة كل هذه المذاهب في هذا المجمع، كما كان أيضا بمثابة مؤتمر لمحاكمة الهراطقة والمنشقين وأصحاب المذاهب والميول الأنفصالية التي من شأنها الأختلاف والأنشقاق بين المسيحيين وبعضهم البعض، وفحص رجال الدين والعقيدة وشئون الكنيسة... إلخ.

وكان من كبار المعترضين على هذه المهام التى يقوم بها هذا المجمع العالمى (مجمع نيقية) هو الأسقف آريوس[٣]. وهو أسقف سكندرى، كان يعترف بالمسيح كرسول ونبى فقط وكان يعتبره بشرا، وكان له مؤيدون فى مصر وفى خارج مصر، وكان على رأس مؤيديه أسقف (نيوقومديا) عاصمة الإمبراطورية آنذاك، وكان من أكبر رجال الدين نفوذا.

وكان أعداء آريوس يسمون مذهبه أو عقيدته أو هرطقته بالمشكلة الآريوسية التى تم إلغاؤها بقرار امبراطورى وإلغاء كل ماتتضمنه من نظريات وأفكار وآراء وقوانين كما صدر قرار من (مجمع نيقية) بحرمان آريوس وأصحابه وإقرار قانون الإيمان الأرثوذكسى الذى دعى بالنيقاوى، كما صدر قرار يقره كل (المفوضين) المندوبين بوصفهم ممثلين لشتى أنحاء الإمبراطورية بإعدام كل من يخالف قرار (نيقية) وكل من يتستر على الآريوسيين (أتباع آريوس)[٤]، فى حين أن (مجمع نيقية) نص فى قراره على أن جميع الحاضرين بالمجمع يعلمون ماصنع وليس لنا إلا أن نوافق على أن كفر آريوس قد جره إلى القصاص منه والجزاء الرادع لغيره.

كما تضمن قرار الامبراطور الإدارى حرق كل مؤلفات (آريوس) وقتل كل من يعترف به أو يخالف تعاليم (مجمع نيقية) وعلى رأسهم آريوس بالطبع، وقد وقع على هذا القرار ٣١٨ أسقفا وهم كل الأساقفة الحاضرين. بالطبع كان هذا القرار وإبرام هذا الاتفاق مصدر سعادة كبرى للإمبراطور الذى ماأن تم له ذلك حتى بادر بإقامة احتفال فى مجمع نيقية وأولم وليمة عظيمة دعا إليها ذوى الوجوه والأعيان والشمامسة والكهنة وغيرهم وأخذ يحادثهم بكل بشاشة ثم ألقى عليهم خطابا شاملا يحثهم على المحبة والوئام والتسامح والسلام فيما بينهم، وهذا نص خطابه: **«مارسوا الصلح والسلام فيما بينكم، واجتنبوا الحسد والنزاع. ماذا يهم إذا فاق أحدكم الآخر فى الحكمة والفصاحة؟ لايجب عليه أن يفخر بنفسه ولايجب على غيره أن يحسده، لأن الحسد والبغضاء من بذور الشيطان، والمحبة والصفاء من غرس الرحمن، والله وحده هو الذى يمنح المواهب ويقسم**

الحظوظ التى تجعل الإنسان أفضل من غيره، وليتساهل القوى مع الضعيف لأنه لا كمال فى هذا العالم، وعلينا أن نتجاوز عن ضعف البشرية، اجتنبوا المنازعات فإنها تؤدى إلى الهزء والسخرية من قبل أولئك الذين هم دائما مستعدون للطعن فى الإيمان(٥)، وعليكم أن تفكروا فى هؤلاء بنوع خاص فإننا نكسبهم إذا كان كل مايجرى بينكم خاليا من الشوائب... ولاتكثروا من الكرازة (الوعظ) فإنها لاتفيد الجميع على السواء، فبعض الناس يحتاجون إلى المساعدة فى ضروريات معاشهم، ويحتاج غيرهم إلى الحماية والرعاية، وأشعلوا نار المحبة بتقديم بعض الهدايا».

هكذا كان الإمبراطور قسطنطين حريصا على لم شمل شعب الإمبراطورية تحت لواء عقيدة واحدة تظللهم إمبراطورية واحدة.

والسبيل إلى انضوائهم تحت عقيدة واحدة هو لم شمل رجال الدين ليكونوا متحدى العقيدة، بدلا من اختلافهم شيعا وأحزابا ورؤوسا وأذنابا.

وهذا راجع لما قدمنا وأشرنا إليه من قبل، وهو أن المسيحيين الأوائل كانوا مجموعات صغيرة العدد يعبدون الرب فى الخفاء بعيدا عن أعين وآذان الجنود والضباط وجواسيس الرومان، كما كان من الطبيعى أن تختلف الممارسات من مجموعة إلى أخرى؛ حيث كانت تطحنهم ظروف القهر التى يلاقونها، وحياة العذاب التى يعيشونها. ولهذا فعند ماظهر هذا الدين الجديد من تحت الأرض ومن الكهوف والمغارات المهجورة ظهر بأشكال مختلفة وتفسيرات متباينة وممارسات عديدة، ولكن مع الوقت عندما تمت المواجهة بين هذه الجماعات وتلك الطوائف - وظهرت التفسيرات وجها لوجه - حتى كثرت الخلافات وأخذت تظهر فى شكل مظاهرات ومحاورات حادة فى الفكر والبيان، كل يدافع عن وجهة نظره ويبررها بالأدلة العقلية والمنطقية.

ناهيك عن مجموعات الارتداد إلى الوثنية، وكان أشهر المرتدين الإمبراطورية جوليان وكثير من بلاطه جنودا وضباطا. كل هذا بجانب

الخلافات الكثيرة التى لاتنقطع وقتذاك، ومن أمثلتها: (موضوع تحديد الاحتفال بعيد القيامة للسيد المسيح، كذلك إعادة تعميد الهراطقة وقبول العائدين منهم إلى الكنيسة، ومسألة الزواج... وغيرها. وكان يتزعم هذا الخلاف كل من كبريانوس أسقف قرطاجنة وأسطفانوس أسقف روما، ووصل الأمر بكل منهم إلى أن عقد مجمع لتدعيم رأيه عام ٢٥٥م، وكان لكبريانوس الأغلبية التى تويده، وقام فى ذلك الوقت البطريرك ديديانوس بطريرك الإسكندرية برأب الصدع وتضييق شقة الخلاف بينهما، وقد لعب الشماس السكندرى إثناسيوس الذى لم يكن يبلغ الثلاثين من عمره دورا محوريا، وتقدم بقانون الإيمان المبنى على اثنتى عشرة مادة، وفى نفس الوقت فند آراء آريوس وأقنعهم بأن آراء الأريوسيين مصيرها إلى زوال لأنه كما أن الأب أزليا يجب أن يكون الابن أيضا أزليا.

وأخيرا استجاب المجمع لآراء اثناسيوس بأغلبية ورفض فكر آريوس وحرمانه. من الكتب.

وبدأت العقيدة المسيحية تأخذ شكلا محددا، ووضع قانون الإيمان المسيحى، وتقرر أن الابن أى المسيح من نفس جوهر الأب. وبالتالى قرر قدسية المسيح وأنه إله حق من إله حق... وتم وضع قانون لنظام الكنيسة وانتخاب رعاتها وتدينهم ونظام الزواج.... وخلافه.

وعلى الرغم من محاربة الآريوسية(٦) فى كل مكان والوقوف الدائم فى وجهها، رغم ذلك فلم تغب ولم تختف بل ظلت حاضرة بأفكارها البسيطة الفطرية، بل كان الملاذ والملجأ لشريحة كبيرة من الشعب المصرى، تخاطبه بما يلائم طبيعته وخصوصا الفقراء والفلاحين والعمال البسطاء الذين لم ينالوا أى قسط من التعليم، واستمرت كذلك حتى عصر الأنبا بطرس الثانى وهو البابا الحادى والعشرون، وكان كاهنا من كهنة الإسكندرية، كذلك الأنبا تيموثيئوس الأول البابا الثانى والعشرين الذى حضر المجمع العالمى الثانى بالقسطنطينية فى عام ٣١٨ والذى قام باستكمال قانون الإيمان المبنى على إثنتى عشرة مادة، والخاص بالروح القدس المشار إليه فى المادة ٨ من ذلك القانون.

وجاء عصر البابا الرابع والعشرين الأنبا كيرلس الكبير الذى لم يتوان فى الوقوف بصلابة لمحاربة الآريوسية ومحاربة البدع التى يمارسها الآريوسيون وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس الميلادى.

ومع ذلك كانت الآرسيوسية لاتزال تلقى التأييد فى نفوس وقلوب المسيحيين المصريين وفى أقاليم وأنحاء متفرقة من الإمبراطورية البيزنطية كالشام وفلسطين وآسيا الصغرى، واستمروا كذلك يعبدون الله بطريقتهم التى لايرضاها الإمبراطور ولاترضاها الكنيسة خصوصا فى مفهوم اللاهوت والناسوت وغير ذلك من الأفكار التى ماكانت لتنقشع أو تزول بالتعذيب أو التقتيل أو التنكيل، بل ظلت هذه التعاليم الآريوسية على مدى أكثر من قرنين من الزمان ساكنة فى صدور العديد من المصريين.

ولنا فى هذا الصدد أن نرجع قليلا إلى القرن الرابع حيث كان قيصر الشرق قسطنس بن قسطنطين (عام ٣٣٧م) وكان يميل إلى المذهب الأريوسى - ويبدو أنه اعتنق الأريوسية جهارا - فناصر الأريوسيين على الأرثوذكسيين، ولذلك كانت هذه الفترة فترة عز ومتعة للأريوسيين، فبدءوا بمساعدة جنود القيصر فى اضطهاد من يختلف معهم فى العقيدة وعلى رأسهم طبعا الأرثوذكسيين اليعاقبة على الخصوص.

وعزل قسطنس أثناسيوس وعين مكانه رجلا من طائفته يدعى (جريجوريوس) ودعمه بقوات وجند من الجيش، فاستمر فى ملاحقة الأرثوذكس فى كل مكان، وتتبعهم فى أقاصى الصعيد وفى الصحروات والأديرة وأماكن العبادة المقدسة، وهجم عليهم ذات مرة بينما كانوا يباشرون الصلاة فى يوم جمعة الصلبوت وانضم إليهم رعاع اليهود والوثنيين، وأخذوا يبطشون بالمصلين(٧)، فهتكوا حرمة العذراى الطاهرات، وقبض جريجوريوس الدخيل على أربعين فتاة عذراء وعراهن وضربهن بالسياط وقتل عددا وافرا من الشعب على أمل أن يكون أثناسيوس من بين المقتولين. وهكذا دنسوا الأماكن وأحرقوا الكتب الإلهية، ثم نهبوا خزائن الكنيسة وأمتعتها وقتلوا الكثير من الرهبان الضعفاء بينما كانوا يدافعون عن كرامة بيت الله.

وبعد ذلك كقيد الحكم والناس على دين ملوكهم فأصبح الأمبراطور أرثوذكس وتقوت شوكة الأرثوذكس وأنقلبت الدنيا للأورسيين ظهر المجن وبدأ فى تعذيب الأروسيين مرة ثانية. وفى هذا الصدد من المناسب أن نلقى الضوء على دور الكنيسة المصرية فى محراب العلم وفى أروقة وأرجاء الكنيسة، فقد وضعت الكنيسة المصرية - منذ القدم - لكى تكون دراسة العلوم الدينية والتجريبية جنبا إلى جنب مع دراسة اللاهوت، أى أن الكتب كانت تقرن دراسة الدين مع العلوم، وبالفعل مازالت ذاكرة التاريخ تحفظ بعض أسماء العلماء القديسيين الذين تلقوا العلم على يدى ديونسيوس القبطى وأوريجانوس والحليمنصوس، شارحين حضارة مصر وتاريخها وتراثها وإيمان شعبها العريق بما تحويه مكتبتها الشهيرة التى كانت تضم سبعة مائة ألف كتاب خطى، هذا علاوة على النسخ الأصلية الثمينة لترجمة العهد القديم باليونانية والقبطية والهيروغليفية(٨).

وإن كنا الآن فى حياتنا المعاصرة قد استطعنا بفضل العلوم والتكنولوجيا أن نصل إلى أبعاد جديدة من العلوم، إلا أن التراث المصرى القديم قد حافظت عليه جامعة الإسكندرية اللاهوتية، وكان هو الأساس الذى بنيت على مبادئه العلوم الحديثة، حتى أن كثيرا من العلماء لم يتركوا دراستهم العميقة عن الفلك والطب والصيدلة والكيمياء والهندسة والقانون والرياضيات، ولكن أهم مايميز جامعة الإسكندرية هو اعتمادها على الأساقفة، وجمعم بين العلوم الاهوتية والعلوم التجريبية مثل القديس الطيب «الأنبا ابسيدور» أسقف دمنهور ومدير مستشفاها(٩). وقد ألحقه القديس الأنبا أثناسيوس وهو بطريركا رئيسا لأكاديمية الطب ومستشفاها بكلية الإسكندرية الاهوتية، وأيضا ترك القديس الأنبا أبسيدور عندما تنيح (مات) سبعون راهبا من أتباعه الذين تتلمذوا على يديه أصول الطب.

وفى مجال الموسيقى، فقد وضع القديس ديديموس الضرير - عميد كلية اللاهوت - أساس النوتة الموسيقية، ومن واقع معاناته من فقد بصره، فقد وضع أيضا أساس القراءة البارزة للمكفوفين.

وهكذا كان علماء الدين يتبادلون العلوم الفلسفية وكافة العلوم التجريبية، والتى وصل أن أصحاب المعرفة اعتنقوا فلسفة تقول إنه يجب الإبقاء على الديانة المسيحية ضمن حدود الفلسفة الإغريقية (١٠)، وهذا مادفع بالديانة المسيحية إلى منعطف اقتران الدين بالعلم والفلسفة، وهيأ لها ظروف الخلاف والاختلاف، وحاد بها عن عقيدة الفطرة والإيمان بالوحدانية بعيدا عن الفلسفة والعلوم الدنيوية.

هوامش الفصل الخامس

(١) قس منسى متى - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ٨٦ ومابعدها.

(٢) المصدر السابق صـ١٩١ ومابعدها

(٣) قس منسى متى - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ١٦١ ومابعدها

(٤) المصدر السابق.

(٥) ابراهيم صبرى معوض - تاريخ حياة القديس أثناسيوس - صـ١٩٢.

(٦) قس منسى متى - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ١٨١ وما بعدها.

(٧) قس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ٨١.

(٨) صبرى معوض، تاريخ حياة القديس أثناسيوس - دائرة المعارف القبطية - ٩٤.

(٩) صبرى معوض - تاريخ حياة القديس اثناسيوس - دائرة المعارف القبطية - صـ٩٤.

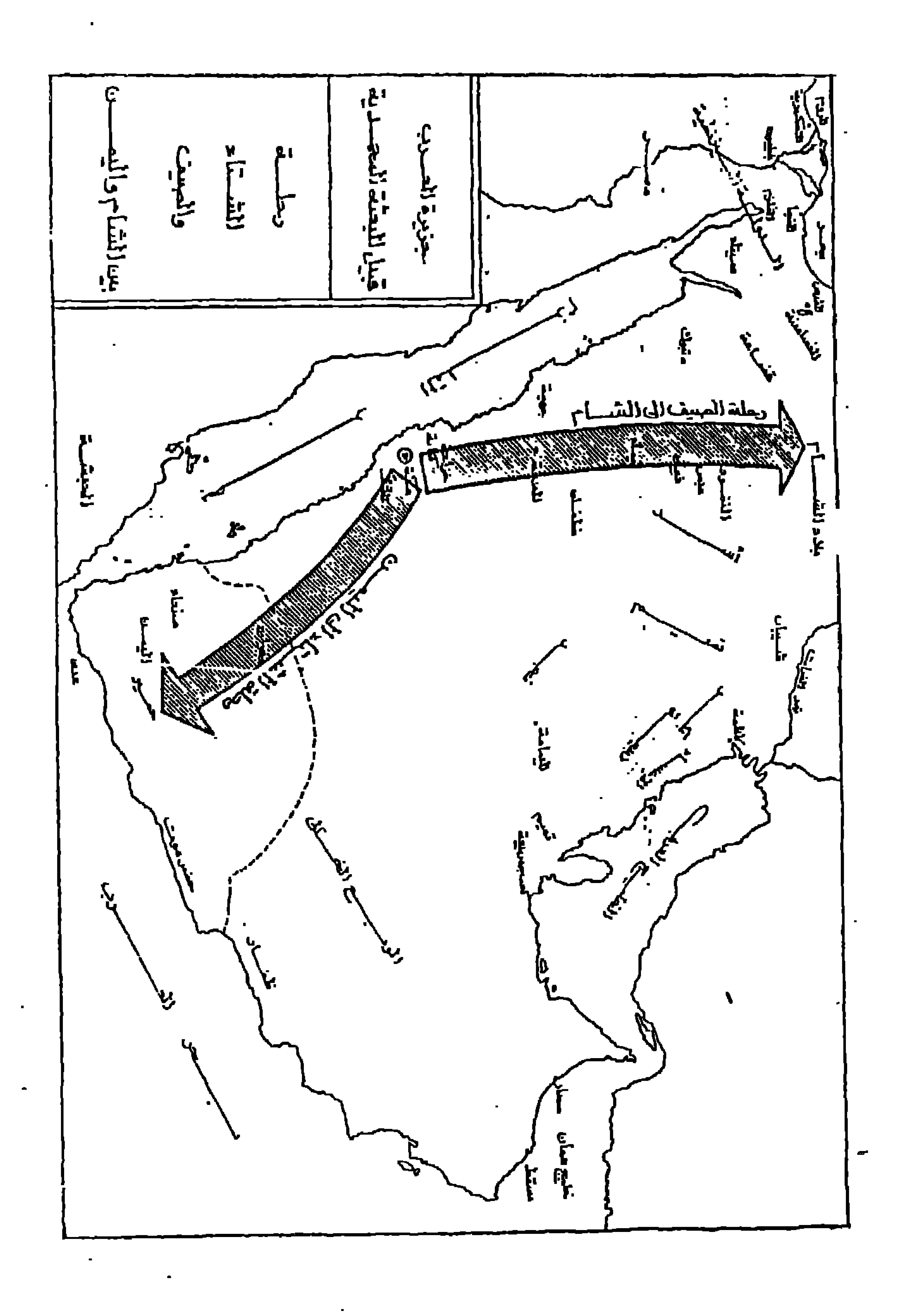
(١٠) صبرى معوض - تاريخ حياة القديس اثناسيوس - دائرة المعارف القبطية - صـ٢١.

رحلة الشتاء والصيف

بسم الله الرحمن الرحيم

«لإ يلف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدو رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف»

صدق الله العظيم


جزيرة العرب
قبيل البعثة المحمدية
رحلة
الشتاء
والصيف
بين الشام واليمن
رحلة الصيف إلى الشام
بلاد الشام
مصر
قضاعة
تبوك
المدينة
مكة
صنعاء
اليمن
حمير
عدن
الحبشة
حضرموت
ظفار
الربع الخالي
اليمامة
تميم
شيبان
الخليج العربي
خليج عمان
مسقط
صحار

رحلة الشتاء والصيف

منذ فجر التاريخ والتجارة تفتح نوافذ العلاقات بين الأمم، ويؤكد ذلك رحلات القوافل التجارية التى تجوب الصحارى، مخترقة الجبال والهضاب، وتقطع المسافات، فتجعل العالم وحدة واحدة، وتؤكد هذه الرؤية قوافل الإبل التى تجوب الجزيرة العربية فى رحلتى الشتاء والصيف فى حركة دائبة لنقل التجارة والثقافة أيضاً، وفى هذا الصدد سوف نطل عزيزى القارئ من شرفة التاريخ لكى نرى المنطقة كلها برؤية أوسع، أو قل بنظرة عين الطائر لكى تكون النظرة أشمل ولترى ما لاقته شعوب هذه المنطقة من هول، وما ذاقته على أيدى الروم من عسف وظلم ومذابح من جنود الإمبراطور، فمازالوا يطاردون وكل من يختلف فى مذهبه عن مذهب الإمبراطور مثل اليعاقبة والاريوسيين ومازالت أخبار المذابح تتردد فى أرجاء المنطقة، فى أطراف شمال الجزيرة العربية، أو فى شمال أفريقية، أو فى الشام أو فى مصر، كانت الإمبراطورية الرومانية تترنح تحت حكم الأباطرة ككابوس يلقى بظلاله على أرجاء الإمبراطورية الواسعة بالفوضى الهدامة والظلم الصارخ. ومن ناحية أخرى زادت هجرة اليمانية إلى الحجاز وشمال الجزيرة العربية، وذلك عقب النشاط التجارى الذى سرى فى العالم القديم على أثر المد الرومانى وعلى

الرغم من حركة الاتصال الدائمة بين الشمال والجنوب فى مواسم الحج وفى الأسواق مثل سوق عكاظ، وخلال رحلات التجارة التى نوهنا عنها، إلا أن العداء القديم بين القحطانيين مازال مستحكما فكان لكل قوم شعارهم، وفى الحرب أعلامهم فاتخذ العدنانيون اليمامة العمائم والأعلام الصفراء، واتخذ المصريون العمائم الحمر والرايات الحمر.

ومع توالى الأيام والأحداث، والوقائع الحربية ،كان يزداد العداء، وتقوى روح الشر بينهم، ومن ناحية أخرى كان العداء شديدا بين الخزرج والأوس الذين خرجوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب، وبين سكان مكة، وكان بينهما حزازات ومفاخرات، كل يدعى أنه أشرف نسبا وأعز نفرا، وإن كان اليمينون يدعون أنهم أحق بالفخر لما لهم من ماض تليد وحضارة قديمة.

وهكذا كانت القبائل عموما، سواء كانت فى اليمن أو فى الحجاز أو كانوا غسانة فى الشام تحت حكم الرومان أو تحت سيطرتهم أو فى نطاق نفوذهم، أو مناذرة فى العراق تحت حكم الفرس، كلهم كانوا فى عداء بعضهم لبعض، وكانت المبادئ السائدة فى هذا المجتمع هى الإخلاص التام للقبيلة، والقسوة فى الانتقام، والأخذ بالثأر الأسود والشجاعة الشخصية والشهامة المرتبطة بالدوافع الشخصية، والكرم إلى حد السفه، والجرأة على حرمة الجار.

رغم هذا كله، فإن أواصر القربى كانت فوق كل خلاف، وفى النهاية كانت هذه الأواصر تجمع بين قبائل هذه المنطقة من العالم وكأنهم كانوا يعتنقون هذا المثل السائر (أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب) هذا علاوة على التبادل التجارى، إذ كانت القوافل التجارية تموج بالحركة بين مصر والشام، وبين الشام واليمن مرورا بأراضى ومدن الحجاز، المدينة ومكة، وكانت هذه الرحلات تسمى رحلات الشتاء والصيف، إذ كان أهل الحجاز يشدون الرحال إلى الأراضى الجنوبية فى الشتاء، إلى اليمن وحضر موت، وفى الصيف برحلون إلى الشام، هذا علاوة على تبادل المراسلات فيما بين أطراف الإمبراطورية البيزنطية، والإمبراطورية الرومانية الغربية، كل هذا بخلاف الزيارات الدينية، فمازالت الأراضى المقدسة فى

فلسطين تعج بالقادمين والحجاج لزيارة بيت المقدس وبيت لحم إن كانوا يهودا أو مسيحيين، وكانت سحب الظلم تخيم على كل أرجاء الإمبراطورية، فكان البؤس يظهر على وجوه المارة فى الأسواق، والأسواق بدورها يكتنفها الكساد فى التجارة ، حيث كانت العملة مغشوشة بزيادة نسبة النحاس فيها فأصبحت لا تساوى شيئا، والتجار فى فزع دائم يترقبون لهجمه لا يدرون من أين تأتى.

فالأمبراطور - حتى بعد اعتناق المسيحية - يضارب فى تجارة القمح ليجمع فى خزائنه الذهب، ورجال الدولة يقترفون كل الموبقات فى سبيل الثراء العاجل، وخلال هذا كله سيطرت الأسرة الحاكمة والعائلات الكبيرة على النشاط التجارى، ومع كل هذا فالتجارة لا تعترف بالسياسة ولا بالعداوات ولا تعترف بالظلم؛ حيث كانت القوافل تعرف طريقها، ولا تعترف بالخمول والكسل، وتتحدى الحروب والقلاقل والثورات، فالقوافل تخترق الفيافى فى دأب وصبر دائمين صيفا وشتاء، ليلاً ونهاراً وكانت القوافل يتراوح عدد عيرها فيما بين مائتى بعير، وكان يشترك فى كل قافلة عدد كبير من التجار الصغار والكبار، وكل على قدر طاقته، وحجم إمكانياته، وكانت قيادة القافلة تعقد لأحد كبار التجار ممن يمتازون بالحكمة والقدرة على التصرف، ويكون على علم بالطرق والدروب والوديان والمسالك، وعلى دراية بعلوم النجوم والمجرات والفلك، ويكون أكثرهم جرأة وشجاعة وعلما ببواطن الأمور، وكانت القافلة تنقسم إلى مجموعات، وكانت الرحلات إلى الشمال حيث فلسطين والشام تتم فى الصيف، ورحلات الجنوب إلى ما هو جنوب مكة فى الشتاء - سهل تهامة وعسير وبلاد اليمن وحضر موت ولحج وعدن حيث البلاد الدافئة - ويكون تأثير الشمس أكبر، لأنها أقرب إلى المنطقة الاستوائية والمدارية، وكانت القافلة تسير طبقا لظروف المناخ، فكانت تحدو أحيانا بالليل القافلة بالنهار، وكانت للقوافل خطوط سيرو مسارات تسلكها، تتصف بالأمن وتمتاز بالأمان من ناحية، ومن ناحية أخرى تمر ببعض مناطق الحضر، والتى تكون ذات مصادر لمياه الشرب من عيون وآبار وبعض سبل الحياة، لتزويد القوافل بالطعام والشراب وسبل العيش، وتقوم ببعض الخدمات للقافلة من تجار

وراحلين ومسافرين، إذ كانت هذه القوافل تضم العديد من التجار الصغار والكبار، من هم فى يسر ورغد ومن هم أقل من ذلك، ومع بداية القرن السابع الميلادى بدأت أعمال التحرش بين الفرس والروم، ذلك التحرش الذى بدأت معه بوادر الترقب لهجوم فارسى مقبل من الشرق أو هجوم الأفار أو الصقالبة من الشمال الغربى، من البلقان، والذى معه بدأت تتراجع رحلات العرب للشام، وهى رحلة الصيف التى جاء ذكرها من قبل، فإن الدولة كلها فى حالة ترقب وترصد وتعقب لكل حركات المسيحيين فى المدن والقرى والجبال، وأيضا همس الرهبان فى الأديرة وأماكن العبادة، كذلك الترصد لأى نشاط مسيحى، أو كهنوتى. ومع كل هذا كانت بعض الرحلات تخترق هذا الخضم، فالتجارة لا تعرف وطنا والمال لا يعرف دينا أو مذهبا - فكانت رحلات عرب الجزيرة العربية - التجارية - تأتى من الجنوب مع كل صيف، حاملة توابل الشرق والحرير والأثواب الهندية المشغولة والموشاة بخيوط الذهب، وتحمل من الشمال ما تجلبه من منتجات يطلبها سكان الجنوب؛ فالحياة لابد أن تستمر مع السلام وأيضا مع الترقب وأثناء الحرب. وكانت القافلة تمتد لمسافة تصل إلى عشرة كيلو مترات وأحيانا أكثر وأحيانا أقل، وكانت القافلة مكونة من مجموعات كأنها قطار مكون من عربات، كل عربة أو كل مجموعة مكونة من مائة من العير، فيما بين بعير وناقة، ويرأس كل مجموعة قائد، وكل مجموعة تعتبر كأنها قافلة مستقلة تحمل كل ماتحتاج إليه من طعام وشراب كل هده المجموعات تتبع رئيس القافلة وكانت القافلة تسير طبقا لنظام بديع، وكانت القافلة هذه تشبه قطارات اليوم مثل الدرجة الأولى والثانية والثالثة.. فالدرجة الأولى تضم الهوادج التى تضم كبار رجال القبيلة وأغنياءها يحف بهم خدمهم وعبيدهم من أقنان وجوارى، وكانت هذه الهوادج مجهزة بأحسن ما يكون التجهيز وأرفع ما تكون عليه الرفاهية والأبهة، والدرجة الثانية تضم الطبقة الوسطى، والدرجة الثالثة تضم فقراء التجار وأيضا عبيد وخدم الأغنياء. وتضم أيضا القافلة مجموعة الإبل التى تحمل البضائع بأنواعها المختلفة، ومجموعة أخرى من الإبل تحمل المياه والطعام والعلوفة الخاصة بالأبل، وهكذا ما أشبه الأمس باليوم .

عمرو بن العاص
ورحلته إلى مصر

«فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله... وكساه ثوب ديباج، وجلس عمرو والشماس مع الناس... وأقبلت الكرة تهوى حتى وقعت فى كم عمرو، وتعجب الناس: أترى هذا الأعربى يملكنا؟»

المقريزى

كتاب المواعظ والاعتبار- أغسطس ٦٠٢ ميلادية

عمرو بن العاص
ورحلته إلى مصر

وفى رحلة من رحلات الشتاء والصيف الدؤوبة التى كنا بصددها فى الفصل السابق، كانت رحلة عمرو بن العاص، التى زار فيها مصر لأول مرة فى تاريخ سابق لهزيمة الروم أمام الفرس فى أوائل العقد الأول للقرن السابع الميلادى، وكان نصيب عمرو بن العاص فى هذه الرحلة (القافلة) بعيرين.

وأستسمحك عزيزى القارئ فى أن تقف قليلا عند شخصية عمرو والتعرف على هذه الشخصية الفذة الذكية المقدامة، فإن عمرو بن العاص منذ صغره كان نموذجا فريدا، فلم يكن ابن سيد من سادات قريش، ولم يعتمد على جاه أو سلطان أو مال، بل كان يعتمد على نفسه ونفسه فقط، فعلم نفسه بنفسه القراءة والكتابة والحساب، ودرب نفسه على الرماية والسباحة، وجاب الصحارى والفيافى من أجل التجارة، واستطاع أن يكون رأس مال صغير اشترى به بعيرين، وأصبح يشارك بهما فى قوافل التجارة، وفى إحدى الرحلات التجارية التقليدية التى نوهنا عنها من قبل، قدم عمرو فى قافلة مع نفر من قريش قادما من مكة، وكان ذلك فى الأعم الأغلب فى صيف عام ٦٠٢ ميلادية.

وعلى عادة القوافل ونظمها، أن تتجمع كل قافلة - الإبل والنوق والأباعر - فى مكان جنوب القدس، ومن هذا المكان تتوزع مجموعات القوافل الفرعية، كل قافلة تتجه إلى بلد أو عاصمة من عواصم المنطقة، فتذهب قافلة إلى دمشق، وقافلة إلى حلب، وأخرى إلى معان فى الأردن وتخوم عمان، وأخرى إلى حلب أو عكا، ويبقى باقى الإبل والنوق للراحة فى منطقة التجمع - وهى الإبل التى تحمل الزاد والمياه فى هذه البطاح بعد أن اجتازت الصحارى والقفار - وتبقى فى هذه المنطقة وهى الصحراء والوديان جنوب القدس، حيث يكون الكلأ منتشرا إثر أمطار الشتاء الماضى، والحشائش تملأ الفيافى فى مساحات تحدد مجارى السيول، وكان رعى الإبل محببا لدى شباب القافلة، وبينما عمرو أبن العاص يرعى الإبل، فإذا به يقابل شماسا مصريا وقد أصابه عطش شديد فى يوم صيف قائظ شديد الحرارة، فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى ارتوى، ونام الشماس مكانه من فرط الإعياء والتعب، وكان الشماس من شمامسه الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس، ويبدو أنه كان يتعبد فى جبال المنطقة التى تقابل فيها مع عمرو بن العاص.

وأثناء نوم هذا الشماس فى ظل شجرة هائلة عجفاء خرجت حية من حفرة لها بجوار الشماس، فبصر بها عمرو، فنزع لها بسهم فقتلها، فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه الله منها فقال لعمرو: ما هذه ؟ فأخبره عمروا أنه رماها فقتلها لتوها وكان عمرو مقاتلا فذا ذا جرأة ورأى ثاقب، فأقبل الشماس إلى عمرو فقبل رأسه وقال: قد أحيانى الله بك مرتين: مرة من شدة العطش، ومرة من هذه الحية، فما زقدمك على هذه البلاد؟ فقال: له الشماس: وكم تراك ترجو أن تصيب فى تجارتك؟ قال: رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيرا، فأنى لا أملك إلا بعيرين، فآمل أن أصيب بعيرا آخر فيكون لى ثلاثة أباعر، فقال له الشماس: أرأيت دية أحدكم بينكم، كم هى؟ قال هى مائة من الإبل،فقال له الشماس: لسنا أصحاب إبل إنما نحن أصحاب دنانير، قال: تكون ألف دينار، فقال له الشماس: إنى رجل غريب فى هذه البلاد، وإنما قدمت

أصلي فى كنيسة بيت المقدس وأسيح فى هذه الجبال شهرا، جعلت هذا نذرا على نفسي، وقد قضيت ذلك، وأنا أريد الرجوع إلى بلادى، فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى وذلك على عهد الله وميثاقه أن اعطيك ديتين لأن الله عز وجل أحيائى بك مرتين، فقال له عمرو بن العاص أين بلادك؟ قال بلدى مصر وأقيم فى مدينة يقال لها الإسكندرية، فقال له عمرو: أنا لا أعرفها، ولم أدخلها قط. فقال له الشماس: لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها. فقال له عمرو: كفانى ما تقول ولى عليك بذلك العهد والميثاق فقال له الشماس: نعم لك والله على العهد والميثاق أن أفى لك وأن أردك إلى أصحابك. فقال له عمرو : كم يكون مكثى فى تلك الرحلة؟ قال له الشماس: شهرا، تنطلق معى ذاهبا عشرة أيام وتقيم عندنا عشرة أيام وترجع فى عشرة أيام ، ولك على أن أصحبك وأحفظك ذاهبا وأن أبعث معك من يرافقك ويحفظك راجعا: فقال له عمرو بن العاص: سأشاور أصحابى فى هذه الشأن فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس[1]، وقال لهم تقيمون هنا على حتى أرجع إليكم ولكم على العهد أن أعطيكم شطرا من ذلك، على أن يصحبنى رجل منكم آنس به، فوافقوه وبعثوا معه رجلا منهم، فانطلق عمرو وصاحبه الشماس المصرى، فكان الوقت مناسبا لهذه الرحلة فالصيف مازال فى أوله والرحلة إلى الإسكندرية ذهابا وعودة تستغرق شهرا كاملا تكون الدلتا بأفرع النيل السبعة التى تقطعها طوليا فى شكل مروحى تتفرغ من نقطة شمال قصر بابليون (باب ليون) بعدة كيلو مترات فى منطقة تحازى مدينة أون (عين شمس) فى ذلك الوقت تكون أفرغ النيل السبعة أولها من جهة الشرق الفرع البيلوزى، وأخرها من جهة الغرب الفرع الكانوبى. تكون نهايات ومصبات هذه الأفرع على شاطئ البحر المتوسط جافة أو بها مساحات من المياه الراكدة من آثار تدفقات مياه شحيحة المصادر. هكذا كانت معظم أفرع النيل يسهل عبورها، وتكون الأرض السوداء مشققة من شدة أشعة الشمس ومن قسوة الحرارة التى تختزنها الأرض خلال نهار طويل من أيام شهور الصيف يونيو ويوليو وأغسطس.. وتكون الأرض كما نسميها (شراقى) أى شرقانة أو عطشانة إلى مياه وفيضان

النيل القادم، فلم يكن النيل بفيضانه قد داهم أراضى الدلتا بعد. وبدأ عمرو وصاحبه برفقة الشماس المصرى الرحلة مرورا بغزة والعريش وتانيس ودمياط ورشيد وكانوب والعديد من القرى المخربة من آثار القلاقل والأحداث الرامية التى عانى منها المصريون والتى مرت بها البلاد والكفور وتجمعات السكان المهدمة. كل هذا عبر الحقول، والمروج الخضراء والبحيرات المنتشرة والمستنقعات المتناثرة على أطراف البحيرات والبحيرات والبحر، يعرجون على الحانات والخانات يمضون لياليهم ويقضون أوقاتهم يتناولون فيها إفطارهم وغداءهم وعشاءهم، ويقضون ليلهم يتسامرون فى مختلف القرى.. منها القرى التى يعتمد أهلها على الصيد والقرى التى يعتمد أهلها على الزراعة، وأخرى يعتمد سكانها على الرعى أو التجارة[٢].

وهكذا كانت رفقة ثلاثتهم طيبة أنيسة، فيها كل ما هو جديد، وكانت الحقول حولهم وقتذاك مجهزة مشتاقة لاستقبال عام جديد، وأفرع النيل جافة إلا من مساحات كبيرة تغطيها نباتات ورد النيل والبردى وأنواع مختلفة من النباتات المائية المنتشرة، ومعظم الجسور منهارة من الإهمال، والزراعات كسولة والنباتات الشيطانية فى كل مكان، والمساقى والقنوات مغطاة بالطمى تكاد تكون مسدودة من عدم الاستخدام، والفلاحون يبدو على وجوههم الشحوب والغربة، لا يكادون يفقون من شدة الهزال والقلق، يرفعون المياه من مساحات المياه الراكدة القليلة المتناثرة فى النيل بشواديف مهملة متهالكة، أو يحرثون الأرض فى تكاسل بمحراث ضعيف النصل، وآخرون تحت شجرة عديمة الأوراق ضعيفة يستظلون بأفرعها، هكذا الأشجار هشة والنخيل مهمل أصابه العقم، والزراعة هزيلة، متناثرة ... فالزراعة تحتاج إلى انتظام، والفلاح لا يعمل إلا فى استقرار وأمن وحب ووئام، ولكن الفلاح فى مصر كان يعمل ويذهب قمحه إلى روما أو إلى القسطنطينية، ويحصل على دراهم مغشوشة، وقدر طاقتهم يديرون الحب ويجهزون أنفسهم لعام جديد يدعون الله أن يكون الفيضان المقبل، فيضان خير لاهو بالشحيح الذى لا يغلى ولا يشبع ولا هو بالفيضان الجامح الذى يقضى على كل شئ فلا يبقى ولا يذر.

وكان عمرو وصديقه يعبران أفرع النيل من أماكن مناسبة يعرفها المصريون،مرة يخوضون المياه الضحلة، ومرة أخرى يستقلون زورقا ضعيف أو عائمة من البردى تنقلهم من شاطئ لآخر.

واستمر السير هكذا أياما وليالى، عابرين مياه النيل، مارين بالقرى والكفور، إلى أن مضت عشرة أيام، ومع يوم شديد الحرارة قائظ شديد الرطوبة لاحت الإسكندرية على بعد بعماراتها البيضاء، كل هذا عبر بحيرة مريوط ومستنقعاتها المحيطة بها والحقول والمروج الخضراء والنخل الباسق، وانتهوا إلى مشارف الإسكندرية التى ظهرت من بعد بعماراتها العالية البيضاء، وكانت الشمس تملأ السماء وتتوهج الأرض من شدة الحرارة، ومع سقوط أشعة الشمس على جدران عمارات الإسكندرية الناصعة البياض تجعل منها عاكسا لهذه الأشعة وتجعل منها مرآة تخطف الابصار، فأشار الكاهن الى عمرو بأن هذه هى الإسكندرية، وعندما رآها عمرو وزميله من هذا البعد حفزهم بلهفة بالغة إلى سرعة لقائها فإن عمرو دائما يحب كل ما هو جديد، وأسرع الخطى على أمل أن يرى أعظم مدائن الدنيا وأقدمها. وفى هذا يقول المقريزى فى أن الإسكندرية أعيد بناؤها عدة مرات، فأول مرة بنيت فيها بعد طوفان نوح فى زمن مصر ابيم بن بيصر بن نوح، وكان يقول عنها حينذاك مدينة راقوده، ثم أعيد بناؤها بعد ذلك مرتين، وأخيرا أعيد بناؤها وجددها الإسكندر وسميت باسمه(٣)، وهو الذى قهر الفرس أيام الملك دارا، وذلك بعد تخريب بخت نصر منف بمائة وعشرين سنة. وكان هذا الشماس كما يبدو حلو الحديث، مازالت الفلسفة المصرية القديمة تملأ وجدانه، والثقافة الحديثة والدين الجديد يجلوان حديثه، وتنطلى كلمته بالرقة والعذوبة، وكان عمرو أيضا شابا تواقا للمعرفة ، فاستمر الشماس فى قصصه وحكاياته عن مصر وما لاقاه الشعب من فى قصصه وحكاياته عن مصر وما لاقاه الشعب من ظلم وتعذيب، يتخلل هذا الحديث المفعم بالدراما الإنسانية الحديث عن الديانات القديمة والجديدة، والخلافات المذهبية فى طبيعة يسوع المسيح عليه السلام، طبيعة البشرية أو الإلهية أو كليهما، فلا بدع ولا غرابة فى ذلك فهو رجل دين وكانت الجزيرة

العربية مازالت فى وثنيتها، وإن كانت إرهاصات الدين الجديد وبعض التنبوءات بدأت تتردد عن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، ويبدو أن الرسالة الإسلامية بدأت فى بعض بيوت مكة - وتنبأ بحيرى وورقة بن نوفل بنبى سوف يرسل إلى الناس كافة، فظل عمرو يسمع القصص من الكاهن المصرى العذب الحديث وعقله هناك فى بلاده - فى مكة - لعله كان قد سمع بعض الأحاديث عن الدين الجديد. وأخيرا وصل عمرو بن العاص إلى الإسكندرية حيث المبانى المرتفعة المكونة من عدة طوابق، كما تكثر بها الأطلال تصبغها الحرائق وإن كانت تظهر على أطلالها العظمة والأبهة أكثر مما تظهر فى المبانى الجديدة، فإن أعمال السلب والنهب والتعذيب الذى يلاقيه الشعب على أيدى الروم البيزنطيين الذين لم يتركوا القصور ولا المبانى بدون هدم وتخريب، فكل هذا كان يوحى بروح الانتقام التى صبغت المبانى والمعابد والكنائس، فمن الإسكندرية خرجت المذاهب العديدة وبها التكتلات الدينية والسياسية، فمنهم من يعمل لحساب الإمبراطور ومنهم من مازالت الديانات القديمة تؤثر عليه - ديانة الآباء - ومنهم من يتطلع إلى الدين الجديد: فمنهم من يؤيدون كنيسة أنطاكية، ومنهم من يؤيدون كنيسة الإسكندرية الأرثوذكسية المرونوفستية (مذهب الطبيعة الواحدة)، ومنهم من يتعاطفون مع الكنيسة الرومانية فى روما، ومن يهادنون كنيسة القسطنطينية الملكانية (مذهب الطبيعتين) حيث سلطان القيصر هرقل - كلهم من الأغنياء - الرومان أما الفقراء المصريون فمنهم من يعيشون على الأساطير ، ومنهم من يعيش على ذكر الله - قد يكونون هم الآريسيون (أتباع آريوس)، ومازالت الآريوسية فى صدورهم - الا بذكر الله تطمئن القلوب، كل هذا ومازالت قصص الشهداء تتردد فى جوانب الكنيسة والأروقة والدهاليز وفى داخل البيوت، بداية بقصة الشهيد مارجرجس رأفكار أريوس، وأيضا مازالت قصص اثنا سيوس الرسول فى و جدان شعب الإسكندرية.

واليهود من ناحية أخرى يسيطرون على الاقتصاد فى الاسكندرية ويتحكمون فى التجارة بأموالهم وذهبهم ومجوهراتهم، وأيضا يحيكون المؤامرات والدسائس ويستعملون الخديعة.

هكذا دخل عمرو بن العاص الإسكندرية بصحبة الكاهن المصرى مبهورا بهذه العمارة، وازداد انبهاره ب بطرقها المستقيمة المزودة بالأرصفة والأعمدة والأورقة المظللة، هذا علاوة على ميادينها الواسعة (AGURA) ذات الأرصفة، والأ ورقة ذات الأسقف المائلة لحمايتها من الأمطار فى الشتاء وأشعة الشمس المحرقة فى الصيف، وفى أطراف المدينة الأسواق العامرة على أحسن ما يكون تجهيز الأسواق. وفى الشمال يوجد الميناءان الشرقى والغربى يعجان بالحركة والنشاط فالميناء الشرقى هو ميناء التجارة حيث يتم يوميا نقل الحبوب والنبيذ من المزرعة المصرية إلى روما والقسطنطينية عاصمتى الإمبراطورية الشرقية والغربية، وإلى الموانئ الكبيرة فى الإمبراطورية الواسعة المتداعية، والميناء الشرقى هو الميناء الحربى والحركة أيضا مستمرة فيه؛ فهناك التحرش على مناطق الحدود فى البلقان،

وفى أقصى الشرق كان التحرش مستمرا بين الإمبراطورية وفارس. وفيما بين الميناءين الشرقى والغربى على رأس جزيرة راقوده (راكوتس) كانت منارة الإسكندرية حينذاك، وكانت إحدى عجائب الدنيا السبع بناها بعض البطالسة ملوك اليونان بعد وفاة الإسكندر بن فليليب لما كان بينهم وبين ملوك روما من موجات الحروب فى البحر والبر، فجعلوا هذه المنارة مركبا فى أعاليها مرآة عظيمة من نوع الأحجار الشفافة يشاهد منها راكب البحر إذا أقبل من روما على مسافة تعجز الأبصار عن ردراكها، فكانوا يراعون ذلك فى تلك المرآة حتى يستعدوا له قبل وروده وارتفاع المنارة فى ذلك الوقت على التقريب مائتين وثلاثين ذراعا ، وكان طولها قديما أربعمائه ذراع، فهدمت على طول الزمان بسبب ترادف الزلازل والأمطار، لأن الرسكندرية مدينة ممطرة. وهيئة المنارة على ثلاثة طبقات: الجزء الأسفل أقل من النصف وأكثر من الثلث، مربع الشكل تم بناؤه بأحجار بيضاء بارتفاع أكثر من مائة ذراع، ثم الثلث الثانى مثمن الشكل بارتفاع أقل، وبنى بالحجر والجص وحولها فضاء كالشرفة يدور فيه الإنسان، والثلث الأخير مستدير ومركب عليه المرآة والأحجار الشفافة لتكشف عن سفن الأعداء القادمة من بعد وأيضا لإرشاد السفن الصديقة.

وكانت الإسكندرية بمبانيها المرتفعة الناصعة البياض تخطف الأبصار، فقال عمرو للشماس: ما رأيت مثل ذلك أبدا، لكثرة ما فيها من الأموال والعمارات عظمة ودقة، وارتفاع مبانيها، وكان يتردد أنه ليس فى الدنيا مدينة على ثلاثة طبقات غير الإسكندرية، والمدينة كما خططها ديمونقراطيس (مهندس الإسكندر المقدونى) منذ عشرة قرون مضت عام ٣٣٢ قبل الميلاد استمرت في العمران والتقدم وكانت الميادين تزينها، وكان فى أكبر ميادينها ميدان عمود السوارى الذى كان ارتفاعه خمسة وسبعون ذراعا أى حوالى ٢٧ مترا وقطره حوالى ٢,٧ م من أسفل ومن أعلى ٢,٣ م وقد أقامه يوستموس حاكم الإسكندرية فى معبد السرابيوم بمناسبة زيارة الإمبراطور دقلديانوس، وحوله الرواق الدائرى والذى يأخذ شكل الميدان، يحمله أربعمائة عمود جيرانيتى، وقد تحول المعبد إلى كنيسة فى عهد البطريرك تاوفليس فيما بعد، وكان يطل على ميدان مكتبة الإسكندرية ودار الحكمة التى كانت تسمى باسم الفيلسوف أرسطو طاليس الحكيم الإغريقى، وكانت جامعة الإسكندرية تطل على الميدان، وكانت تضم كلية للطب بأقسامها المختلفة علم التشريح، وعلم وظائف الأعضاء، وجراحات المخ والأعصاب، والدورة الدموية، وحتى الأمراض العقلية والنفسية أو الطب الروحى والتى كانت أساسا فى الطب حينذاك. ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيه أعيان الإسكندرية وأشرافهم وكبار الموظفين والمسئولين، ولهم كرة من الذهب مكللة يترامى بها كبرائهم وهم يتلقفونها بأكمامهم، وفى اختيارهم لتلك الكرة على ما وصفها من مضى منهم أن من وقعت الكرة فى كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم، وأثناء إقامة عمرو فى الإسكندرية فى ضيافة الشماس حيث أكرمه الإكرام كله وكساه بثوب من ديباج وألبسه إياه، دعاه إلى حفل الكرة الذى وصفناه، وجلس عمرو والشماس فى مكان متميز فى مدرجات الملعب مع كبار القوم حيث يترامون بالكرة وهم يتلقفونها بأكمامهم، فرمى بها رجل منهم فأقبلت الكرة تهوى حتى وقعت فى كم عمرو[٤] فعجبوا من ذلك وقالوا ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة، أترى هذا الأعرابى يملكنا؟ هذا مالا

يكون أبداً. وبدأ الشماس يطوف بعمرو فى مدينة الإسكندرية. ويقدمه للناس ويخبرهم بأن عمرو أحياه مرتين وأنه ضمن له ألفى دينار، وسألهم أن يجمعوا ذلك فيما بينهم ، ويبدو أن هذا الشماس كان ذا حظوة عند أهل الإسكندرية وكبار قومها،. فقام أهل الإسكندرية رأى عمرو بجمع ألفى دينار ودفعوها إلى عمرو. ومضت عشره أيام فى الإسكندريه كل الأماكن والأسواق والساحات والموانى والشواطئ واقترب من الكنائس، ولعله دخل المكتبة الكبيرة أو تجول فى جامعة الإسكندرية، وزار أقسامها وعنابر المرضى وحجرة العمليات، وأخيرا اقترب موعد رحيله فاستأذن عمرو فى مغادرة البلاد، وتعانق الرجلان بكل الجلال والحب واغرورقت العيون بالدموع فى المآقى؛ فهذه اللحظات لا يجود الزمان بمثلها مع كلمات الود والحب والوعد باللقاء.

وانطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا وزودهما وأكرمهما، حتى رجعا إلى أصحابهما فى مكان تجمعهم فى جنوب فلسطين، ودفع إلى أصحابه فيما بينهم ألف دينار، وأمسك لنفسه ألف دينار، وقال عمرو: كان هذا القدر من المال أول مال كسبته. وخلال هذه الرحلة من فلسطين إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى فلسطين مرة أخرى، مرورا بالقرى والريف والمدن ومخالطة للأهالى الفقراء والأغنياء والريف والتجار والفلاحين والكهان والرهبان والقساوسة، هذا بالإضافة إلى جحافل الاستعمار البيزنطى من ضباط وجنود وموظفين، وخلال هذا الحشد الهائل من البشر سواء كانوا مصريين مستعبدين أو بيزنطيين مستعمرين - عرف الكثير والكثير عن بعض الأمور و عرف خلالها المداخل والطرق والمسالك والوديان والجسور، والأماكن التى يمكن الإقامة فيها، واستطاع أن يحس بالشعب المصرى وما يعانيه من جنود الروم وما يقاسيه من ظلم وقهر فى هذه الرحلة. قد يكون فى هذه الرحلة قد اختزن الكثير من صور هذا الظلم الذى يعانونه. وخلال هذا الشهر المليئ بالأحداث والحركة يبدو أن عمرو استطاع أن يقيم بعض الصداقات مع الرهبان، والقساوسة المصريين خلال صداقته وصحبته مع الشماسى الذى دعاه لهذه الرحلة العظيمة والمليئة بالأحداث - فقد لازم

بعضهم البعض لمدة شهر، لم يفترقا قط - عرف عمرو فى هذا الشهر الكثير عن عادات أهل مصر وظروفها الاقتصادية والاجتماعية، وحتى الأخلاقية، ولعله استطاع أن يعى ويحفظ بعض المفردات المصرية بما هو معروف عنه من ذكاء ومقدرة على الاستيعاب والحفظ، كانت هذه الأحداث فى الأعم الأغلب فى عهد الإمبراطور البيزنطى فوقاس والذى كان عصره من عصور الانهيار العسكرى والاقتصادى والذى حكم فيما بين عامى ٦٠٢ و ٦١٠ م، واختزن عمرو كل هذا لأيام قادمة يخبئها له القدر. وسوف ترى فى الأوراق والفصول التالية كيف تحققت نبوءات رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام.

هوامش الفصل السابع

(١) المقريزى - كتاب المواعظ والاعتبار - الجزء الأول (ص ١٥٨ وما بعدها).

(٢) المقريزى - كتاب المواعظ والاعتبار - الجزء الأول (ص ١٥٥ وما بعدها).

(٣) المقريزى - كتاب المواعظ والاعتبار - (ص ١٤٤ وما بعدها).

(٤) المقريزى مصدر سابق (ص ١٥٩).

مصر بين الفرس والروم

بسم الله الرحمن الرحيم

«الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبتهم سيغلبون فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم».

صدق الله العظيم

مصر بين الفرس والروم

تولى هرقل الكبير والد الإمبراطور هرقل الولاية البيزنطية فى شمال أفريقية عام ٦٠٧ م فى عهد الإمبراطور فوقاس فيما بين (٦٠٢ - ٦١٠ م) وكانت الإمبراطورية حينذاك يعمها الفساد والانهيار والانحلال بما فيها ولاية مصر طبعا، وكان الإمبراطور فوقاس يمنع دخول البطاركة المصريين إلى الإسكندرية، ولكن البابا انطانيوس البيطريرك السادس والثلاثين الذى جاء بعد البابا دميان (٦٠٣ م) - كان قوى الجنان ، يدخل الإسكندرية متحديا أوامر الإمبراطور لتثبيت الإيمان فى نفوس الشعب، يرسم فيها الكهنة، وأخذ يعمل مع قومه وتلاميذه حتى استرد ما استولى عليه الملكانيون من كنائس المصريين الإرثوذكس، وحينذاك كان الصراع على أشده بين المصريين والبطاركه الملكانيين البيزنطيين؛ إذ كانت وظائفهم الأساسية وظائف سياسية استعمارية أكثر منها دينية، بدليل أنه لم يكن لهم عمل سوى تنفيذ أوامر الإمبراطور والذى أحس بتآمر قيادات الإمبراطورية على الاشتراك الجماعى فى انقلاب يطيح بالإمبراطور عام ٦١٠ م، وانتهى الانقلاب باعتلاء الإمبراطور هرقل (الابن) عرش الدولة البيزنطية فى القسطنطينية فى نفس العام. وبالطبع كانت الدولة البيزنطية عندما تولى هرقل حكمها قد استفحل الخراب فيها، فقد كانت الحالة الاقتصادية سيئة للغاية، وعمت بها الفوضين

وتعرضت الأقاليم الشرقية لاعتداءات الفرس، والأقاليم الغربية لاعتداءات الأفار أو الصقالبة كما جاء ذكر ذلك من قبل. وبالفعل هزم الفرس الروم فى عام ٦١١ واستولوا على الشام وهزموهم فى موقعة أخرى فى عام ٦١٣ عند إنطاكية ، وبعد ذلك استولوا على دمشق ومنها اتجهوا إلى فلسطين، وفى السنة التالية استولوا على بيت المقدس وكان السقوط فى أيدى الفرس لطمة قوية للبيزنطيين، حيث استولوا على الكنائس ونقلوا الصليب إلى عاصمتهم واستولوا على كل المجوهرات والذهب الموجود بالكنائس وبالقصور والمتاجر وسبوا من سبوا.

وفى أثناء ذلك فر كثير من مسيحى سوريا إلى مصر لاجئين إليها من ظلم الفرس، وكان ضمنهم رجال الدين الملكانيين، وعلى رأسهم البطريرك يوحنا الملقب بالرحيم، وكان البابا إنطاسيوس بابا كرسى الإسكندرية يقدم كل ما فى وسعه من خدمات لتخفيف وبلات المسيحيين الفارين ويخفف كربهم، وقد قدم يوحنا بطريرك الشام مساعدة مالية للبابا المصرى أيضا، حيث كان أكثر ثراء وأوسع منه ثروة لأن البطاركة الملكانيين كانوا يضعون أيديهم على إيراد الكنائس القبطية وأملاكها، ولم يكن لدى البطريرك المصرى سوى ما يجمعه من المسيحيين لسد احتياجاته، فتوطدت علاقة البابا أنطاسيوس مع يوحنا بالود والصداقة لما قدمه البطريرك الإنطاكى.

وكان البابا أنطانيوس فى أيامه هذه يتمنى أن يجمع الله بين الكرسيين الباباويين الإسكندرى والإنطاكى، ويتحد الفكرين اليعقوبى والملكانى، ولم يطل به العمر فتوفى مع أوائل الاحتلال الفارسى بدون أن تتحقق أمانيه، وتولى بعده البابا أندرينكوس الذى لم يستمر فى البابوية، إذ كان وجود الفرس فى الشام وفلسطين له آثارة على المنطقة كلها ومصر بطبيعة الحال، واستمر الاضطهاد الفارسى للمناطق التى وصلوا إليها فى الشام وفلسطين، وفى هذه الأثناء توفى بطريرك الملكانيين (كنيسة إنطاكية) وبعده بعام واحد توفى بطريرك الكنيسة المصرية البابا اندرينكوس، ولم يتم تعيين او انتخاب بابا خلفا له، فى هذه الظروف السيئة والاضطهادات المتلاحقة لرجال الدين سواء اكانوا ملكانيين أم يعاقبه.

فى ذلك الحين كان هرقل يدافع عن عاصمة ملكه؛ لذلك لم يتم تعيين بطريرك للملكانيين لكنيسة إنطاكية ولا لليعاقبة فى مصر خلفا للبابا أندرنيكوس.

وهكذا استمرت الكنيستان بلا رئاسة لكل منهما. وفى أثناء ذلك كانت جيوش الفرس تتقدم نحو أسيا الصغرى واستولت على مدينة كريو بوليس بالقرب من عاصمة القسطنطينية. وتقدم جانب آخر من الجيش إلى حدود مصر يهددها ويتوعدها، وكان ذلك فى عهد الملك كسرى أنو شروان.

اسمح لى عزيزى القارئ أن نرجع مرة ثانية ونلقى نظرة على الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية فى مصر، عندما تولى رعاية الكنيسة المصرية البابا اندرونيكوس البطريرك السابع والثلاثون عام ٦١٤ والشعب المصرى فى حالة من الحيرة واللا مبالاة فيما يتم من حروب ومعارك بين الروم أو الفرس على أرضهم وكأن الموضوع لا يعنيهم. وقد يدهش لذلك قارئ التاريخ أو دارسة: لهذا الهوان والعذاب والخنوع، لهذه السلبية، ولكن الحقيقة أنهم مغلوبون على أمرهم، وأيضا هم أهل إيمان بالقضاء والقدور، وهم قانعون بالآخرة، فإن الاخرة هى دار المقام ولدوام وما الدنيا إلا دار عبور.

ومع الاحتلال الذى أشرنا إليه فى جيش وحكومة البيرنطيين، ومع السلبية السطحية الظاهرة للشعب المصرى، ومع الخلاف العقائدى الذى نوهنا عنه.

مع ملاحظة أن الشعب المصرى بكل فئاتة وقياداتة الشعبية والسياسية والدينية ليس له ناقة ولا جمل فى هزيمة الروم أو انتصار الفرس أو ما هو عكس ذلك، فالمصريون بين نارين: ما لا قوه من عذاب على أيدى الروم من قتل وهدم للكنائس والأديرة وهذا ما سوف نوضحه فى الأوراق التالية، وما لاقوه من اضطهاد مذهبى قبل ذلك، فهم يختلفون مع البيزنطيين فى العقيدة، فالمصريون يعتقدون فى عقيدة الطبيعة الواحدة، والحكام يعتقدون فى عقيدة

الطبيعتين للإله، والحكام يعتقدون في عقيدة الطبيعتين للإله، كذلك كان المصريون يعانون من العذاب وسوء المعاملة وفرض الضرائب والجزية والأتاوات الباهظة والمرهقة، كل هذا بجانب المناخ السياسي الفاسد، الذي تتشابك فيه السياسة القومية مع خيوط الدين والعقيدة، في حين أن هذه العقيدة كانت تضم بين جنباتها صراعات شتى بين العقائد المختلفة والمتضاربة فيما بين الحقيقة والهرطقة، مثل عقيدة الطبيعة الواحدة وعقيدة الطبيعتين كما جاء ذكر ذلك من قبل، وأيضا التفسيرات العديدة مثل المشيئة الواحدة والمشيئتين، هذا علاوة على الآريوسية التي كانت - على ما يبدو - يعتنقها الكثير من عوام المصريين، وهكذا كان الشعب المصري، وخصوصا البسطاء والفلاحين حيث كانوا في حالة تشبه الفراغ وضباب الرؤية والفهم، فكل ما يدور حولهم صعب الفهم، وغير واضح الرؤية، وهكذا كانوا يدورون حول أنفسهم - كطبيعة أي شعب مغلوب على أمره من حكامه - تنتابه حالات عدم الانتماء والضيق واليؤس والحيرة لعدم درايته بما يدور حوله، هكذا كان الشعب المصري، والقوات الفارسية على الأبواب وجيش كسرى يرفع الرايات، حيث تم دخولهم أرض مصر في سيناء بدون أية مقاومة تذكر حيث تقدم زاحفا كالإعصار وذلك في غضون عامي ٦١٨ . ٦١٩(١) .

وبدأت الحصون المصرية في السقوط، وكان آخرها حصون الإسكندرية في غضون عام ٦٢٠، وفرت الحاميات الرومانية أمام قوات الفرس، فلم يجد الفرس أمامهم إلا المصريين العزل، الذين لجأوا للكنائس والأديرة والبقية الباقية اختبأت في المنازل النائية، هكذا وجدوا المدن خالية، وهجموا على الكنائس والأديرة وعاثوا فيها فسادا، وأعلن القائد الفارسي في الإسكندرية أنه سيعطي كل مصري من أهل الإسكندرية فيما بين ابن ثمانية عشرة عام إلى ابن خمسين عما عشرين دينارا، وحدد مكانا خارج المدينة لكي يعطي لكل شاب ورجل الدينارات، فلما خرجوا إلى مكان تجمعهم خارج أسوار المدينة تم حصارهم بمجموعة من الجند المسلحين، وفجأة أعطى لهم أمره بالإبادة ، وأعملوا فيهم السيوف، فقتل منهم ثمانون ألف رجل وشاب(٢) .

وبعد أن مات من مات وهلك من هلك، تتبع الرهبان الذين يسكنون الجبال فى الكهوف والمغارات والأديرة ومقابر المصريين القدماء المهجورة، وقد وصل عدد من قتل من الرهبان فى يوم واحد ستة آلاف راهب حاصرهم فى المساء، ومع شروق الشمس أمر بقتلهم جميعا ظنا منه أنهم يملكون ثروات وخيرات يخبؤنها فى أديرتهم وكنائسهم، وبلغت الأديرة التى خربوها فى ضواحى الإسكندرية ٦٢٠ ديرا كان يسكنها رهبان وراهبات، وكذلك دمروا أديرة الراهبات بمنطقة وادى النطرون(٣).

هذا، واستمرت ملاحقة الجيش الفارسى لفلول الجيش البيزنطى الهاربة والهائمة فى حقول وصحارى مصر، حيث كان المصريون ينالون نصيبهم من التعذيب والتقتيل، وكان اليهود يقومون بدورهم المعهود فى التودد للفرس (الحكام الجدد) على حساب الشعب المصرى، وأيا كان العذاب الذى لاقاه المصريون على أيدى الفرس، إلا أنه كان فرصة للخروج من وطأة الاضطهاد البيزنطى، وازدادت موجة الرهبنة واستقطاب الشباب المسيحى لهذه الموجه، والاتجاه إلى الصحراء حيث الأديرة والقلايات والصوامع، هروبا من الاضطهاد الذى أشرنا إليه من جانب الاحتلال الفارسى. وأيا كان مستوى هذا الاضطهاد وشكله، فالمصريون من جانبهم آثروا السلامة وفضلوا الاستسلام والسلام؛ فهم عزل، لا يملكون إلا التعاون مع الاحتلال الجديد أو الاعتزال والهروب والهجرة واللجوء للصحراء؛ فهم لا حول ولا قوة لهم لا يستطيعون مقاومة هذا الاستعمار البغيض. وإزاء القهر كانوا طبعا يمدونه بحاجاته من الطعام كالغلال والبقول، وبكل ما يطلبه جيش الاحتلال من عدة وعتاد، وخلال هذا المناخ الذى يتسم بالقهر والبطش والقوة كانوا يدفعون ما تطلبه قوات الاحتلال من عشور وضرائب وجزية، وأيا كان لون العذاب على أيدى الفرس فهو أهون من علاقة المصريين بالبيزنطيين؛ إذ أن العلاقة بالفرس هى علاقة السيد بالعبد أو علاقة المستعمر بالمستعمر من خلال واجبات يؤديها الشعب المصرى، وهو تقديم المؤونة والجزية المقررة والتى كانت فى الغالب الأعم ترهقه وتهد كيانه....

فى هذا الوقت كان النزاع البيزنطى الفارسى فى طريقه إلى الانتهاء عندما لم هرقل شمل قواته وشتات جيوشه، وبدأ فى إعادة تشكيل جيوشه، وبالفعل تمت هزيمة الفرس قرب مدينة الموصل (أطلال نينوى) وطلب الفرس الصلح واسترد الروم الأقاليم التى فقدوها - ومنها بالطبع - مصر - وكان انتصار الروم على الفرس هو تحقيق للبشرى التى جاءت فى القرآن الكريم فى سورة الروم التى نزلت على خاتم الانبياء والمرسلين محمد عليه الصلاة والسلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

«الم، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

صدق الله العظيم

وبعد دخول الروم أرض مصر مرة ثانية توجس المصريون خيفة من هذا الاستعمار القديم الجديد؛ فقد عانوا الكثير من الاضطهاد الدينى والقومى والسياسى - وبدأو فى ترتيب أنفسهم وتنظيم صفوفهم، وشرعوا فى انتخاب بطريرك لهم، فقد عانوا من الفراغ السياسى والدينى، وتنبه الروم، وأرادوا محاكاتهم خوفا من أن يستغل البطريرك المصرى ويستولى على إيراد الكنائس التى أصبحت فى حيازتهم إذ أنه فى هذه الأثناء لم ينتظر المصريون أمر القيصر بل قاموا بانتخاب بطريركا لهم، وكان المصريون قد انتخبوا البابا بنيامين أحد الرهبان المحبوبين من دير يعرف بدير قنويس - وهو من الأديرة القليلة التى لم يهدمها الفرس على عروشها وإن كانت لم تسلم من التخريب ومن النهب والسلب - وكان البابا بنيامين مصريا قحا وليس إغريقيا أو رومانيا، وفى هذا الصدد نرى ضرورة إلقاء الضوء على حياة هذا البطريرك الطيب: فقد نشأ فى مريوط من عائلة مصرية ثرية - ومريوط حاليا منطقة أثرية غرب المنطقة فيما بين الإسكندرية وكفر الدوار واستقر البابا بنيامين (البابا الثامن والثلاثون) على كرسى الإسكندرية عام ٦٣٠ فى عهد هرقل مع

دخول الروم مصر، واستمر البابا بنيامين فى تقديم الحب والخير للكنيسة والشعب المصرى، وكان الشعب المصرى يبادله نفس الحب، وإن كانت حياته سلسلة من الأوجاع والتشرد والهروب فلم يكد يتقلد كرسى البابابوية حتى أوفد هرقل قيصر البيزنطيين (الروم) واليا على مصر يدعى كيروس (المقوقس) ليكون واليا وأيضا (بطريرك) ولكى ينال هرقل رضا المصريين كلف كيروس هذا بنشر مشروع الاتحاد القائل بأن لله مشيئة واحدة بدلا من قولهم طبيعة واحدة، وكان هذا الفكر يتعارض مع إيمان المصريين بنظرية الطبيعة الواحدة، وعلى رأسها طبعا بطريرك الروم؛ فهو بالإضافة إلى أنه عداء مستعمر لشعب مستضعف فإنه عداء مذهبى وعقائدى من شأنه أن يعمق الكراهية فيما بينهم، فلم يطلب الفرس من المصريين اعتناق دياناتهم وعبادة النار، بل على العكس تركوهم وشأنهم فى ديانتهم وأطلقوا لهم الحرية الدينية، فرغبة الشعب المصرى فى الحرية الدينية كانت هى القضية الأولى والرئيسية والأساسية لهم، والتى من أجلها لاقوا العذاب الذى يجاوز طاقة البشر. واستمر عذاب المصريين لستة قرون، وهذا ما دفع بالبطريرك المصرى نفسه (الأنبا بنيامين بابا الكرسى البابوى) أن يكون قدوة للشعب المصرى ويرفض أى تعاليم تتعارض مع التعاليم الدينية القومية المصرية، وهذا مما دفع الوالى المعين من قبل الإمبراطور هرقل - كيروس أو قيرس أو كما يسمى فى كتب التراث العربية المقوقس - إلى اضطهاده حتى رأى حياته فى خطر، وقيل أن ملاك الرب تراءى له وقال له اهرب أنت ومن معك من هنا لأن شدائد عظيمة ستنزل عليكم، ولكن لم يستمر هذا الجهاد سوى عشر سنين(٤).

فكتب منشورا إلى سائر الأساقفة فى أقاليم مصر ينصحهم فيه أن يختفوا من وجه التجربة الآتية عليهم، وجمع كهنة الأسكندرية وأوصاهم بالسهر على الرعية، ثم خرج عن طريق مريوط ماشيا على رجليه ليلا ومعه اثنان من تلاميذه حتى وصل إلى أسقيا القديس مكاريوس، وكان هذا عقب الخراب الذى داهم هذه البرية من قوات الجيش الفارسى فلم يجد فيها إلا نفرا قليلا فتركهم وانصرف إلى الصعيد، وسكن هناك فى بلاد تيباس واختفى فى دير صغير

حتى تمت السنوات العشر، وهكذا استمر البطريرك المصرى هاربا لفترة زادت على السنوات العشر خوفا ورعبا من القهر البيزنطى الذى استمر أعواما، وهدم الكنائس والأديرة ناهبا ما فيها من ذهب وفضة وثروات وجواهر وتحف وأن الأديرة التى تلقب بخربة الفرس ما هى إلا معنى من تخريب الفرس لها، مثل دير الزجاج.

ويبدو أن ذاكرة الروم كانت ماتزال تحتفظ بذكريات بغيضة للمصريين وتعاونهم الماضى مع الفرس خلال السنوات القليلة الماضية ـ إبان الاحتلال الفارسى ـ وعدم تعاونهم معهم، أو حتى إظهار أى تعاون لمقاومة غزو الجيش الفارسى لمصر، بل يبدو أن الروم كانوا على اقتناع بأن مصر قدمت كل مساعدة للفرس وتعاونت مع هذا الاحتلال، وهذه الذكريات كانت تبدد مستقبل قيام أية علاقة ود جديدة بين الروم والمصريين، وتقف حجر عثرة فى طريق تحسين العلاقة بين الشعب المغلوب على أمره والمستعمر الذى يعانى من عقدة الذنب؛ فإن هؤلاء المصريين أصدقاء اليوم هم أنفسهم كانوا بالأمس أصدقاء الفرس الأعداء التقليديين للروم، وزادت أزمة عدم الثقة حتى انقلبت إلى كراهية حادة بين المصريين والروم. وزادت القيود المفروضة على المصريين وزادت الرقابة وكبت الحريات وتضاعفت الضرائب لتعويض سنى الكساد، وأيضا كانوا يلاحقون الشعب المصرى بتكاليف حربين:ـ

الحرب الأولى: هزم فيها الروم وانتصر فيها الفرس، والحرب الثانية: التى هزم فيها الفرس وانتصر فيها الروم. وكان من أثر هذه الحروب المستمرة وروح العداء للقوات المستعمرة ـ فرسا كانوا أم بيزنطيين ـ من جراء هذا كله ترك الفلاحون المصريون أراضيهم، وترك التجار تجارتهم وزادت موجة الرهبنة، وتضاعفت تموجات هجرة الشباب إلى الصحراء حيث الأديرة والكنائس والقلايات، وكان أيضا للخلاف المذهبى دوره فى إشعال جذوة الكراهية، ومازالت ذاكرة الشعب المصرى تتذكر القهر، والظلم وصور التعذيب العديدة التى لاقوها من أجل اعتناق عقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح، هذا بخلاف ما جاء فى عقيدة الملكانيين وهو مذهب الإمبراطور (مذهب

الطبيعتين للمسيح) إلا أن اللاهوت والناسوت اتحدا اتحادا تاما وكان هذا هو المذهب المونوفستى (Monophysty) الذى جعل للمسيح طبيعة واحدة لها صفات وخصائص الطبيعتين. فاللاهوت والناسوت متحدان فيه اتحادا تاما فى الجوهر وفى الأقنوم وفى الطبيعة، ليس هناك انفصال بين اللاهوت والناسوت فى المسيح ، بعكس عقيدة الروم المستعمرين الذين يتبعون مذهب الطبيعتين، وهم أتباع مدرسة إنطاكية اللاهوتية، وهو المذهب الذى يتبعه الإمبراطور وحاشيته وأتباعه، لذلك كان الخلاف المذهبى يرتبط باختلاف القوميه، فكان المصريون يعتبرون المذهب اليعقوبى جزءا لا يتجزأ من القوميه المصرية، وكذلك المذهب الملكانى جزء لا يتجزأ من القومية الرومية (البيزنطية).

وهكذا كان العداء القومى مزدوج الصيغة، قوميا فى أساسة الوطنى، ودينيا عقائديا فى منطقة الجدلى الفلسفى.

فى هذا الجو الصاخب بالغيوم، المعقد والذى تصبغه صبغة الظلم الجائر للمصريين الرهبان الهاربين والقساوسة الشاردين خلال الحكم الفارسى، ومن بعده حكم الروم للمرة الثانية، عين هرقل أساقفة (ملكانية) خلقدونية فى بلاد مصر كلها إلى أنصنا، وكان الأرثوذكس يعذبون اليعاقبة المصريين ويطاردونهم هم وأهلهم ورعاياهم ويضطهدونهم ويذلونهم ويغتصبون كنائسهم، ويسلبونهم منازلهم وهم صاغرون، ويفتكون بهم وهم صابرون بدون أن يتبصروا فى عواقب الأمور، حتى أشرفت مملكة الروم على الهلاك، وأصبحت فى حالة انحطاط زائد بسبب التعصبات الدينية والاختلافات المذهبية. وفى هذه الأثناء هرب البطريرك المصرى البابا بنيامين كا جاء ذكر ذلك من قبل، واستمر مختبئا فى أقاصى الصعيد، لا أحد يعرف أين هو إلا خاصة خاصته، ومضت عشرة أعوام فى فترة الحكم البيزنطى كانت كلها أيضا ظلم وتخريب وتقتيل وتعذيب واضطهاد دينى وسياسى وقومى كما نوهنا من قبل.

وهكذا عادت سلطة الروم إلى مصر فى وقت بلغ فيه سخط المصريين عليهم أشده لما رأوا الملوك كانوا يرون شغلهم الوحيد هو إرغامهم للمصريين

على اعتناقهم عقيدة مجمع خلقدونية، ولكن هؤلاء لم يغفلوا عن هذا، وتثبتوا في مبادئهم وحافظوا على لغتهم وعلى شريعتهم الدينية، وترجموا جميع تعاليم الديانة إلى لغتهم. ولا يخفى أن ذلك جمع كلمتهم وقوى عرى اتحادهم فقويت شوكتهم وثار في خاطرهم أمر الاستقلال، ولهذا السبب كثرت القلاقل في البلاد وضعفت الحكومة الرومانية في عيون المصريين، لاسيما أنهم كانوا ينتظرون مشاهدة قرب سقوطها، وما كان يتهددها من كل الجهات، فاستعمل الولاة والحكام العنف والقوة في تنفيذ أغراضهم فكان هذا داعيا إلى انقلاب الأهالي على الحكام وتعديهم عليهم والسعي في إخراجهم، وكان هذا قدرالله سبحانه وتعالى لتكون مصر مهيأة لاستقبال عمرو بن العاص، مخلصا ومحرراً للشعب المصري ومعه اصحابه الذين استطاعوا أن يؤلفوا قلوب المصريين على قلب رجل واحد استقبل وتفهم الدين الجديد وسماحته ، بفضل ما حمله من مثل عليا وقيم رفيعة في السلام والأخوة والعدالة والمساواة.

وهذا ما سوف نطالعه في افصول التالية - مع ظهور الإسلام - ثم كيف تم تحرير القبائل العربية في الحجاز وتهامة والسواحل وعمان واليمن، ومن بعد بلاد الشام وفلسطين والأردن ولبنان، وسوريا ومصر أيضا.

هوامش الفصل السابع

(١) المقريزى- كتاب المواعظ والاعتبار- الجزء الأول (ص ١٥٨ وما بعدها)

(٢) المقريزى- كتاب المواعظ والاعتبار- الجزء الأول (ص ١٥٥ وما بعدها)

(٣) المقريزى- كتاب المواعظ والاعتبار- (ص ١٤٤ وما بعدها)

(٤) المقريزى مصدر سابق (ص ١٥٩).

ظهور الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط: سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام: فأسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله. فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

محمد رسول الله (ﷺ)

ظهور الإسلام

على الجانب الآخر هناك فى الجزيرة العربية كانت أحداث جسام، أهمها: ظهور دعوة جديدة لم يسبق للعرب عهد بمثلها من قبل، وكان ظهورها على يد رجل أمى بسيط للغاية من أشرف بيوتات قبائل قريش هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب (ﷺ) هذا الرجل كان منذ نعومة أظافره محبوبا هاشا باشا ودودا رحيما عطوفا على الصغير وعلى العجائز شريفا طاهرا مشهورا عنه ومشهودا له بالوداعة والصدق والأمانة وكان ملقبا لدى الجميع بالصادق الأمين.

إلى أن تنزل عليه الوحى فى عام ٦١٠ ميلادية أى قبل الهجرة بأثنى عشر عاما ـ من مكة إلى المدينة وذلك فى عام ٦٢٢ ميلادية وهذه كانت السنوات الحاسمة فى تاريخ البشرية، والتى تعتبر نقطة تحول فى تاريخ الإنسانية، وأضافت إلى نور المسيحية نورا فوق نور، وتلاشت مساحات الظلمات التى كانت تغطى مساحات واسعة من العالم.

وهكذا ظهر الإسلام بين العرب فى جزيرتهم، وكانوا يعيشون حياة قبلية رعوية بين شقى أكبر إمبراطوريتين فى ذلك الوقت هما الإمبراطورية الفارسية فى الشمال الشرقى (الكويت ـ العراق ـ وإيران ـ وما بعدها) والإمبراطورية

البيزنطية فى الشمال الغربى (فلسطين - ولبنان - والأردن - وسوريا - وما بعدها فى الشمال الغربى - ومصر وما بعد ذلك فى الغرب).

وكان الإسلام بدعوته الحكيمة قد استطاع فى أقل من ربع قرن أن يوحد بين العرب، ويجعل منهم قوة استطاعت أن تهزم الفرس والروم، وينتشر الإسلام على أثرها فى أنحاء العالم المعروف حينذاك.

خرج العرب المسلمون من جزيرتهم يحملون رسالة عالمية يخرجون بها العالم من الظلمات الى النور محررين الشعوب المستضعفة المغلوبةعلى أمرها ويؤدبون بسيوفهم الأكاسرة والقياصرة وكل من صغر خده من الجبابرة ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور اضطهاد الأديان والظلام إلى عدل الإسلام بعقيدتهم التى تتسع للروح والمادة، والحق والقوة، والدين والعلم، والدنيا والآخرة، إنها عقيدة التوحيد التى تغرس فى النفوس الكرامة والحرية، وتجعل الخضوع لغير لله كفر وفسقاً وظلمه وتأبى على الناس أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، وبهذه العقيدة تحولوا من رعاة غنم إلى رعاة أمم. تجلى كل ذلك بعد هجرة الرسول وصحبة من مكة إلى المدينة تظللهم راية الحب والتعاطف وجميع الأخلاق الفاضلة التى جاءهم بها الإسلام وضربوا أروع الأمثلة فى التكافل والتكامل والبر والرحمة.

بدلا من النزاع القبلى والفوضى التى عاش عليها العرب منعزلين فى جزيرتهم قرونا طويلة، إلا من رحلات التجارة التقليدية.

فكان الإسلام لهؤلاء هو الملاذ وطوق النجاة من هذا المستنقع، وضرب المسلمون أروع الأمثلة فى الإيثار والقدوة الحسنة والفضائل الجمة.

وهكذا سار المسلمون الأوائل على أساس دستور إلهى محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن الكريم وتنزيل من حكيم حميد.

واستطاع الإسلام بكل ما احتواه من ثراء روحى وفكرى واجتماعى أن يخلف حضارة عظيمة فكرية ومادية، وتمثلت فى ذلك التراث العظيم من علوم الدين والتفسير والتشريع والحديث واللغة والأدب ونظم الحكم والعلوم

التجريبية، وقام بهذه الحضارة الإسلامية أجيال من العلماء والمفكرين ترجموا ونقلوا من الحضارات القديمة ثم شرحوها وأضافوا إليها الكثير من حضارة الإسلام وتعاليمه، ثم قدموها للناس وأعادوا صياغة المنهج العلمى الاستقرائى وحولوه من الاتجاه التأملى الذى وضعه فلاسفة الإغريق إلى الاتجاه الواقعى، مما جعل أوروبا تنهل من الحضارة الإسلامية وفكرها فيما بعد.

وفى الوقت الذى كانت الجزيرة تتهيأ للانطلاق بالفكر الجديد والعقيدة الجديدة والرسالة المحمدية، كان النزاع البيزنطى الفارسى فى طريقة للانتهاء، حيث هزم الفرس وطلبوا الصلح، واسترد الروم الأقاليم التى فقدوها، ومنها بالطبع مصر كما جاء ذكر ذلك فى الفصل السابق. كان انتصار الروم على الفرس تأكيدا لبشرى القرآن الكريم فى سورة الروم:

« الم، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

صدق الله العظيم.

كان الرسول ﷺ يهيئ نفسه لدعوة الأمم المجاورة لاعتناق الإسلام والإيمان بالرسالة المحمدية، وذلك بعد أن تم نشر الإسلام والإيمان بالرسالة المحمدية، وذلك بعد أن تم نشر الإسلام بالجزيرة العربية وأطرافها.

ففى شهر ذى الحجة فى السنة السادسة من الهجرة إبريل ٦٢٨ م على إثر خروج الفرس من مصر والشام، بعث الرسول ﷺ رسلا من أصحابه إلى ملوك وامراء الدول المجاورة يحملون كتبا تدعو للإسلام، فبعث دحية بن خليفة الكلبى إلى هرقل فلقيه فى بصرى بالشام ، وقيل فى بيت المقدس، ويقال إن هرقل رد على الرسالة ردا حسنا ، وقال لحامل الرسالة عندما يسلم به أقرب الناس إليه نرى رأينا.

كذلك بعث الرسول ﷺ كتابا إلى المقوقس وهو كيروس أو قيرس عظيم القبط وحاكم الإسكندرية ووالى مصر، مع الصحابى حاطب بن أبى بلتعة اللخمى.

بسم الله الرحمن الرحيم

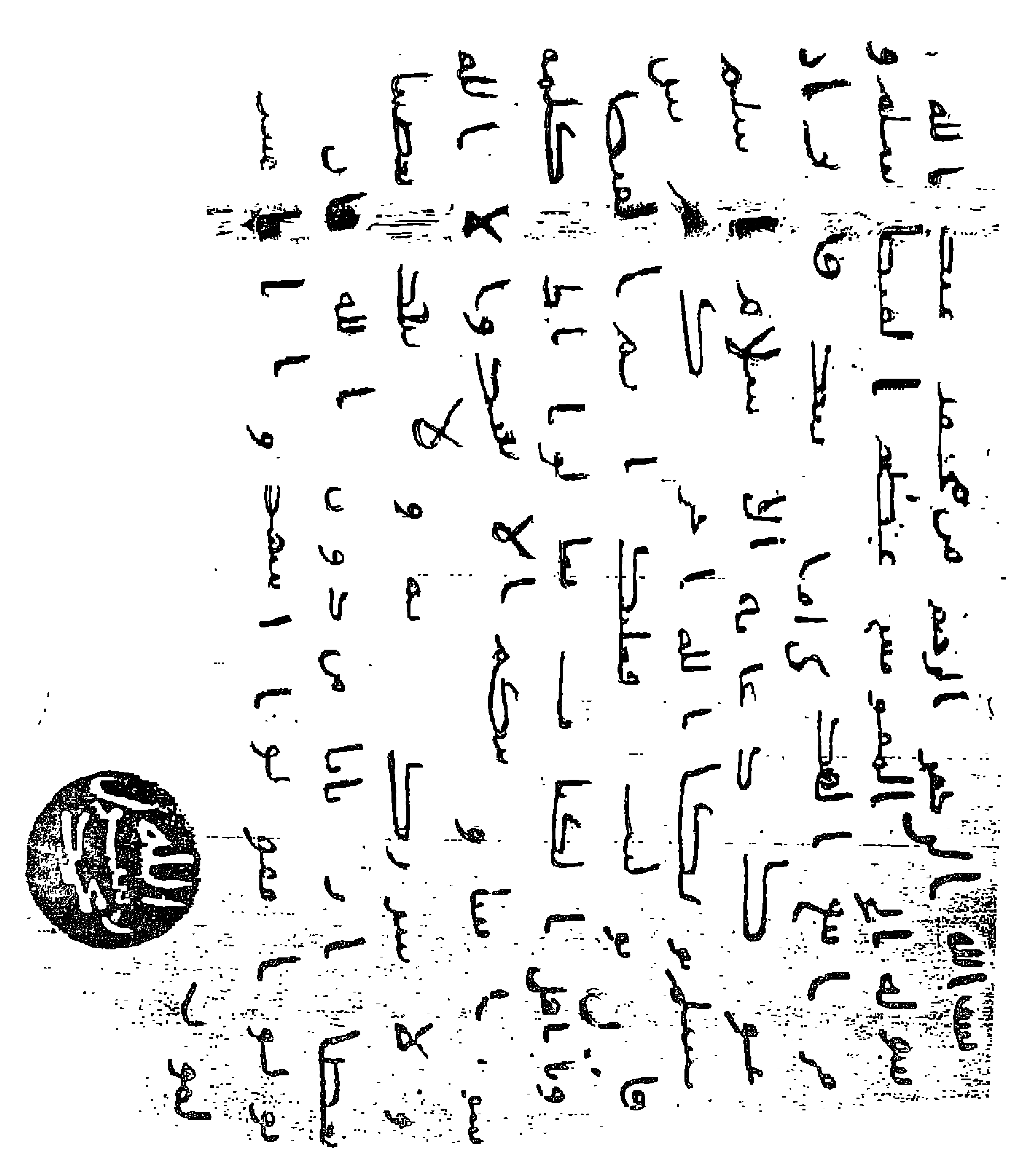
من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط «سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله. فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

محمد رسول الله (ﷺ)

واستقبل المقوقس رسول النبى (ﷺ) استقبالا مناسبا، وتجاذبا فى فحوى الرسالة، وسأله عن الدعوة وصاحبها محمد (ﷺ) وانتهت زيارة حاطب لمصر بوداع مناسب مصحوبا بهدية عبارة عن جاريتين وبعض خيرات مصر، والجاريتان شقيقتان مارية وسيرين، وقبل الرسول هذه الهدية وتزوج مارية وأنجب منها ولدا وحيدا هو ربراهيم. وسوف نطالع سويا تفاصيل زيارة حاطب بن بلتعة إلى مصر، ومقابلته للمقوقس بالاسكندرية وجانب من حديثهم معًا بخصوص الدين الجديد وصاحب الرساله النبى الجديد.. وأمور هذا الدين من عبادات.. .

ويبدو أن البيزنطيين نظروا إلى الإسلام نظرة خاطئة على أساس أنه مذهب شبيه بمذهب آريوس، أو مذهب مثل المذهب الموتنوفيزتى المنتشرين فى مصر والشام، ولم يدركوا وقتذاك أن هناك عقيدة جديدة ظهرت فى الجزيرة العربية، وأن الإسلام لم يكن لفئة من الفئات أو لجماعة من الجماعات ولم يأت لجنس من الأجناس أو لطبقة من الطبقات، وإنما الإسلام كان دعوة للإنسان فى كل زمان ومكان.

(وما أرسلناك إلا كافه للناس بشيرا ونذيرا. صدق الله العظيم) فالإسلام رساله عالمية روحية للبشرية من منطلق مكارم الأخلاق، وقدوة صاحب الدعوة، فكان عليه الصلاة والسلام قدوة فى الصدق والأمانة والرحمة. وكان حملة الرسالة يحملون دعوة مكارم الأخلاق وإسقاط البغاة، وتحرير الشعوب



رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس عظيم الأقباط في مصر.

التى استعبدت لقرون طويلة مضت، والقضاء على النظم الظالمة، وفرض نظام سماوى محكم مبن على الأخلاق والمساواة وتحرير الروح والبدن، ولذلك كانت المواجهة ضرورية، والجهاد ضرورى ·ن أجل تحرير الشعوب المستعبدة، وإزالة العوائق التى حالت دون نشر الدعـ ة بالطريق السلمى، فالحماسة الدينية من أجل صدق العقيدة دفعت المسلمين الأوائل إلى أن يحملوا رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التى حرروها، لأنه كان عليهم تبليغ الدعوة ودوافعها وألوان نشاطها. وهناك عوامل عديدة ساعدت المسلمين الأوائل فيما بعد على تحقيق أهدافهم فيما بين جبال كولون على حدود الصين، وجبال البرانس على حدود فرنسا، تصدوا لأعظم قوتين وقتذاك الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية على مستوى القرن السابع الميلادى.

وحقيقة الأمر أن سلاحهم كان - فى هذه المواجهات العديدة بالدرجة الأولى - القيم الخلقية والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والحث على الصفات والأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة من عدل ورحمة وشجاعة وبذل وتضحية، والجهاد فى سبيل نشر هذا الدين الجديد الذى أخرج الإنسانية من الظلمات إلى النور، وأدت هذه المواجهة والصراع بين الحق والباطل إلى أنهيار إمبراطورتى الروم والفرس. والحق أن قدوة قادة السرايا والجيوش كانت خير سفير يسبقهم لكل الوديان التى سلكوها والجبال والهضاب التى صعدوها والمناطق التى بشروا فيها بالعقيدة الفطرية التى بشروا بها ، وفى عام ٦٢٩ مممميلادية) فرجئ الروم - وذلك على أثر انتصارهم على الفرس - بخبر قرب وصول جيش المسلمين الذى أرسله الرسول ﷺ بقيادة زيد بن حارثة الكلبى إلى مؤتة فى فلسطين جنوب البحر الميت، وكان عدد المسلمين حوالى ثلاثة آلاف بينما كان عدد الروم أضعاف هذا العدد. ولما نزل المسلمون معان - وهى مدينة فى الأردن حاليا - لتدارس الموقف، خطب فيهم الصحابى الجليل عبدالله بن رواحة قائلا (يا قوم الله، إن الذين تكرهون للذين خرجتم تطلبون منه الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة. ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به. فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين: إما الظهور، إما الشهادة)، وكان لابد

لحماية هذا النظام وحماية الشعوب التى ارتضت هذا الحكم الجديد من منظومة كاملة على رأسها الأخلاق والحب، والإدارة بدورها كانت تحتاج إلى نظام ضرائب وتمويل ـ لحماية هذه الإدارات واستقرارها، وكان نظام الضرائب ما هو إلا امتداد متطور لنظام الجزية قبل دخول الإسلام مصر فى العصر البيزنطى والاستعمار الفارسى والاستعمار البيزنطى الثانى، وفى معركة مؤتة تأكد للروم أن هذه القوة الجديدة التى خرجت من شبه جزيرة العرب لم تكن مجرد غارة من غارات البدو تبغى السلب والنهب والتى كانت منتشرة فى هذه الفترة من تاريخ الإنسانية، حيث يفتقد الأمن والأمان والاستقرار أكثر الغارات المستمرة على قوافل التجارة، وتنتشر الإغارة على القبائل والبلاد من أجل خطف النساء والأطفال والشباب.

فى السنة التاسعة من الهجرة (٦٣٠م) وهى السنة التالية لغزوة مؤتة. أمر الرسول (ﷺ) بالتأهب لغزو الروم، وكان هذا العام شديد الحرارة، والأراضى مجدبة، وكان هذا العام عام عسرة، ولذلك سمى الجيش بجيش العسرة، وقاد الرسول ﷺ بنفسه حملة إلى تبوك، وكانت هذه الحملة أشبه بمناورة حربية فى الأراضى المتاخمة للإمبراطورية الرومانية، وكانت هذه الحملة بمثابة تأمين حدود الحجاز الشمالية. وتم إرسال سرايا الاستطلاع إلى الجهات المحيطة بتبوك، ثم عاد الجيش إلى المدينة بعد أن أقام فى تبوك عدة أيام، وكان هذا التحرك بمثابة التجهيز للدعوة الإسلامية فى الشام، ومبعث الطمأنينة إلى قلوب المسلمين وبأن مملكة الروم آن لها تزول أن فى مواجهة المد الإسلامى، وأنها غدت مؤهلة لأن تتحرر شعوبها من نير ظلم الاستعمار، وأيضا شعوبها جاهزة لاستقبال جيش التحرير. هذا وفى هذه الغضون كان الرسول (ﷺ)(١) قد سبق ووجه رسالته الشهيرة إلى المقوقس وهو قيرس أو كيروس الرومى عظيم القبط أو كبير المصريين والتى جاء ذكرها من قبل وفى ذلك يقول ابن الحكيم: لما كانت سنة ست من الهجرة ورجع الرسول (ﷺ) من الحديبية بعث برسائل إلى الملوك فمضى حاطب بن أبى بلتعة بكتاب رسول الله (ﷺ) إلى مصر، فلما انتهى إلى الإسكندرية وجد المقوقس (كيرس) فى مجلس مشرف

على البحر، فركب البحر، فلما حاذى مجلسه أشار بكتاب رسول الله (ﷺ) بين إصبعيه، فلما رآه أمر بالكتاب فقبض، وأمر به فأوصل إليه ، فلما قرأ الكتاب قال ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على فيسلط على، فقال له حاطب من منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه، أن يفعل به ويفعل، فوجم ساعة (أى صمت برهة قد تكون طويلة) - ثم استعادها فأعادها عليه حاطب ، فسكت ، فقال له حاطب أنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى فانتقم الله به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا تعتبر بك وإن لك دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الذى بشر به عيسى، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا - إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكن نأمرك به. ثم قرأ الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، فاسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) فلما قرأه أخذه فجعله فى حق من عاج وختم عليه[٢].

وعن إيان بن صالح قال، أرسل المقوقس[٣] إلى حاطب فقال له: ألا تخبرنى عن أمور أسألك عنها فإنى أعلم أن صاحبك قد تخيرك حين بعثك. قال حاطب لا تسألنى عن شئ إلا صدقتك قال: إلى ما يدعو محمد؟ قال: إلى أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتخلع ما سواه ويأمر بالصلاة. قال فكم تصلون؟ قال: خمس صلوات فى اليوم والليلة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت، والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميتة والدم. قال: من اتباعه؟ قال: الفتيان من قومه وغيرهم.

قال: وهل يقبل قوله؟

قال: نعم

قال: صفه لى

قال: فوصفه ببعض صفاته ولم يأت عليها كلها؟

قال: قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها ـ فى عينيه حمرة قل ما تفارقه وبين كتفيه خاتم النبوة؟ يركب الحمار؟ ويلبس الشملة ويتغذى بالتمرات والكسر؟ ولا يبالى من لاقى من عم ولا ابن عم؟

قلت: هذه صفته، قال قد كنت أعلم أن نبيا بقى، وقد كنت أظن أن يخرجه من الشام ـ وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله ـ فأراه قد خرج من أرض العرب من أرض جهد وبؤس، والقبط (المصريون) لا تطاوعنى فى اتباعه ولا أحب أن تعلم بمعاونتى؟ إياك، وسيظهر على البلاد ويترك أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى الظهور على ما ها هنا وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرف، فارجع إلى صاحبك، قال ثم دعى كاتبا يكتب العربية فكتب: (لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط. أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقى، وقد كنت أظن أن نبيا يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبكسوة، وأ هديت إليك بغلة لتركبها... والسلام[٤].

وعن عبدالرحمن بن عبدالقادر قال: لما مضى حاطب بكتاب رسول الله (ﷺ) قبل المقوقس الكتاب ، وأكرم حاطب، وأحسن منزله، ثم شرحه لرسول الله ﷺ وأهدى له كسوة وبغلة بسرجها، وجاريتين إحداهما ماريا (أم إبراهيم) ووهب الأخرى وأسمها سيرين) لجهم بن قيس العبيدى فهى أم زكريا بن جهم الذى كان خليفة عمرو بن العاص وكان واليا على جنوب مصر، وكانت فترة ولايته كلها حب ووئام بين المصريين، المسلمين والأقباط ـ المسيحيين ـ وكان ودودا مع أخواله فى صعيد مصر، وعلى ما يبدو أن منطقة إسنا اعتنقت الإسلام فى حينة.

وعن يزيد بن أبى حبيب أن المقوقس لما أتاه كتاب رسول الله (ﷺ) ضمه إلى صدره وقال هذا زمان يخرج فيه النبى نجد نعته وصفته فى كتاب الله

تعالى وأنا منجد صفته أنه لا يجمع بين أختين فى ملك يمين ولا نكاح وأنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة وأن جلساءه المساكين وأن خاتم النبوة بين كتفيه، ثم دعا رجلا عاملا ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من ماريا وأختها وهما من أهل جفن من أقليم أنصنا (منطقة إسنا الحالية).

كما أهدى إلى الرسول (ﷺ) علاوة على الجاريتين بغلة بيضاء وحمار أبيض وثيابا من مصر، وقدور عسل. وفى قول آخر أن هديه المقوقس كانت أربع جوار وثيابا وعسلا، وخصيا وبغلا كان يسمى (دلدل) وحمارا كان يسمى (يعفور) وقدحا من زجاج، يقال أنهما جاريتان ولكل جارية من تخدمها، وقبل الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الهدايا - وتزوج من إحدى الجاريتين - وهى السيدة مارية المصرية - وانجب منها ابنه الوحيد إبراهيم، ووهب شقيقتها سيرين للشاعر حسان بن ثابت، وبعده تزوجت من جهم قيس العبيدى فى مرحلة لاحقة، ورزقا بابن سمياه زكريا - والى مصر فيما بعد - وهكذا كانت علاقات الود بين الرسول ,كبير أقباط مصر والتى ظهرت خلال الرسائل المتبادلة،. وكان انتصار الروم على الفرس الذى ذكرناه فيما سبق مواكبا لانتشار الإسلام فى الجريرة العربية، وبدأ التطلع إلى المد الإسلامى وخصوصا بعد الرسائل التى بعثها الرسول (عليه الصلاة والسلام) إلى حكام العالم.

وكما جاء ذكر ذلك من قبل البيزنطيين نظروا إلى الإسلام على إنه مذهب شبيه بمذهب آريوس؛ فكلاهما - أى الإسلام والآريوسية - ينادى بوحدانية الله وينكر صفة الألوهية عن السيد المسيح، واعتقدوا أنه مذهب من مذاهب المسيحية مثل العقيدة المرونوفيزتية عقيدة الطبيعة الواحدة المنتشرة فى مصر والشام وفلسطين حينذاك[٥]، ولم يدرك البيزنطيون وقتذاك أن هناك عقيدة جديدة ظهرت فى الجزيرة العربية، وإن الإسلام لم يبعث لجنس معين أو طبقة بذاتها أو فئة بنوعها، ولكن الإسلام جاء للبشر كافة، وكما جاء فى الكتاب المحكم، بسم الله الرحمن الرحيم «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا» (صدق الله العظيم).

وهكذا لم يكن هدف الإسلام استعماريا بل على العكس هو: تحرير الشعوب من الاستعمار الذى تعانى منه شعوب الأرض إن كانت شعوبا تحت الحكم البيزنطى والرومانى أو شعوبا تحت الحكم الفارسى، وإسقاط نظم البغاة التى طالما استعبدت الإنسان أحقابا من الزمن.

ولكن كان الهدف هو التبشير بنظام جديد يقوم على أساس تشريع سماوى محكم قائم على المساواة وتحرير الروح والجسد، ولهذا كان الجهاد فى الإسلام يهدف إلى تحرير الشعوب المستعبدة والمقهورة. وسوف نطالع فى الأوراق التالية العلاقة بين الإسلام والإمبراطورية البيزنطية. وفى هذا الصدد يقول الدكتور ألفريد بتلر: كانت بلاد العرب قد سارت يدا واحدة قبل موت الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد انقطع بسقوط كسرى ما كان بين الفرس واليمن، وجنوب أرض العرب من علاقة السلطان، فى حين أن هرقل لم يعمل على تقوية سلطانة وتحديده فى شمال الجزيرة، بل تركه كما هو ظلا غير حقيقى من الهيبة، ولا شك فى أن كل نصارى العرب كانوا على المذهب (المونوفيسى) الطبيعة الواحدة، وأنهم لذلك كانوا لا يؤمنون برأى الإمبراطور فى السياسة والعقيدة، على أنهم كانوا ضعفاء لا يستطيعون دفع أعداء الدولة (٦)

وهكذا كان السبيل لدخول هؤلاء العرب النصارى الإسلام، الضاربين على التخوم من غساسنة ومناذرة منهم ذوى قربى فالشبه كبير بينهم.

فما كان على المسلمين إلا أن يسعوا لضم هؤلاء العرب فى الإسلام، ويشعروا قلوبهم بعقيدتهم، ويثيروا فيهم روحه فتصبح لهم مسلمة، وكان كثير منهم يقاتلون مستميتين فى سبيل دولة الروم ودين المسيح غير أنه قد كان منهم من أثر علاقة الجنس، أو كان غير حريص على دين لم يفقه فيه، فى حين أنه قد كانت منهم طائفة انحازت على حذر، فلم تكن مع هؤلاء ولا مع أولئك، متربصة حتى يتبين لها لمن الغلبة، فتكون مع الظافر وهى آمنة. ومهما يكن من الأمر فقد كانت صلة الجنس تجعل رجحان الميل إلى المسلمين(٧).

ولعلنا نجد عذرا إذ نحن سقنا بعد ذلك رأيا آخر نمهد به مجملين، وذلك أن فوز المسلمين كان له سبب آخر، ألا وهو ما حل بالمسيحيين من الخذلان، وهو يعدل فى شدته ما كان عند المسلمين من إيمان وقوة، وقال «قيدرينوس» على حين كانت الكنيسة تحتوشها الملوك، ومن لم يخشون الله من القسوس، خرج من الصحراء عملاق ليعاقبنا على ذنوبنا. هذه كلماته التى ذكر فيها نشأة الإسلام، وهى كلمات قليلة، ولكنها تدل على أن المسيحيين كانوا يشعرون أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان رسولا من الله، أو هو على الأقل سوط من الله أرسلة عليهم، وهذا شعور يظهر على لسان كثير ممن كتبوا من المسيحيين فى ذلك الوقت، أمثال (سيبوس) الأرمنى، وفى هذا يعلق الدكتور الفريد بتلر باستغراب فى كتابه القيم «فتح مصر» على قول الأسقف سيبوس الأرمنى فى ذلك الوقت ظهر رجل من ولد إسماعيل اسمه محمد كان تاجرا، وقال للناس إن الله أرسله بدعوة الحق. ولما كانت الدعوة من الله اجتمع الناس بأمره، ودانوا لشريعته، وهجروا عبادة الأوثان الباطلة وتابوا إلى الله الحى القيوم الذى ظهر لأبيهم إبراهيم، وقد أمرهم محمد ألا يأكلوا الميتة ولا يشربوا الخمر ولا يكذبوا، ولا يزنوا، والعجب أن سيبوس كان مسيحيا، وكان فوق ذلك أسقفا(٨) ويستمر دكتور بيتلر: إنه لأمر معروف أنه إذا نزلت بقوم نازلة من هزيمة قالوا إن ما أصابهم كان عقابا على ذنوبهم، وإن من فكر وجد أن هذا القول لم يخطئ الصواب، ولم يبعد عن الحقيقة، ولكن يوحى لنا أن فى قول هؤلاء الكتاب شيئا من الحزن المبرح أكثر مما نراه فى مثل هذه الأحوال، فإنهم يحسبون أن النصارى قد وزنوا والعرب فى كفتين، فرجح العرب ومالت كفتهم، وأن المسيحين قد أصبحوا غير جديرين، بأن يكونوا دون غيرهم هداه للناس إلى سبيل الله. وليس من العسير أن ندرك كيف ازداد الإسلام قوة، بما وقع فى قلوب المسيحيين من هذا الخوف وتوقع البلاء فقد كان قسوسهم وجندهم فى ذلك سواء، وقد كان «لوقا» الذى أسلم مدينة حلب بأسوارها للعرب ممتلئ القلب بما كان يبشر به قسيس من أنه كان محتما أن يفتح العرب البلاد، وكان بازل

الذى أسلم أيضا من مدينة صور قد أخذ عن الراهب «بحيرى» مما جعله يترك الروم ويوصى أهل الدولة الرومانية بدين الإسلام، وهاتان الروايتان قد جاءتا عن طريق العرب، وقد تكونان هما وأمثالهما أقاصيص وهمية لا حقيقة لها، ولكنهما تدلان على أمر واحد لاشك فيه ولا يكذبه التاريخ، وذلك أنه قد شاعت نبوءة بين بعض المسيحيين فارتجفت لها أفئدتهم، وهى أن الإسلام حق ونصره محقق.

هوامش الفصل التاسع

(١) د. حنين ربيع - تاريخ الدولة البيزنطية ـ دار النهضة العربية (ص٦٧) .

(٢) المقريزى ـ المواعظ والاعتبار ـ الجزء الأول (ص ٢٩) .

(٣) القس .

(٤) القس منسى متى - تاريخ الكنيسة القبطية (ص ٣٠٦)

(٥) حسنين ربيع - تاريخ العصور الوسطى - (ص٦٥) .

(٦) د. ألفريد بتلر - فتح مصر (ص ١٨٢) .

(٧) نفس المصدر السابق (ص١٨٧) .

(٨) د. ألفريد بتلر - فتح مصر (ص ١٨٧ وما بعدها) .

الإسلام والإمبراطورية البيزنطية

بسم الله الرحمن الرحيم

«هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل الياء «القدس» الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم ولأموالهم ولكناءسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقض منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم..»

أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب

الإسلام والإمبراطورية البيزنطية

كانت نفوس المسلمين القادمين إلى الشام وفلسطين تهفو إلى تحرير هذه الشعوب من الاضطهاد وذل العيش الذى يعانونه. وهكذا كانت رسالتهم تتفق مع روح بشارة الرسول ﷺ) . فى رفع الأذى عن الآريسيين من اضطهاد الروم لهم، كما جاء فى رسالة النبى ﷺ) إلى هرقل فى تحمله مسئوليتهم ومسئولية اضطهادهم ورفع الأذى عنهم، وتوحى الرسالة بأن الآريسيين يعتنقون مذهبا يتفق إلى حد ما مع الإسلام فى جوهره، كما جاء ذكر ذلك فى عجالة فى الفصل السابق. وها هى نص رسالته إلى هرقل ملك الروم: (إلى هرقل ملك الروم. بسم الله الرحمن الرحيم سلام على من اتبع الهدى...أما بعد. فإنى أدعوك بدعاية الإسلام: أسلم تسلم، وأسلم يؤتكك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الآريسيين. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء.... إلخ

محمد رسول الله (ﷺ)

وكانت فلسطين والشام وتخومهما غاصة بالغساسنة، وهم عرب بنى غسان الذين أظهروا الود لبنى عمومتهم وإخوانهم العرب القادمين، يحملون هذا الدين الجديد، ومن ناحية أخرى كان قدوم هؤلاء بمثابة تخليص لهم من ظلم الاستعمار البيزنطى، وكان هؤلاء العرب من سكان الشام وفلسطين مسيحيين

على مذهب الإمبراطور (المذهب الملكانى) وهم كارهون. والبعض الآخر يعتنقون مذهب آريوس، ويظهرون فى الغالب الأعم عقيدة الإمبراطور ويحتفظون فى صدورهم بعقيدتهم، وما لبثوا أن وجدوا فى الإسلام ما يعبر عما فى صدورهم حتى أقبلوا عليه، بقلوب مفعمة بالإيمان، والتوجه إلى العقيدة الإسلامية، فوجدوا فيها ملاذهم، وما افتقدوه من خلال النظريات والقوانين التى وضعها الكهان والبطاركة والقساوسة فى اللاهوت والناسوت عبر اجتماعات المجامع المسكونية ـ العاطفة ـ المشحونة بالحقد والكراهية والتعصب، وكانوا بدورهم يتمزقون فيما بين اللاهوت والناسوت من ناحية، ومن ناحية أخرى فيما بين قانون الإيمان والمذاهب العديدة ـ المتضاربة فيما بين الطبيعة الواحدة للإله والطبيعتين أو قانون الارادة الواحدة والارادتين أو المشيئة الواحدة والمشيئتين. إجمالا: فيما بين عقيدة اليعاقبة عقيدة الشعب المصرى، وعقيدة الملكانية عقيدة الإمبراطور، وليست المسافة بعيدة عن قصص الخلاف بين المطارنة فى مجمع نيقية أو إنطاكية أو القسطنطينية أو أفسس أو خلقدونية. ومازلت أخبار هذه المجامع تتردد فى كل الأوساط الكهنوتية والدينية والسياسية والشعبية أيضا. فقد كان البسطاء فى فلسطين أو فى الشام تنتابهم حالة نفسية محطمة، الرؤية غير واضحة والضباب يملأ الساحة، مشتتين فيما بين كنيسة إنطاكية، وكنيسة القسطنطينية وكنيسة روما وكنيسة الإسكندرية وما تعتنقه كل كنيسة من فكر وفلسفة ومذهب.

وكانوا فى حيرة: إلى أى فرقة ينضمون، ومع أى حزب ينحازون؟ هذا بخلاف المذاهب غير المعلنة والكامنة فى الصدور، مثل هؤلاء: أتباع آريوس (الآريسيين) والذين جاء ذكرهم فى رسالة الرسول (ﷺ) إلى هرقل إمبراطور البيزنطيين. وكان من الطبيعى فى هذا العصر، وفى هذا المناخ، أن يخفى كثير من الناس عقيدتهم خشية التعذيب. ومع تعدد المذاهب والانشقاقات، فإن الاستعمار البيزنطى لم يكن يفرق بين هذا وذاك، فالتعذيب والاضطهاد كانا يعمان أنحاء الإمبراطورية. وعموما لم يكن حال المسيحيين فى الشام بأحسن من حال إخوانهم المسيحيين فى مصر، فالاضطهاد كان سمة هذا العصر،

بسبب أزمة عدم الثقة من جانب الحكام الجبابرة وأعوانهم، لا يفرقون بين فلسطيني أو شامي أو مصري.

وهكذا جاء الإسلام البسيط الفطري الحنيف وخلصهم من حيرتهم، وأنقذهم من عذاب واضطهاد الاستعمار البيزنطي، ولا يخفى أن المنطقة كلها كانت تعيش في قلق، فكانت شعوب هذه المنطقة متعطشة للعدل والسلام والاستقرار، فالاضطهاد مازال يعم أراضي الإمبراطورية من ناحية، ومن ناحية ثانية فالامبراطور كان يسعى وكل همه هو توحيد المذاهب الدينية في ظل وحدة عسكرية وسياسية ١ كما سبق ذكره عند الإشارة إلى الخلافات الدينية المذهبية بين مذهب الطبيعتين وهو مذهب الملكاني (مذهب خلقدونية) وبين مذهب الطبيعة الواحدة وهو مذهب المونوفيزتي الذي كان وقتذاك مذهب شعوب مصر وفلسطين والشام. رغم أنف الدولة البيزنطية ورغم أنف الإمبراطور، وكانت أصداء مناظرات القديس أثناسيوس وآريوس أقطاب كنيسة الاسكندرية، مازالت أصداءها تتردد في كل منتدى كنسي أو مجمع كهنوتي، وأشهرها مجمع نيقية في ١٩ هاتور الموافق ٢٧ نوفمبر عام ٣٢٥ ميلادية[١]، وذلك في عهد الامبراطور قسطنطين الكبير، فقد خالف آريوس الكنيسة في قضية ألوهية السيد المسيح عليه السلام، وتجرأ وجاهر بما آمن به وقال إن المسيح عليه السلام ليس إلها ونفى عنه وصفه بالألوهية، ورفض التثليث، وأن المسيح لايساوي الله في الجوهر، وأن المسيح مخلوق بشر مثل سائر البشر، وحجته في ذلك أنه قبل ميلاد المسيح عليه السلام. كان الله موجودا، لذلك ينكر آريوس ألوهية المسيح. وهكذا كانت آراء آريوس ومريديه وأتباعه من المسيحيين الأوائل تقترب كثيرا من قول الإسلام في السيد المسيح عليه السلام.

وهيا - عزيزي القارئ - نغوص في أوراق التاريخ لنعرف المزيد عن مجمع نيقية، فقد كان هذا المؤتمر من فكر الإمبراطور قسطنطين الكبير[٢]، إذ كانت الخلافات الكنسية بين العديد من المذاهب وصلت إلى طريق مسدود، وكان فكر الامبراطور من أجل رأب الصدع في الكنيسة، والتي تعتبر أساس وحدة الامبراطورية - على حد تصور الامبراطور - والذي استخدم قوة الامبراطورية

وتصرف كرب أسرة - امبراطور وبابا فى آن واحد، ودعى هذا المجمع المسكونى - العالمى - الأول كل أساقفة الامبراطورية البيزنطية، وكان عددهم وقتذلك ٣١٨ أسقفا من كل أنحاء الامبراطورية منهم بالطبع أساقفة الاسكندرية وروما وقرطاجنة وإنطاكية ونيقوميديا وجعلهم فى ضيافة الدولة، ورأس الامبراطور قسطنطين جلسات المجمع وفرض آراءه وتدخل ووجه قراراته، وشجع الأساقفة على اعتناق مذهب الأغلبية اللاهوتية، وبذلك أصبح الامبراطور قسطنطين الكبير سيد الكنيسة المتحكم فى شئونها، مما كان له أثر كبير فى تاريخ الكنيسة الشرقية. وكان لإثناسيوس بطل كنيسة الإسكندرية وكان عمره وقتذاك التاسعة والعشرون دور هام فى هذا المؤتمر (المجمع)، فقد شرع إثناسيوس الذى أصبح فيما بعد أسقفا لكرسى البابوية بالإسكندرية يشرح معنى الإيمان وقانون الإيمان وفق آراء آريوس، فقد كان إثناسيوى له أغلبية الأساقفة، واستمر اسناسيوس فى خدمة كنيسة الاسكندرية إلى أن أسلم البابا الشيخ الوقور الأنبا الكسندروس روحه لبارئها، وتسلم إثناسيوس مقاليد الكنيسة الأرثوذكسية بتوصية من البطريرك وبإجماع كل الشمامسة والكهنة والأساقفة - وكانوا خمسين أسقفا - واستمر الصراع بين الآريسيين أو الموحدين ضد أتباع القديس إثناسيوس، وحاولوا إسقاط القديس إثناسيوس من كرسى البطريركية وإخراجه من بين رعيته بل ومن الشرق كله، واستمر الصراع بين كل من الطائفتين، بين قتل وتعذيب لكل من الطائفتين.

وهكذا كان لكل جماعة أنصارها ومريدوها وقوتها، وإجمالاً: كانت كل الشعوب على اختلاف مذاهبها تجد صعوبة فى فهم نقط الاتفاق والخلافات ومعرفة كنهها. إلى أن تغلب أنصار إثناسيوس على أنصار آريوس واستمرت العقيدة الآريوسية، وكانت ومازالت فى قلوب بعض من القساوسة الآريوسيين وفى وجدان كثير من الشعب البسيط الفطرى.

ومرة ثانية أستسمحك - عزيزى القارئ - أن ترجع إلى جبهة القتال بين جيوش الفتوحات الإسلامية، لكى تتصور معى خريطة الشام، وفى جنوبها فلسطين، وهى من أملاك دولة الروم، وفى الشرق العراق ومن بعدها فارس.

وكانت تزحف على هذه المساحة خمسة جيوش ـ هناك فى الشرق خالد بن الوليد مكلفاً بتحرير الشعوب التى ترزح تحت وطأة الحكم الفارسى.

وفى منطقة الأردن كان جيش الوليد بن عقبة وكان الجيش المعقود لواءه لأبى عبيدة بن الجراح مسئولاً عن تحرير الشام ومركزها حمص.

ويزيد بن سفيان كان مسءولا عن تحرير منطقة جنوب الشام ومركزها دمشق.

وكان جيش عمرو بن العاص مسئولا عن تحرير فلسطين ومركزها ايلياء (بيت المقدس) . وهكذا كانت أربعة جيوش مسئولة عن تحرير الشام وفلسطين حتى جبال طوروس فى الشمال.

ناهيك عن جيش خالد بن الوليد فى أقصى الشرق فى العراق وماوراءه . هكذا كانت قوات المسلمين متفرقة ولا نقول مشتتة، وماكاد الروم يلقون هذه الجيوش المتفرقة ـ وهم أشتات ـ حتى جمعوا لهم جموعهم، واستبد القلق بالقوات الثلاثة فى الشام أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان والوليد بن عقبة، ماذا يصنعون؟ فكتبوا إلى الخليفة فى المدينة وإلى عمرو ابن العاص على مشارف فلسطين وبالتحديد فى المنطقة جنوب شرق القدس وشمال صحراء النقب، يسألونهم الرأى، وجاء الرأيان النائيان بنصيحة واحدة هى أن يجتمع المسلمون بكل قوتهم فى مكان واحد ليلقوا جمع الروم وهم على قلب رجل واحد.

وكان عمرو بن العاص عالما بطبيعة البلاد ومواقعها، وأيضا كان نافذ البصيرة وواعيا فى دراسة المسالك والطرق والمواقع، وأيضا مدركا ومقدرا للموقف، فوقع اختياره على شاطئ نهر اليرموك حيث المراعى، وذلك انتظارا لقدوم الروم فى أى وقت من الأوقات، وأخذت القوات الثلاثة برأيه وأقاموا فى الموقع المختار.

وكان الخليفة أبو بكر قد أرسل إلى خالد بن الوليد أن يهب لنجدتهم ومساعدتهم، فقطع صحراء الشام الشمالية، وهى صحراء لم يجتازها جيش ضخم

من قبل، والتقت القوات على ضفاف اليرموك قبل لقاء الروم، واجتمع بذلك جيش للمسلمين قوامه نحو خمسين ألف مقاتل فيما بين الأردن والجابية في مواجهة ما يقارب نصف مليون مقاتل من جيش الروم.

وقاد خالد موقعة أجنادين التي أعقبت اليرموك، وهزم الروم بشجاعة منقطعة النظير يرجع إليها الفضل في انتصار الفئة المسلمة على الفئة الكبيرة من جيش الروم، ثم انفرد عمرو بجيشه بعد ذلك فأتم فتح فلسطين وماحولها من التخوم المجاورة، واستولى على غزة واللطرون والعرقوب وحاصر بيت المقدس، وكانت وقتذاك عاصمة إقليم الشام كله، وفيها هيكل سليمان، وكان قائد حاميتها من أشهر قواد الروم ودهاتهم، وهو أريطبون الذى كان العرب يطلقون عليه أرطبون، ومن مزايا القائد الماهر وخصائصه أن يحكم الحصار - وهو غريب عن هذه الديار - إحكامًا يرغم العدو على طلب التسليم، وهذا مافعله أريطبون بعد أن طال الحصار أربعة أشهر: خرج فاراً إلى مصر، وترك بطريرك القدس يفاوض في الصلح والتسليم حتى يصون المعابد والشعائر.

وإمعانًا في الاحتياط أصر على ألا يسلم العاصمة إلا للخليفة - وكان الخليفة أبو بكر قد مات وتولى الخلافة بعده عمر بن الخطاب . فجاء عمر وتسلم بيت المقدس. وننشير - عزيزى القارئ - مرة أخرى إلى نص وثيقة الأمان، وذلك للتأكيد على روح السماحة الإسلامية، وقدوة الخليفة التى كانت مثلا يحتذى، والتى كانت تغطى الآفاق وتنتشر على مساحة كل البلاد المحررة وشعوبها.

ووقع الخليفة عمر بن الخطاب وثيقة الأمان وعهوده بنفسه بنصها الخالد:

بسم الله الرحمن الرحيم

(هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء القدس الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من

صليبهم ولا من شيء من أموالهم. ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم يسكن معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن).

وكان عمرو بن العاص ممن شهدوا على هذه الوثيقة التى وقعها عمر الفاروق، ودخل معه بيت المقدس وزار معه مزارتها الشهيرة. واستلم عمر مفاتيح كنيسة القيامة وزارها وعندما أذن لصلاة الظهر، خرجا من الكنيسة وصلى عمر بن الخطاب ومن خلفه جموع المسلمين خارج كنيسة القيامة، خشية التباس الأمر على المسلمين، لكى لا تتحول الكنيسة إلى مسجد، وذلك صيانة لحقوق المسيحيين وما تعاهد عليه معهم فى وثيقة الأمان التى شهد عليها عمرو بن العاص ضمن من شهدوا عليها. وهكذا كان المجتمع والناس فى ايلياء (بيت المقدس) وما حولها يشهدون بساطة الخليفة عمر وعدله واحترامه للمقدسات، وكيف كان المواثيق والعهود لحماية حقوق المسيحين، وأعطاهم الأمان فى أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأن لا تهدم كنائسهم ولا ينقص منها ولا من من حيزها، ولا تساء معاملتهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد من أهلها. هكذا كان رحيما وكريما مع هؤلاء الرعايا الجدد، وهكذا أمن عمر بن الخطاب أهل القدس، وأيضا كل أهل فلسيطن والشام.

وكانت هذه الاخبار تنتقل فى أنحاء المنطقة وتنتشر انتشار النار فى الهشيم، مما جعل الكثير من هؤلاء المطحونين من أهل الشام يشتاقون للإسلام ويتوقون إليه ويحنون لمبادئه، وكيف لا: والنماذج الحية للعدل والشجاعة والبساطة كانت أمامهم بين جند الإسلام قوادهم مثل عمرو بن العاص وعبيدة ويزيد، فكان الشعب البسيط يسعى لاعتناق الدين الجديد والدخول فيه لمبادئه السمحة، وهكذا انتقلت هذه الأخبار إلى مصر لدرجة أن المقوقس والى مصر وباباها من قبل الإمبراطور منع الدخول إلى مصر والخروج منها حتى لاتصل أخبار المسلمين وانتصاراتهم التى كانت تسبقهم إلى كل مكان فى أنحاء الإمبراطورية البيزنطية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، كانت ومازالت مصر وأهل مصر فى ذاكرة عمرو بن العاص مليئة بصنوف الظلم الذى يلاقيه أهل مصر والشام وفلسطين؛ فكانت الرغبة الجامحة فى تحرير مصر تلح على عمرو بن العاص.

كما ظل عمرو يحبب تحرير مصر إلى قلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ونشر الإسلام فيها وتحرير شعبها: فإن مصر تتمتع بسمعة طيبة عند أهل هذه المنطقة، وخصوصا عند أهل الكتاب اليهود والمسيحيين بمختلف طوائفهم ومذاهبهم، فقد جاء ذكرها فى التوراة والإنجيل مرات ومرات، وجاء ذكرها فى القرآن الكريم، هذا ما سوف نطالعه معا فى متن هذه الأوراق على لسان المعاصرين أيضا.

هكذا ظل عمروو بن العاص يحبب إلى قلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مصر: يصفها مرة من واقع رؤيته لها وإقامته فيها أياما بل أسابيع، وتارة أخرى يقرأ له ما جاء فى القرآن الكريم عن مصر وفى وصف مصر. ويذكره بأحاديث الرسولﷺ وكان عمرو بن العاص يجيد القراءة والكتابة، ويحفظ كثيرا من آيات القرآن الكريم والعديد من أحاديث.

وسوف نستعرض فى الصفحات التالية آيات الذكر الحكيم عن مصر وأيضا القول المأثور فى فضل مصر، والمصريين وكونهم جند الله.

قال تعالى (اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم)

صدق الله العظيم (البقرة أية ٦١)

وقال تعالى (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين)

صدق الله العظيم (يوسف أية ٩٩)

وقال تعالى: أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون.

صدق الله العظيم (٤٣ الأعراف أية ٥١)

وقال كعب الأخبار: لولا رغبتى فى بيت المقدس لما سكنت إلا مصر.. فقيل له: لم؟ قال: لأنها بلد معافاة من الفتن، ومن أرادها بسوء أكبه الله على

وجهه، وهي بلد مبارك لأهله فيه. وقال ابن وهب: أخبرني يحيى بن أيوب عن خالد بن يزيد عن ابن أبى هلال أن كعب الأحبار كان يقول: إنى لأحب مصر وأهلها لأن مصر بلد معافاة وأهلها أصحاب عافية. ويقال فى بعض الكتب الإلهية إن فى مصر خزائن الأرض كلها، فمن أرادها بسوء قسمه الله تعالى. ومن فضائل مصر أنه ولد فيها من الأنبياء موسى وهارون ويوشع عليهم السلام، ودخلها أيضا يعقوب ويوسف والأسباط عليهم السلام، ودخلها أرميا كما دخلها مرقس الرسول. كما جاء ذكر مصر كثيرا مكنى عنها بالأرض أو أرض مصر: مثل قوله تعالى - وذلك فى قول سيدنا يوسف عليه السلام - (اجعلنى على خزائن الأرض)

صدق الله العظيم (١٢ يوسف أية ٥٥)

وقال تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض)

صدق الله العظيم (١٢ يوسف ٥٦)

وقال تعالى (قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين).

صدق الله العظيم (١٢ يوسف أية ٧٣)

وقد جاء فى فضل مصر أحاديث، فقد روى عبد الله بن لهيعة من حديث عمرو بن العاص أنه قال: حدثنى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

(إذ فتح الله عليكم بعدى مصر فاتخذوا منها جند كثيفا؛ فذلك الجند خير أجناد الأرض. وقال أبو بكر رضى الله عنه: ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة).

وعن عمر بن الحمقى أن رسول الله ﷺ عليه قال : تكون فتنة أسلم الناس فيها (أو خير الناس فيها) الجند العربى. قال: فلذلك قدمت عليكم مصر.

وعن تبيع بن عامر الكلاعى قال: أقبلت من الصائغة فلقيت أبا موسى

الأشعرى رضى الله عنه فقال لى: من أين أنت؟ فقلت من أهل مصر، قال من الجند الغربى فقلت: نعم قال: الجند الضعيف، قال قلت أهو الغربى الضعيف؟ قال نعم قال: أما أنه ما كارهم أحد[٣] إلا كفاهم الله مؤونته، اذهب إلى معاذ بن جبل حتى يحدثك قال فذهبت إلى معاذ بن جبل فقال لى ما قال الشيخ، فأخبرته فقال لى: (وأى شئ تذهب به إلى بلادك أحسن من هذا الحديث).

وروى ابن وهب قال أخبرنى حرملة بن عمران النجيبى عن عبد الرحمن بن شماسة المهدى قال سمعت أبا ذر الغفارى رضى الله تعالى عنه يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا، فإن لهم ذمة ورحمة، وفى قول آخر (ذمة وصهرا، فاستوصوا بالقبط خيرا) ..... هكذا أحاديث الجند المسلمين فى لياليهم القمرية يتسامرون فى مضارب خيامهم بحبهم مصر والمصريين، وكانوا يتساءلون ما هى الأرحام التى ذكرها الرسول ﷺ صلوت الله عليه، فكانت الإجابة أن هاجر أم إسماعيل بن إبراهيم منهم صلوات الله عليها.

وكان يتردد فى اله بالس أن محمد بن إسحاق قال للزهرى ما الرحم الذى ذكر رسول الله عليه وسلم قال (كانت هاجر أم إسماعيل منهم). وروى ابن لهيعة من حديث أبى سالم الجيشانى أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إنكم ستكونون أجنادا، وإن خير أجنادكم أهل الغرب منكم، فاتقوا الله فى القبط: لا تأكلوا أكل الخضر). وعن مسلمة بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: أستوصوا بالقبط خيرا، فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال العدو). وعن يزيد بن أبى حبيب أن أبا سلمة بن عبد الرحمن حدثه أن رسول الله ﷺ أوصى عند وفاته أن تخرج اليهود من جزيرة العرب وقال: الله الله فى قبط مصر فإنهم سيكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله.

وروى ابن وهب عن موسى بن أيوبق الغافقى عن رجل من الرند أن (رسول الله ﷺ) مرض وأغمى عليه ثم أفاق وقال: (استوصوا بالأدم الجعد، ثم أغمى عليه الثانية ثم أفاق فقال مثل ذلك، ثم أغمى عليه الثالثة فقال مثل ذلك. فقال القوم: لو سألنا رسول الله ﷺ من الأدم الجعد؟ فافاق، فسألوه فقال:

(قبط مصر أخوال وأصهار وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم) قالوا كيف يكونون أعواننا على ديننا يا رسول الله؟ قال: يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة، فالراضى بما يؤتى إليهم كالفاعل بهم، والكاره لما يؤتى إليهم من الظلم كالمنتزه عنهم). وعن عمر بن حريب وأبى عبدالرحمن الحلبى أنت رسول الله ﷺ قال: (إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم خيرا فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله) يعنى قبط مصر(٤).

وعن ابن لهيعة حدثنى مولى عترة أن رسول الله ﷺ قال: الله الله فى أهل المدرة السوداء السحمة الجعاد فإن لهم نسبا وصهرا (قال عمرو مولى عترة صهرهم أن رسول الله ﷺ) تسرى فيهم ، ونسبهم أن أم اسماعيل عليه السلام منهم، قال ابن وهب فأخبرنى ابن لهيعة أن أم إسماعيل هاجر أم العرب من قرية كانت أمام الفرما من مصر- تانيس- (صان الحجر(. (وقال مروان القصاصى صاهر إلى القبط من الأنبياء ثلاثة: إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام تسرى هاجر، ويوسف تزوج بنت صاحب عين شمس، ورسول الله ﷺ تسرى مارية) وقال يزيد بن أبى حبيب قرية هاجر: التى عندها أم دنين.

وهكذا كان جيوش المسلمين شغوفين بأن يذهبوا إلى مصر من كثرة ما ذكر فيخا ومحاسن شعبها... وفضائلهم، ومن ناحية أخرى كانت عين عمرو بن العاص على مصر، وذلك لأهميتها، وأهمية موقعها وموانيها على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وفلسطين ولحماية ظهر المد الإسلامى ببلاد الشام، ونشر الاسلام فى أفريقيا. ولا ننسى زيارة عمرو بن العاص إلى مصر منذ نيف وعشرين عاما مضت وتجواله فى حقولها عبر أفرع النيل، وأقام فى قراها وبات فى خاناتها وتسامر فى حاناتها مع المصرين، هؤلاء الجعد الشعور فأمضى عشرة أيام بلياليها فى الإسكندرية، استطاع خلالها أن يستوعب الكثير عنها، كبعض مفردات لغتها وأصولها، لذلك كان يلح على الخليفة عمر بن الخطاب بأن مصر أكثر أموالا، على سبيل الإغراء، ثم فى أنها أعجز البلاد على سبيل التهوين من المجازفة، فالجيش البيزنطى فيها منهك، مفكك، متحل، ناهيك عن أن الشعب المصرى كاره لهؤلاء الجند المستعمرين، وهذا

كان تهوينا ناجحا، حتى لقد أجاز له الخليفة عمر أن يبدأ الفتح بأربعة آلاف مقاتل. وإصرار عمرو هذا على دخول مصر كان أيضا راجعا إلى الاقتناع الكامل بقدرته على هزيمة قوات الاستعمار البيزنطية لضعف هذه القوات لما أصابها من إجهاد ووهن، ولرغبة المصريين فى التحرر منهم، وسيكون أعوانا على العدو المشترك وأعوانا على دينهم، كبشارة الرسول ﷺ، وكسر قيود هذا الاستعمار البغيض الذى استمر لأكثر من ألف عام منذ دخول الاسكندرية عام ٣٣٣ قبل الميلاد، ولعدم رغبة الشعب المصرى فى التعاون مع قوات الاحتلال فى مقاومة قوات المسلمين، بل على العكس فإن عمرو كان يعتقد اعتقادا جازما أن الشعب المصرى يقاوم الاستعمار، وهكذا لم يجد عمرو بن الخطاب مفرا من الاقرار والموافقة على أن يمضى عمرو بن العاص إلى مصر، وعن إمداده بعد ذلك كى يتم ما بدأه، لأن التقاعس بعد دخول مصر يؤدى إلى تجرؤ الروم على العرب وإشعارهم بضعفهم ووهن عزيمتهم وثقتهم بأنفسهم، فلا العدد ولا العدة تكون سببا فى الانتصار على من يحاربونهم، وربما كان فى ذلك عوض للهزيمة سلفا. وفى هذا المناخ العام، وخضم الأحداث الجسام والتحولات إلى الدين الجديد من أهل الشام وفلسطين - سواء أكانوا عربا غساسنة أم كانوا من المسيحيين الشوام - والفلسطينيين الذين هم على مذهب آريوس، وأيضا هؤلاء الذين كانوا فى حيرة من أمرهم لكثرة المذاهب التى كانت سائدة حينذاك، والتى سبق ذكرها من قبل.

وهكذا أصبحت هذه الأعداد الغفيرة من المسلمين منتظمة فى النسيج الإسلامى الذى اتسعت رقعته على امتداد الجزيرة العربية وفلسطين والشام حتى جبال طوروس على حدود الإمبراطورية البيزنطية فى الشمال وأيضا الأردن والعراق وتخومها المجاورة للإمبراطورية الفارسية فى الشرق، أصبحت كل هذه المساحات من الأراضى قد تحررت شعوبها، واعتنق الكثير منهم الإسلام، وأصبح خلال سنين قليلة لا تتجاوز العشرين عاما، هؤلاء المسلمون الجدد على استعداد للانضمام فى صفوف المقاتلين من أجل نشر الدين الجديد وتحرير باقى الشعوب المستعبدة المقهورة؛ فتطوعوا فى صفوف

الجيوش الإسلامية، وكانت أول هذه الجيوش جيش عمرو بن العاص المتأهب لتحرير مصر من الاستعمار البيزنطى وكان هرقل حينذاك مهموما بتنظيم أمور الإمبراطورية، وكان عليه تدبير أمور الرعية فى كل البلاد الشرقية التى اضطربت أمورها خلال فترة الحرب التى امتدت قرابة ستة أعوام، وفوق كل ذلك كان يسعى إلى تنفيذ ما اختمر فى ذهنه من أن يوحد مذاهب الديانة المسيحية - على أن يقوم توحيد الديانة على الوفاق لا على الإجبار والقمع - وكان يعتقد أن زعماء الكنيسة يستطعون أن يوحدوا الديانة فى صورة جديدة وجميلة تخلب الألباب وإذا ما تم ذلك صهر مذاهب الخارجين وأهل الهرطقة والخلاف والاختلاف ليخرج منها عقيدة نقية لا يشوبها الخلاف، وفى خضم المتغيرات الشديدة الضرواة فى هذه السنوات السريعة الأحداث، وعلى كل حال، ذهب الإمبراطور إلى هيرابولس وبدأ فيها تحقيق ما كان يرجو إنفاذه من توحيد الكنيسة، واختيار «إثناسيوس» رئيسا لأساقفة أنطاكية، وجعل المقوقس «كيرس» رئيسا لأساقفة الإسكندرية وكان هذا الاختيار يحمل بذور نهايته، فكان اختيار «المقوقس» واليا لمصر، سببا فى أن حلت بالبلاد نكبة إثر ما دعى إليه من توحيد طبقا لسياسة الإمبراطور والذى لقى مقاومة ومخالفة من كل جانب، مخالفة الزعيم الملكانى «صفر ونيوس» وشعيته، وخالفه كذلك كل القبط قسوسهم وعامتهم. وسترى فى الصفحات التالية كيف انقلب فى سياسته فقلب للأقباط ظهر المجن، وحارب مذهبهم؛ إذ رأى أنه لن يستطيع أن يدخلهم بالحسنى فى المذهب الملكانى، وشرع يحملهم على الخروج من مذهبهم جبرا واضطرارا بالعسف والاضطهاد. وكان الأمر فى الشام وفلسطين لايقل سوءا عن مصر، إذ خفقت سياسة الإمبراطور هناك أيضا، فأراد أن يحمل الناس على ما أراد بالقسرة والقوة.

وهكذا كان المقوقس يهدم ما بناه الإمبراطور بحروبه وانتصاراته على الفرس، وهكذا كان يمهد الطريق إلى الإسلام كما سيأتى ذكر ذلك فيما بعد[٥] على حين كان الاضطهاد فى الشام يمهد له السبيل هناك إثناسيوس، غير أن الأمر لم يكن بقسوة كما كان فى مصر ، فقد كان إثناسيوس أكثر حكمة من

قيرس في مصر، وكان أيضا لوجود هرقل في أراضي الشام أثر في تخفيف حدة الخلافات ومنع الخروج، ولكن لم يمض عدة سنوات لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، حتى ظهر الضرر المحقق الناشئ من سعي الإمبراطور، في أمر الكنيسة، وتوحيدها في عقيدة واحدة. وهذا ما سوف نطالعه في الفصول التالية(٦).

إذ أن هرقل أضاع قواه سدى في نضال لا فائدة فيه، أراد به توحيد الكنيسة، فلم يستطيع أن يجمع ما بقى من قوى الدولة أو يقود جندها إذا ما أزفت ساعة الخطر واشتدت الأزمة، فبقى من شدته ثلاث سنين خبت فيها آماله وذوت قوته وذبل نشاطه وعلا أمر الإسلام تحت بصره وسمعه ولم يتحرك لمقاومته، فمازال الإسلام يعلوا حتى طوى دولته تحت ظله(٧).

فقد كانت هيبة الإسلام والمسلمين تسبقهم، فتقع في قلوب أهل تلك البلاد. وكانوا يذعنون لهمن خاضعين وفي هذا يقول «سيبوس» في رواية واضحة دقيقة: العرب بعد واقعة اليرموك جازوا نهر الأردن، وكانت هيبتهم تسبقهم فتقع في قلوب أهل تلك البلاد، فكانوا يذعنون لهم خاضعين، وقال وفي تلك الليلة ـ يقصد الليلة التي أعقبت بلوغ أنباء قدوم العرب إليهم ـ «أخذ أهل بيت المقدس الصليب الأعظم وكل ما كان في الكنائس من الآنية وجعلوا كل ذلك عن الساحل ثم وضعوها في سفينة وبعثوا بها إلى دار الملك بالقسطنطينية» ولم يذكر في روايته كلمة واحدة عن هرقل، ولكن لاشك أن تلك السفينة التي كانت تحمل الكنوز المقدسة سارت إلى الشمال ولحقت بالإمبراطور، وكان لحوقها به إما في بعض الثغور التي مرّ بها في طريقه إلى عاصمته، إذ كان سفره بحرا.

وإما لحقت بقصره في هيبريا على مقربة من خلقدونية، وكان قد أقام بها مدة من الزمن، وهو في اضطراب ومرض يفتت عليه الأكباد، فلما سار إلى العاصمة حمل معه الصليب، فأعاده إلى كنيسة القديسة صوفيا، وكان الناس قد فرحوا من قبل أشد الفرح بذلك الصليب، ورحبوا بمقدمة ظافرا، ورأوا فيه سر نجاح هرقل، ثم عاد إليهم بعد ذلك والحزن يخيم على الناس وهم يرون في

عودته إليهم رمزا لاخفاق مليكهم وخيبته، ويقينا أن الأقدار لم تسخر من هرقل سخرية أقطع حدا ولا أمر مذاقا من هذا على ما أنزلته به من النكبات.

وفى ذلك الوقت كانت مدينة بيت المقدس محاصرة بقوات خالد بن الوليد مدعما بقوات أبو عبيدة، واستمر حصار المدينة طيلة شتاء (٦٣٦ - ٦٣٧م)، ولكن لم يكن عند أحد شمك فى نهاية الحصار، فإن العرب لو عجزوا عن فتح المدينة عنوة بالهجوم، فإن أهل المدينة لم يكن بهم قوة على رفع حصار العرب عنها، ولم تأت من قبل الرومان أنباء تجعلهم يؤملون النجدة، بل كانت الأخبار تتوالى بالهزائم والنكبات، فدب الخوف فى قلوب أهل مدينة بيت المقدس مثلما حل الخوف والرعب في قلب الإمبراطور، فلما أن صار الامر إلى ذلك، فاوض البطريرك الشيخ صفرونيوس قوات العرب من فوق الأسوار، وكان الإحساس العام فى قلوب شعوب الشام وفلسطين هو الخوف وكذلك القوات الرومية فى مصر. وهكذا تأهب عمرو بن العاص لتحرير مصر... وهذا ما سوف نتابعه فى الفصل التالى...[٨].

هوامش الفصل العاشر

(١) إبراهيم صبرى معوض ـ تاريخ حياة القديس اثناسيوس(ص١٢٦)

(٢) المصدر السابق (ص١٢٨ وما بعدها)

(٣) المقريزى ـ المواعظ والاعتبار (ص٢٤)

(٤) كتاب المواعظ والاعتبار ـ الخطط المقريزية ـ الجزء الأول (ص٢٥)

(٦) د. ألفريد بتلر ـ فتح مصر (ص١٤١)

(٧) د. ألفريد بتلر ـ فتح مصر (١٩١١)

(٨) نفس المصدر السابق (ص١٩٨)

(٩) د. ألفريد بتلر ـ فتح مصر (ص١٩١ وما بعدها).

تطلع عمرو إلى تحرير مصر

«إن الله عـز وجل سيـفتح عليكم بعـدي مصـر، فأسـتوصـوا بقبطهـا خيرا، فإن الهم منكم صـهرا وذمة ورحمـا، فإنكم ستـجـدونـهم نعم الأعـوان على قـتـال العـدو.»

صدق رسول الله ﷺ

تطلع عمرو إلى تحرير مصر

بعد أن ألقينا فى الأوراق السابقة الضوء على العلاقة بين الإسلام والإمبراطورية البيزنطية، وهى علاقة كان أساسها الحرب ومفرداتها السهام والقوس والرمح وأدواتها الخيل، وحركتها الكر والفر والهجوم والتقدم، ولكى نتابع تقدم القوات الإسلامية فى تحريرها الأراضى فلسطين والشام، وتطلع عمرو بن العاص إلى تحرير مصر، ففى هذا الصدد أستسمحك عزيزى القارئ أن نرجع قليلا للوراء لعشرين عاما مضت، لنرى المناخ العام والصورة الكاملة لهذه المنطقة القلقة، المفعمة بالأحداث الجسام مع بداية حكم هرقل، فقد كانت الأحوال الاقتصادية مع توليته الحكم متردية، فقد كانت الظروف الاجتماعية متدهورة، ويعم البلاد الفوضى والفساد فى الإدارة، وتعرض الجيش للانحلال والضعف، وتعرضت أطراف الدولة لاعتداء الآفار والصقالبة فى الغرب، والفرس من الشرق.

وبهذه المناسبة استسمحك عزيزى القارئ، لوقوعنا - مجبرين - فى تكرار الأحداث أحيانا، وذلك لوصف وشرح الظروف العالمية فترة حكم هرقل وكسرى أبو رويز بن هرمز ، وهى فترة الصراع بين الروم والفرس وتداخل الأحداث ووجهات النظر، وأيضا التواريخ.

وكذلك وقبل بدء الفرس (إبان حكم كسرى أبو رويز بن هرمز) فى الاستيلاء على الأجزاء الشرقية فهزموا البيزنطيين فى عام ٦١٣م عند أنطاكية، وبعد ذلك استولوا على دمشق، ومنها اتجهوا إلى فلسطين واستولوا على بيت المقدس فى عام ٦١٤م، واستولوا على ما به من دور وقصور وأديرة وكنائس ونقلوا الصليب المقدس إلى عاصمتهم المدائن، وتقدم جيش آخر فى اتجاه القسطنطينية وتقدم جيش آخر إلى مصر فيما بين عامى ٦١٨م و ٦١٩م(١).

ويبدو أن المصريين بكل مذاهبهم لم يبالوا من دخول الفرس إلى مصر - كما جاء ذكر ذلك فى الأوراق السابقة وذلك للعلاقة السيئة والود المفقود بين المصريين والبيزنطيين إذ كانت العلاقة كلها كراهية وحقد وعذاب وتنكيل علاقة الأسياد بالعبيد علاقة مستعمر بمستعمر كانت خلالها صرخات المصريين مكتومة صامتة وقلوبهم تنبض وترتل مع وتدعو أن يرفع الله هذه الغمة ويزيح هذا الكابوس هؤلاء الأعداء الضيوف الثقلاء الاقوياء الظالمين فكانت اللامبالاة هى السمة الغالبة عليهم، وكانت السلبية هى الصفة التى يتصفون بها. ومن ناحية أخرى فإن الاحتلال لمصر كان ضربة للدولة البيزنطية، لأن مصر كانت تمد القسطنطينية بالقمح. وتسبب عدم وصول القمح إليها إلى حدوث ضائقة اقتصادية فى العاصمة البيزنطية.

وكاد اليأس يصيب هرقل، ولكنه بدأ فى التعبئة للحرب ضد الفرس بصبغة دينية، ونفث فيها الشعور بالعداء الدينى، وأخذت طابع الحرب الصليبية تشتعل بالحماس ضد عبدة النار، واسترجاع الأراضى المقدسة وإعادة الصليب الذى سلب من بيت المقدس، وعندما بدأ هرقل فى التفكير فى الحرب لحماية ظهر الإمبرطورية عقد معاهدة مع الآفار فى الغرب، ولكنهم نقضوا الاتفاق.

ومع ذلك - وأخيرا - استطاع هرقل أن ينهى الصراع البيزنطى الفارسى فى عام ٦٢٧م، عندما حقق هزيمة ساحقة لقوات الفرس على مقربة من مدينة الموصل الحالية، وتقدم داخل فارس لقوات الفرس إلى أن اضطر الفرس لطلب الصلح، واسترد الروم جميع أقاليمهم التى فقدوها وهى أرمينا والشام ومصر.

وكان انتصار الروم على الفرس تأكيدا لبشارة القرآن الكريم فى سورة الروم - كما جاء ذكر ذلك من قبل - وقد كان أهل قريش يتشيعون للمجوس، وكانوا يعايرون المسلمين بهزيمة الروم من قبل.

وعند ما عاد الإمبراطور هرقل إلى العاصمة استقبالا هائلا من جانب الشعب ورجال الكنيسة واعضاء السناتو (مجلس الشيوخ)، ثم اتجه بعد ذلك إلى بيت المقدس عام ٦٣٠، فأقام من جديد الصليب المقدس فى مدينة القدس بعد أن استرده من الفرس[٢].

وبينما كان الصراع محتدما، والدماء تجرى أنهارا من كل الأطراف، كانت هناك أحداث عظام جرت وتجرى فى شبه الجزيرة العربية، لم تكن لتعنى أيا من أطراف النزاع، رغم أن أهل الجزيرة عرفوا الكثير عن الفرس والروم، وذلك بفضل القوافل التجارية العربية التى كانت تقطع الفيافى وتجوب الصحارى - فيما بين مكة والشام - حيث رحله الشتاء والصيف، وهو الطريق الذى سلكه القريشيون، وكان كل أهل الجزيرة يشاركون فى هذه الرحلات التقليدية الأبدية وكان فارسنا عمرو بن العاص أحد رجال هذه القوافل والذى دخل مصر - وهو شاب يافع فى رحلة سريعة كانت منذ أكثر من عشرين عاما مضت، والتى جاء ذكرها فى فصل سابق. كانت الأحداث العظام التى نعنيها هى انتشار الرسالة الإسلامية فى أرجاء الجزيرة العربية، ولم تكن قد انتشرت خارج الجزيرة بعد، ولكن كان مقدرا لها الانتشارخارج هذا النطاق المحدود، إلا بقدر ما تنامى إلى أسماع هؤلاء المحيطين بالإمبراطور هرقل، ووالى مصر قيرس أو (المقوقس) وإلى كسرى إمبراطور الفرس - وذلك من محتوى الرسائل التى بعث بها الرسول إلى هرقل - إمبراطور الروم - وهى بداية الحوار بين الإسلام والإمبراطورية البيزنطية، والتى كانت تدعو هرقل إلى الهداية والإسلام، وفى ذلك السلامة له ولشعوبه، وتحمله مسئولية استعباد شعوبه وتحمله إثم الآريسيين، وفى النهاية تدعوه إلى كلمة سواء. وفيما يلى نص الرسالة التى بعث بها الرسول ﷺ إلى هرقل - إمبراطور الروم - فى العام السادس للهجرة:

«إلى هرقل ملك الروم: سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الآريسيين. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء».

«محمد رسول الله ﷺ»

وأيضا فى هذا المناخ الضارى، بل شديد الضراوة، والذى كانت تنتقل عبره الأخبار - بسرعة البرق - من رسائل يحملها السعاة على ظهور الهجن أو على ظهور الجياد أو الرسائل التى يحملها الحمام الزاجل عبر الفيافى والصحارى لآلاف الفراسخ، وأيضا ما أحست به القيادات العسكرية، التى تتناوب الحراسة فى الأبراج، والقلاع على الحدود عن تحركات القوات العربية الإسلامية، والتحرشات التى تمت بجنوب فلسطين، حينئذ عبئت الجيوش البيزنطية فى العام الثامن للهجرة الموافق ٦٢٦ ميلادية - بعد أن وصلت إليهم الأخبار عن عزم المسلمين مهاجمة جيوش الرومان (البيزنطيين). وبالفعل وصلت الجيوش بقيادة زيد بن حارثة الكلبى إلى قرية مؤتة على تخوم البلقاء جنوب البحر الميت، وكانت جيوش المسلمين لايزيد عددها عن ثلاثة آلاف مجاهد، بينما جيوش البيزنطيين أضعاف هذا العدد، واستطاعت جيوش المسلمين التغلب على جيوش العدو، وتأكد للرومان أن هذه القوة الجديدة التى خرجت من شبه الجزيرة العربية لم تكن غارة من غارات البدو التى تبغى السلب والنهب، والتى اعتادها الروم قبل الإسلام، بل رأوا العرب المسلمين لأول مرة فى تاريخهم، قد ظهروا مزودين بعقيدة سماوية أدت إلى تماسكهم وتفانيهم فى سبيل عقيدتهم، ووجد البيزنطيون أمثلة للفداء والاستشهاد، إذ استشهد ثلاثة من القادة المسلمين، وهم يقاتلون فى حماسة وإيمان وإصرار، وهم: جعفر ابن أبى طالب، وعبد الله بن رواحة، وزيد بن حارثة، رضى الله عنهم.

واستطاع خالد بن الوليد أن يرفع اللواء ويتجاوز محنة القيادات التى سقطت شهيدة، وتغلب على الأعداء[٣].

وفى العام الثانى - عام ٩هـ الموافق ٦٣٠م - وهو نفس العام الذى تم انتخاب الشعب المصرى لباباهم بنيامين رغم أنف الإمبراطور هرقل، والذى قد هرب فيه البطريرك إلى مكان مجهول فى صحارى مصر لا يعرفه أحد[٤]، وهذا ماسوف نطالعه معا، عزيزى القارئ، عندما يحرر عمرو بن العاص مصر. وهكذا أمر الرسول ﷺ بالتهيؤ لغزو البيزنطيين فى زمن عسرة على الناس، وشدة من الحر وجدب فى البلاد، ولذا سمى الجيش بجيش العسرة، وقام الخليفة عثمان بن[٥] - رضى الله عنه - بنفقة هذه الغزوة، والتى تكلفت مالا طاقة لأحد به من قبل، وقاد الرسول ﷺ حملة تبوك، وكانت حملة صغيرة بغرض تأمين الشمالية إلى الجهات المجاورة لتبوك، ثم عاد جيش المسلمين إلى قاعدته فى المدينة، بعد أن قام فى تبوك حوالى أسبوعين. وكان الرسول ﷺ يستهدف الاستطلاع وتأمين الحدود، وذلك تمهيدا للدعوة الإسلامية، وتحرير بلاد الشام، وليتأكد العرب من أن دولة الروم زائلة لا محالة، كما أخبر بذلك القرآن الكريم، وطبقا لما استعرضناه فى الصفحات السابقة. وفى العام الحادى عشر للهجرة، انتقل الرسول ﷺإلى جوار ربه، بعد أن كان قد أعد حملة بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة - وهو ابن زيد بن حارثة الذى قاد حملة مؤته واستشهد فيها - وأمره الرسول ! «أن يوطئالخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين»[٦].

وعمل الخليفة الأول أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - على تحقيق أهداف الرسول ﷺ - إذ بعث أسامة على رأس جيشه إلى شمال بلاد العرب لحرب البيزنطيين، وخرج الخليفة أبو بكر ماشيا لوداع أسامة الذى يقود جيش المسلمين ويوصيه، ويبدو أن غرض الخليفة - وقتذاك - كان استكشاف مدى قدة البيزنطيين فى الشام وكانت تعليماته إلى قائد الحملة الالتزام بتوصيات الرسول ﷺ، وأوصاه: بالضعفاء والنساء والشيوخ خيرا، وحث المسلمين على أن يؤمنوا الناس على أموالهم وأرواحهم، ولايتعرضون لطقوسهم الدينية، لتكون تصرفاتهم قدوة ليعرف البيزنطيون (الروم) جوهر الإسلام، وقيمه، وتقاليده.

وبعد أن انتهى الخليفة من حروب الردة، أعد الجيوش الإسلامية للجهاد فى سبيل الله وتحرير شعوب منطقة الشام الواقعة تحت يد ظلم الروم، وعقد الخليفة الألوية لأشهر قادة المسلمين وهم: أبو عبيدة الجراح، ويزيد بن أبى سفيان، وشرحبيل بن حسنة. وكانت وجهة عمرو بن العاص إلى فلسطين، وكانت وجهة يزيد بن أبى سفيان إلى دمشق، ووجهة شرحبيل بن حسنة إلى وادى الأردن، ووجهة خالد بن الوليد إلى أرض فارس.

وبدأ هرقل فى تجهيز جيوشه لملاقاة المسلمين، واتفقت الآراء على تجميع الجيوش تحت قيادة واحدة، فأعاد الخليفة أبو بكر الصديق القائد خالد بن الوليد من فارس إلى بادية الشام، واجتازها خالد فى خمس ليال عبر فيها الفيافى، والقفار، والهضاب، وأيضا عبر نهرى دجلة والفرات، بطريقة تدل على عبقرية عسكرية فذة، وبالتالى لمعرفة الجيوش الإسلامية وشكل المعارك الكبرى، واستطاع خالد أن يجمع شمل المسلمين بعد دخول المناذرة فى الإسلام ومساعدتهم وانضمامهم لجيوش المسلمين، وأخفى خالدة وفاة أبى بكر الصديق عن جنوده، وخاض معركة اليرموك ضد الشام وانزل بهم هزيمة منكرة، قتل فيها شقيق الإمبراطور هرقل، وتتابعت الفتوحات الإسلامية وفتحت دمشق فى رجب ١٤ هجرية، وفى سنة التالية ١٥ ـ هجرية ـ فتحت حمص.

وعلى الجانب الآخر فى الجنوب، استطاع عمرو بن العاص أن يقضى على جيوش أريطيون ـ وهو القائد البيزنطى لتلك الجهة ـ وذلك فى موقعة أجنادين.

وكان قتالا ضاريا، هرب على إثره القائد أريطيون إلى مصر، وبعد ذلك تم فتح يافا وعسقلان وغزة وغيرها، وهى المنطقة التى كان يرعى عمرو بن العاص بها القوافل التجارية فى شبابه، وأمضى بها شهورا، ورجعت به الذكرى عندما زار مصر أول مرة ورافق الشماس المصرى، وذلك منذ حوالى خمسة وعشرين عاما مضت ـ وهكذا فتحت عمرو بن العاص بيت المقدس فى أواخر عام ١٥ هجرية الموافق ٦٣٦ ميلادية، واستمر عمرو فى ملاحقة فلول

الجيش البيزنطى من خلال تأييد أهل فلسطين، وكان سكان القرى المظلومين المقهورين يستقبلون عمرو ورجاله بأغصان الزيتون، واستولى على كل ما حول فلسطين من تخوم، واستولى على السواحل والمرافئ.

وكان ذلك على إثر حصار بيت المقدس، مما اضطر قائدها أريطيون إلى الاستسلام بعد حصار أربعة أشهر، وفر هاربا إلى مصر ـ كما ذكرنا من قبل ـ وترك بطريرك القدس يفاوض فى الصلح والتسليم بما يصون المعابد والشعائر.

وعلى أن يكون التسليم للخليفة نفسه ـ وكان أبو بكر قد مات وتولى عمر بن الخطاب الخلافة، وجاء بالفعل إلى بيت المقدس، ووقع وثيقة الأمان وعهوده بنفسه، كما سيأتى ذكر ذلك فى الفصل التالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبد الله ـ أمير المؤمنين ـ أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم، ولأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، سيقمها وبريئها، وسائر ملتها، وأنه لاتسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا من شئ من أموالهم. ولا يكرهون على دينهم. ولا يضار أحد منهم. ولا يسكن بإيلياء منهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن) وكان عمرو بن العاص ممن شهد على هذا العهد الذى وقعه أمير المؤمنين، ودخلا معا القدس وزارا معا مزاراتها وكنائسها....

وعندما جاء وقت الصلاة، صلى أمير المؤمنين خارج الكنيسة، ويبدو أن أحد المصاحبين قد أشار عليه بالصلاة داخل الكنيسة، ولكنه لم يشأ أن يصلى داخل الكنيسة، لكى لا تكون صلاته داخل الكنيسة سابقة وسنة يستنها المسلمون ويستخدمون الكنيسة فى الصلاة وتصبح مسجدا فيما بعد، كما جاء ذكر ذلك من قبل.

وهكذا طويت صفحة من صفحات كفاح عمرو بن العاص فى ميادين الحرب والتى أخذ منها دروسا فى الكر والفر، وطوال ستة أعوام تقريبا وخصوصا أمام قيادات بيزنطية مدربة وعلى رأسها القائد أريطيون.

وبدأ عمر فى استرجاع الأحداث والتجارب التى وقعت فى الماضى القريب والمعارك الحربية العديدة فى فلسطين مع قيادات عسكرية محنكة من البيزنطين، كر هنا، وفر هناك، وحصار، وتقدم وتقهقر وتجميع قوات وتوزيعها، ويقينا تنبه - وهو فى فلسطين وعندما كان يفتح تخومها - أن مصدر الخطر الحقيقى على جيوشه وجيوش المسلمين بعد اليرموك سيكون من جهة الغرب وبالقطع مصر، درة الإمبراطورية البيزنطية وتاجها وكركز جيوشها وسلاحها ومزرعتها الرئيسية، وخصوصا أن أريطيون - قائد جيوش فلسطين والشام - قد هرب إلى مصر. وهو بالتأكيد يسعى هناك تنظيم جيوشه وتعبئة قواته فى مصر....

وما من شك فى أن عمرو أدرك أهمية مصر، ومبلغ خطرها على الدولة الإسلامية الناشئة فى فلسطين والشام، وكيف أنها المنطلق الحقيقى للروم، وهم يتواثبون للانتقام واسترداد ملكهم الضائع: ففى مصر توجد المؤن والرجال بغير عدد، ومنها يقطع خط الرجعة على جيوش المسلمين فى فلسطين والشام ويفصل بينهم وبين الحجاز.

بهذا الوعى العسكرى، وتلك البصيرة النافذة، أدرك عمرو بن العاص مالم يصل إليه سواه من معاصريه وأقرانه من القادة الصناديد، ومن ناحية أخرى استدعى عمرو الذكريات السابقة ومخزون الأيام عن مصر،، عندما دخلها منذ أكثر من عشرين عاما مضت - وهو شاب -ا وتذكر

أحوال مصر، ويقينا أحس عمرو أن حالتها أصبحت أسوا وخصوصا بعد احتلال الفرس لها لمدة عشرة أعوام فيما بين عامى ٦٢٠ - ٦٣٠م تقريبا وتم بعد ذلك دخول البيزنطين، ومازالوا مقيمين يسومون المصريين سوء العذاب.

هذا علاوة على ما تردده الألسن عن القادمين من مصر: عن أحوالهم وما يلاقيه المصريون من ذل وهوان. وما زالت بشارة الرسول ﷺ عن فتح مصر: «ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها بالقيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما»... فهاجرزوج النبى إبراهيم وأم النبى إسماعيل جد الرسول

كانت مصرية، وحسبك مارية القبطية التى ولدت للنبى ابنه إبراهيم كانت مصرية أيضا.

وفى قول آخر للرسول - لصحابيه - فى وجود أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لهم صهرا وذمة»

وبذلك كان عمرو فى حياة النبى ٢ - وبعد وفاته موقنا أن المسلمين سيحررون مصر والمصريين من ظلم الإمبراطورية البيزنطية.

كان عمرو بن العاص قائدا مطبوعا متطورا مع ظروف المكان والزمان، فبدأ فى وضع خطة تشمل أيضا المصادر والموارد الاقتصادية والبشرية، وخطوط المواصلات، وأماكن التحرك، وكثافة القتال، وفى ذلك قال النبى ﷺ : «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جندا كثيفا فإنهم خير أجناد الأرض»

ومثل هذا النظرة وحدها - هى التى تجعل مصر فى نظر قائد بالمعنى الحديث، مكمن الخطر الشديد للرسالة الإسلامية ودعوتها، وكذلك سندا وقوة ومنعه، ولاسيما فى الشام، فمصر مفتاح مستعمرات الإمبراطورية البيزنطية فى شمال أفريقيا - وكما يتضح من النظرة السريعة إلى العالم القديم وقتذاك - فهى مكمن الخطر والثأر من الإمبراطورية التى أصبحت كالذئب الجريح الذى يمكن أن يقوم بهجمة تفصل ما بين جيوش العرب فى فلسطين والشام وقواعدهم الرئيسية فى المدينة، ومكة.وهكذا فإن نجاحها سوف يهيئ لها بعد ذلك القضاء على فتوح العرب للشام . ومن الممكن أن يجهز على قلب الدولة العربية نفسها، التى فقدت زهرة رجالها فى تلك البلاد البعيدة.

هذا التخطيط والتصور الموضوعى الواقعى لم يخطر ببال أحد من القواد العرب غير عمرو. وذلك بحكم إدراكه لكافة الظروف الاقتصادية والاجتماعية. بما فيها حالة الشعب المصرى، الذى مازال يرزح تحت الحكم البيزنطى الظالم الجائر، هكذا كان عمرو صاحب فكر استراتيجى بالمعنى الحديث وبأشمل المعانى لهذه الاستراتيجية، وخصوصا أنه سيكون فى معركة

ضد الروم ذات الجيش المدرب المنظم، والذى خاض حروبا مع الفرس فى الشرق ومع الصقالبة والآفار فى الشمال. هذا الجيش الذى ذاع صيته ويتردد خبره على ألسنة الحجاج والرهبان، والعرب المسيحيين فى غسان من أرض الشام وفلسطين، وعلى ألسنة التجار الشوام والعرب الذين كانت حرفتهم الرحيل، أو استقبال الوافدين بتجارتهم، فعلم أن االمصريين لايبغضون شيئا كما يبغضون حكامهم الروم ـ البيزنطيين ـ ولا يتمنون شيئا بقدر ما يتمنون الخلاص من حكم الروم وكيف لا؟ وجنود الروم فى شغل دائم باضطهاد المصريين وسوء معاملتهم وقمع فتنهم وعصيانهم السافر أحيانا، والسلبى أحيانا أخرى، وأنهم لا يأمنون على أنفسهم هناك ولا يتوقعون من المصريين عونا على غاز قد يرون المنقذ المخلص لهم من ظلم واستبداد الروم. وليس أسرع من سريان أخبار حوادث الاضطهاد، أو الفتن، أو التمرد فى الفيافى والصحروات، لأنها فاكهة المجلس وزاد الركب يشوبها الخيال والإضافات من أساطير قديمة وجديدة مثيرة للاهتمام... وبالطبع كانت هذه الأخبار تتناهى إلى أسماع عمرو ومن معه، ولفراسته بفراسة يعرف ما ورائها وخصوصا أنه تجول فى أرجائها، وشرب من نيلها وزار مدينة الاسكندرية، وارتاد حاناتها، وصافح القساوسة والرهبان والشمامسة وجادلهم وتحدث معهم، وعايش هذا المناخ المعقد الملئ بالحقد والكراهية والتعذيب الضارى، وحاجة الشعب لمن يحرره...

وعندئذ نجد أن هرقل كلف قيرس، وسرجيوس ـ بطريرك القسطنطينية ـ بنشر مشروع الاتحاد للتقريب بين مذاهب الأرثوذكس (الملكانية واليعاقبة) بمفهوم أن للمسيح مشيئة واحدة وليس (إرادة واحدة)، ولا يذكرون فيه على الإطلاق ـ مجمع خلقدونية ـ الذى يكرهه المصريون.

وعين هرقل قيرس واليا على مصر وبطريركا للاسكندرية فأبى الباب بنيامين هذا التحريف، وهذا التحديث، وهذه الهرطقة، وأيضا اعترض على تعيين قيرس هذا واليا وبطريركا، والخروج على ماتقلده من أبائه، فأخذ الوالى فى اضطهاده حتى أحسن أن حياته فى خطر، وبالفعل تراءى له ملاك،

يوجهه للهروب كما جاء في الفصل السابق، وقال له، (اهرب أنت ومن معك من هنا لأن، شدائد عظيمة ستنزل عليكم، ولكي تعز فلا يستمر هذا الجهاد سوى عشر سنين) . فكتب منشورا إلى سائر الأساقفة في أقاليم مصر ينصحهم فيه: أن يختفوا من وجه التجربة الآتية عليهم(٧) .

وجمع كهنة الإسكندرية ووصاهم بالسهر على الرعية، ثم خرج من طريق مريوط - وهو سائر على أقدامه ليلا ومعه أثنان من تلاميذه - حتى وصل إلى أسقيط القديس مكاريوس، وكان هذا عقب الخراب الذي دهم هذه البرية من أثر غزو الفرس، فلم يجد فيها إلا نفر قليلا تركهم وانصراف إلى الصعيد، وسكن هناك في بلاد ثيباس واختفى في دير صغير حتى تمت السنين العشر. ومع عصيان البابا بنيامين وكذلك عصيان رعيته الأقباط المصريين ومع اختفائه، تم القبض على شقيقه مينا، وكان رجلا مسيحيا ليس متعصبا، وبدأ الوالي في تعذيبه، وأنزل به الوالي البلايا ليعترف بمكن اختفاء شقيقه البابا، فكان يعذبه بوضع المشاعل المشتعله في جنبه، حتى خرج شحم كليته من جنبه، وسال على الأرض، وخلع أسنانه باللكم لاعترافه بأنه مسيحي وبالأمانة الأرثوذكسية، وكان هرقل قد أوصى جنوده: بأنه إذ قال أحد أن مجمع خلقدونية حق أعفوا وأفرجوا عنه في الحال، ومن قال إنه ضلال قذفوا به في البحر، فنفذوا الأوامر بدقة وملأوا جملة جوالق رملا وطرحوا مينا في البحر وهم يمسكون الجوالقوهم على الشاطئ وقالوا له: قل إن مجمع خلقدونية حق، وسوف نرحمك، فأبى أن يقر بأن مجمع خلقدونية حق، فما كان منهم إلا أن تركوا الحبال وغاصت الجوالق في البحر وكتب وراءها شقيق البابا بنيامين مينا، فإندفع إلى أعماق المياه، فمات شهيدا.(٨)

وتم قتل وتعذيب الآلاف المؤلفة من المصريين الآرثوذوكسيين ممن يحبون باباهم بنيامين في كل أنحاء البلاد، وكل من تستر على اختفائه وهروبه. وهكذا تعلقت قلوب المصريين على اختلاف مذاهبهم بالبابا بنيامين (البابا الثامن والثلاثين) وتعطلت الشعائر في أنحاء مصر حينذاك، ومع اختلاف اللناس في هذا الزمان في مذاهبهم إلا أنهم كانوا متفقين جميعا على طرد

المستعمر بصلواتهم الخفية، ولعلك - عزيزى القارئ - تتفق معى إلى حاجتنا معا لتنشيط ذاكراتنا لأحداث بعينها، ولمتابعة وقائع جاء ذكرها من قبل وضرورة ذلك لظروف العلاقات المتشابكة ولإبراز زوايا الرؤية وتوضيح الجوانب المختلفة وما تلقيه من ظل وظلال. وهكذا كانت فراسة عمرو التى صورت مصر وكأنها أصبحت ثمرة ناضجة على شجرة الإمبراطورية البيزنطية ولا تحتاج إلا إلى هزة من نسمة هواء رقيقة حتى تسقط، وبذلك يكسب الإسلام درة ثمينة تفوق الشام وفلسطين والعراق وتكون بأهلها حماية للدولة الإسلامية. ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن الشعب المصرى كان أكثر شعوب الأرض نصيبا من العذاب والهوان، وكما أن مصر مفتاح لكل أفريقيا، وتقضى فى الوقت نفسه على آخر أمل للرومان فى استرداد مافقدوه. هكذا فقد البيزنطيون بلاد الشام، وأجمل أقاليمهم فى الشرق، ويذكر الطبرى أن هرقل سأل رجلا من الروم كان أسيرا فى أيدى المسلمين ثم هرب، أن يخبره عن حقيقة هؤلاء القوم فقال: (أحدثك كأنك تنظر إليهم، فرسان بالنهار، ورهبان بالليل، لا يأكلون ما بذمتهم إلا بثمن، ولايدخلون إلا بسلام، يقضون على من حاربهم حتى يأتون عليه، فقال هرقل: لئن كنت صدقتنى ليرثن ما تحت قدمى هاتين).

وعرض عمرو على عمر بن الخطاب خطته لتحرير مصر بهذا التصور الشامل الذى استعرضناه فى الصفحات التى طالعناها....

وذلك التصور لم خطر بأبعاده كلها على الأقل - لأمير المؤمنين - ولكنه أدرك رأى القائد المطبوع، ووجهه إلى فتح مصر وتحرير المصريين... بجيش لا يتجاوز أربعة آلاف مقاتل... ووعده أمير المؤمنين بالمدد، إن أحتاج إليه فيما بعد، والشىء بالشئ. يذكر فقد ورد أن عمرو بن العاص ألح على أمير المؤمنين، ودوام الإلحاح وأصر على إقناع أمير المؤمنين بفتح مصر لضعف القوات البيزنطية، وإيمانه بقدرته على فتحها واقتناعه باستجابة المصريين لدخول المسلمين، وتحريرهم من ظلم الروم.... التهوين من أمر تحريرها وفتحها، وأخيرا أقتنع الخليفة عمر بن الخطاب وأذن لعمرو بن العاص بالسير

إلى مصر، وأيا كان ماقيل فى تفاصيل خروج عمرو بجيشه إلى مصر فقد كان من المؤكد أنه بمجرد حصوله على الإذن من الفاروق عمر فى جوف الليل، لم يشعر به أحد وهذا يوضح مدى لهفته على السرير إلى مصر، فهو لا ينتظر بزوغ الشمس، ومن ناحية أخرى أراد الكتمان، وما أسرع انتقال الأخبار بين الناس وخصوصا فى أوقات الحرب، وما أكثر الضالين مع الروم من بقايا صنائعهم وعملائهم وجواسيسهم، وتجارب عمرو كثيرة فى معترك الحروب والتحرك فى ظلمات الليل لكى يحقق ستر الأخبار وفى الليل مفاجأة.

وأول حاضرة قابلت عمرو فى طريقه إلى مصر كانت مرفأة غزة، لذلك وجه إليها من قواده من حاصرها، وفتحها عنوة وقضى على من فيها من جنود روم، ويقال إنه قاد حصارها والهجوم عليها بنفسه. وإستمرت مسيرة عمرو إلى مصر، ولم تطأ أقدامه أرض مصر ليحارب المصريين، بل جاء محررا لهم، ومخلصا إياهم من ظلم وجور وعسف الروم، وفى سبيل ذلك كان عليه أن يقاتل الروم أنفسهم ولملاحقة أريطيون غريمه القائد البيزنطى الذى هرب من أمامه عند فتح القدس. وهذا ما سوف نعرضه فى الفصل التالى، متتبعين حركة جيش المسلمين. وما يهمنا هو إدراك أن عمرو كان يقود جيشه متنقلا بين المواقع ومهاجمه للحصون والقلاع وفاتحا الأقاليم والبلاد على غير نظام محدد، أو نسق واضح، فهو مثلا يترك حصن بابليون عندما طال حصاره، ويبعث السرايا إلى الصعيد موغلا فيه، ولم يكن هذا جهلال بأصول الحرب وقواعدها، ففى تاريخ عمرو ما يؤيد حنكته ودهاءه: فكانت قوات عمرو وخيالته ذات الخيول العربية الأُصيلة الرشيقة الضامرة الخفيفة سريعة الكر والفر وراكبوا الإبل فى سرعتهم واجتياز المناطق الوعرة تقابل قوات بيزنطية بفرسانهم الذين يحملون أثقالا من دروع وخوذات، وأيضا ما تحمله الخيول نفسها من دروع رقائق المعادن والشبكات النحاسية، مما جعلها ثقيلة يصعب معها ملاحقة الفرسان العرب، وفى نفس الوقت: كان سهلا على الفرسان المسلمين ملاحقة الفارين من قوات الروم وفرسانهم الهاربة وخيولهم الشاردة والقضاء عليهم(١).

ويصف الدكتور نظمى لوقا الفرسان العرب وقتذاك بأنهم أشبه فى أيامنا هذه بالسلاح الجوى السريع الذى تعد المفاجأة من أكبر ميزاته وكذلك سرعة الانقاض على غرة، وجيوش الرومان ثقيلة الحركة وأشبه بالقطعان الكبيرة المقيدة بمواضعها - فأدهى ما ترمى به أن تنقض عليها تلك النسور بقين عشية وضحاها على غير توقع.

هوامش الفصل الحادى عشر

(١) حسنين ربيع وتاريخ الدولة البيزنطية ـ دار النهضة العربية (ص٦١) .

(٢) حسنين ربيع المصدر السابق (ص٦٣) .

(٣) د. حسنين ربيع تاريخ الدولة البيزنطية (ص٦٧) .

(٤) القس منسى متى ـ تاريخ الكنيسة القبطية ـ مكتبة المحبة ـ (ص٢٩٠) .

(٥) حسنين ربيع ـ تاريخ الدولة البيزنطية (ص٦٧) .

(٦) حسنين ربيع ـ تاريخ الدولة البيزنطية (ص٦٨) .

(٧) القس منسى متى ـ تاريخ الكنيسة القبطية ـ مكتبة المحبة (ص٣٠٤) .

(٨) القس منسى متى ـ تاريخ الكنيسة القبطية ـ مكتبة المحبة (ص٣٠٤.

(٩) نظمى لوقا.

الجزء الثانى

مصر فى ظلال الوحدة الوطنية

عمرو بن العاص فى مصر

ولما دخل عمرو مصر واستولى على بلبيس وجد بها «أرمانوسة» بنت المقوقس فلم يمسها بأذى، ولم يتعرض لها بشر، بل أرسلها إلى أبيها فى مدينة منف مكرمة الجانب، معززة الخاطر، فعد المقوقس هذه الفعلة جميلا ومكرمة من عمرو وحسبها حسنة له.

القس منسى يوحنا

تاريخ الكنيسة القبطية

عمرو بن العاص فى مصر

هكذا تأهب عمرو بن العاص لدخول مصر بعد استكمال متطلبات الرحيل إليها، واتصال حلقات الخطة وإحكامها لتحقيق المفاجأة للقوات البيزنطية فى مصر.

وخصوصا أن المقوقس كان يمنع الدخول إلى مصر أو الخروج منها، لمنع انتشار أخبار انتصارات المسلمين فى الشام، وهزيمة البيزنطيين.

بعد أن تم فتح القدس، وانتهت مراسم واستقرار الأمور فى الشام وفلسطين، وأثناء مرور الخليفة عمر بن الخطاب على الأمصار والبلاد التى طهرت من البيزنطيين، وتحرر أهلها من نار الظلم والقهر، واعتنق أهلها الإسلام - قدم عمر ابن الخطاب رضى الله عنه إلى الجابية، وهى منطقة فى جنوب فلسطين على تخوم صحراء النقب، قام إليه عمرو بن العاص، وفى اجتماع ضمهما فقط قال: (يا أمير المؤمنين أذن لى أن أسير إلى مصر، مشجعا إياه على فتحها)[١].

وقال له: «إنك إن فتحتها كانت بشعبها قوة للمسلمين وعونا، وهى أكثر الأرض خيرا وأموالا. ألح عليه كما ألح عليه من قبل بأن أهلها يعانون من القهر والظلم، ويبغضون البيزنطيين بظلمهم وجورهم، فدخول الفرس مصر

وخروجهم منها، ودخول الروم مرة ثانية لم يمض عليه عشر سنوات، كل ذلك والمصريون يقاسون من ظلم هؤلاء وأولئك، وهم لذلك تواقون إلى من يرفع الظلم عنهم». وكان عمر بن الخطاب متخوفا فى بادىء الأمر، ولكنه تحت إلحاح عمرو بن العاص بتعظيم أمر مصر وسهولة فتحها، اطمأن عمر بن الخطاب إلى حد ما، وشجع عمرو على دخولها وتحرير أهلها.

وعقد له على أربعة آلاف رجل، ويقال ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل. وقال له: «سر على بركة الله وأنا مستجير بالله فى مسيرك، وسيأتيك كتابى سريعا إن شاء الله تعالى، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها، أو شيئا من أرضها، فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتى كتابى فامض لوجهتك، واستعن بالله، واستنصره». فسار عمرو بن العاص فى جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس.

وفى سكون هذا الليل كانت طلائع جيش المسلمين إلى مصر هم سرايا العرب الغساسنة الذين اعتنقوا الإسلام سرا، ورأى عمرو بن العاص تأجيل إعلان إسلامهم حتى يسهلوا دخول جيش المسلمين إلى داخل الأراضى المصرية، وكانوا فى زيهم ومسوحهم المسيحية، ويحملون صلبانهم لكى يبعدوا الشك عن يقين الجنود البيزنطيين المرابطين على حدود مصر فى المنطقة فيما بين العريش والفرما.

والخليفة عمر من ناحية استخار الله ودعا لهم، فكأنه لحد ما كان متخوفا على المسلمين فى جهتهم هذه، فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين، فأدرك الكتاب عمرو وهو فى رفح، فتخوف عمرو إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف، كما عاهد عمرو، فلم يأخذ الكتاب من الرسول القادم من عند أمير المؤمنين عمر، وأجل استلام الكتاب، وسار كما هو حتى وصل إلى قرية فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها فقيل إنها من مصر، فدعا بالكتاب فقرأه على المرافقين له، وقال لهم عمرو: «ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر». فقالوا: بلى. قال: «فإن أمير المؤمنين عهد إلى وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل مصر، فعلى أن أرجع، وإن لم يلحقنى كتابه

إلا وأنا فى أرض فى مصر فعلى أن أتم السير، فسيروا، وامضوا على بركة الله». ويقال بل كان عمرو بفلسطين فتقدم بأصحابه إلى مصر بغير اذن فكتب فيه إلى عمر (رضى الله عنه) فكتب إليه عمرو وهو دون العريش، فحبس الكتاب فلم يقرأه حتى بلغ العريش، فقرأه فإذا فيه: (من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أما بعد. فإنك إن سرت إلى مصر ومن معك، وبها جموع الروم ومن معك نفر قليل، ولعمرى لو نكل بما سرت بهم فإن لم تكن قد بلغت مصر فارجع...؟) وأيا كانت صحة الرواية فإن عمرو دخل مصر، واستولى فى طريقه على العريش بدون عناء، وفى العريش أدركه النحر - أى أدركه عيد الأضحى المبارك - فضحى عن أصحابه بكبش. وفى هذا المجال يجب أن ننوه أن العريش قريبة من الشام، وأهلها عرب، وهكذا استمر تقدم عمرو على امتداد شاطىء الساحل الشمالى لسيناء، حتى شاهد على مرمى البصر اللون الأخضر، فها هى أراضى الدلتا، حيث الفرع البيلوزى يمتد بذراعه داخل سيناء، وتقدم واستولى عمرو بن العاص على بلوزيوم (وهى حاليا بالوظة) عام ٢٠ هجرية الموافق ٦٤٠ ميلادية، بعد قتال شديد استمر دون أن تصل أية إمدادات بيزنطية، ومن بعد مدينة الفرما. واختلفت الآراء فى فتح مصر فقال محمد بن إسحاق، وأبو معشر ومحمد بن عمر الواقدى، ويزيد بن حبيب، وأبو عمر الكندى - فتحت سنة عشرين هجرية. وقال سيف بن عمر فتحت سنة ستة عشرة. وقيل أيضاً فتحت سنة إحدى وعشرين. وقيل سنة اثنين وعشرين. وأيا كان تاريخ فتح مصر ودخول المسلمين بلوزيوم والفرما فإن الأقباط أهل مصر كانوا أعوانا لعمرو - وهنا يجب أن ننوه أنه كان يطلق على أهل مصر الأقباط (EGEPT) بغض النظر عن الديانة التى يعتنقونها إن كانوا مسيحيين، أو يهود، أو وثنيين، أو مسلمين فيما بعد - ومن ناحية أخرى لم تصل إمدادات بيزنطية إلى المدينة، والتى كانت مقطوعة عن الشمال، لأن القوات البيزنطية قد هربت - كما جاء ذكر ذلك من قبل - وأصبحت الشام كلها بلاد إسلامية، ومن ناحية الغرب من مصر أيضاً لم تصل أى إمدادات عسكرية، لأن المقوقس كان يجهز لسفر ابنته العروس الأميرة أرمانوسة إلى عروسها بالشام الأمير

قسطنطين ابن هرقل - كل هذا من ناحية - ومن ناحية أخرى كان المقوقس يمنع أى تحركات خشية أن تصل أخبار انتصار المسلمين على الجيوش البيزنطية فى الشام، وتهز الروح المعنوية لجيش الاحتلال فى مصر - كما جاء ذكر ذلك من قبل.

وغادر عمرو بن العاص الفرما، حيث ترك فيها حامية صغيرة، ومن ناحية أخرى عبأ قواته بدماء جديدة من المصريين (الأقباط) الذين رغبوا فى الدين الجديد من أهل الفرما، ليحرروا إخوانهم المصريين من نير الاحتلال، وتحرير مصر من الجيش البيزنطى، الذى مايزال يسومهم سوء العذاب، ويكيل لهم الظلم ألوانا.

وكان يعيش فى هذه المنطقة الكثير من العرب الغساسنة على دين النصارى، منهم من يعيش فى الفرما أو تانيس (صان الحجر) بمحافظة الشرقية حاليا، ولا عجب فإن الهجرة كانت مستمرة من بلاد العرب إلى الشام ومصر فى فترات متقطعة من فجر التاريخ.

واستمر تقدم عمرو بن العاص فى اتجاه الجنوب الغربى فى وادى الطميلات موازيا للفرع البيلوزى، وكان ذلك بعد عيد الأضحى والربيع على الأبواب، وكان الفيضان بمياهه الغزيرة الهادرة مازالت الشقة بعيدة على قدومه، فقد كان النيل فى التحاريق، وأفرع النيل - ومنها الفرع البيلوزى بالطبع - مازالت جافة إلا من مياه ضحلة فى مواضع متفرقة فى المجرى.

واستمر تقدم جيش عمرو إلى أن وصل إلى فاقوس (FAKOUZN).

وكانت الدلتا إجمالا فى شبه خراب من جراء الاحتلال الفارسى، الذى استمر فى مصر قرابة عشرة أعوام(٢)، وما تبعها من حروب بين الفرس والروم (البيزنطيين)، حتى استولى البيزنطيون على مصر وطردوا الفرس. خلال هذه الأثناء ترك الفلاحون الأرض وهاموا على وجوههم يطاردهم جنود الاحتلال، وتشرد منهم من تشرد، وذهب إلى الأديرة من ذهب لخدمة الرهبان أو للعيش فى كنفهم أو للرهبنة نفسها. وجاء بعد الاحتلال الفارسى - الاحتلال

البيزنطى مرة ثانية. هكذا كان هناك أكثر من عشرين عاما مضت ما بين قلاقل وحروب وقتال، تحمل أقباط مصر من جراء هذا القتال الكثير من أعمال التخريب والتعذيب، ومن بقى من الفلاحين ولم يهرب قد نالوا ما نالوا من هذا التعذيب والتقتيل؛ لأنهم تعاونوا مع الاحتلال الفارسى؛ ولأن الخلاف المذهبى كان على أشده، وهرب البابا بنيامين ومعه الصفوة من الرهبان خشية التعذيب من جنود وضباط هرقل. وقد استمر هذا طوال العقدين الماضيين، حتى دخول الإسلام مصر.

كانت الحقول جرداء مهجورة بتربتها الجافة العطشى، وأديمها مشقق من فرط الحرارة، مساقيها جافة مهملة، وقنواتها مغطاة بالطمى تكاد تكون مسدودة من عدم الاستخدام، والنباتات البرية فى كل مكان تسد المساقى والقنوات والترع، من جراء هجرة أصحابها وفلاحيها وعدم استقرار أهلها بسبب الحروب المستمرة بين الفرس والروم، والتى استمرت لأكثر من عشرة أعوام على أرض مصر، وما لاقاه الشعب من جراء هذه الحروب التى لا ناقة له فيها ولا بعير... واستمر التقدم إلى الجنوب الغربى لوادى الطميلات بحذاء الفرع البيلوزى، والذى أصبح مغطى بمساحات كبيرة من النباتات المختلفة الشيطانية والبردى وورد النيل، حيث انهارت الجسور من الإهمال، والفلاحون فى حقولهم تكاد لا تحملهم سيقانهم من الضعف والوهن والكسل أيضًا، ووجوههم شاحبة، والأشجار متناثرة، والنيل مهمل وعقيم، والزراعة مبعثرة هنا وهناك كأنها جزر منفصلة، فالزراعة تحتاج إلى انتظام للحياة، مع مواعيد المطر والفيضان، وتحتاج إلى اختيار وانتقاء البذور، وتتطلب الزراعة مواعيد رى منتظمة، فأى تأخير فى مواعيد الرى يكون له تأثير سيىء على الزراعة والمحصول، وفى النهاية فإن الفلاح لا يعمل بهمة ونشاط إلا فى ظروف الأمن والحب والاستقرار والسلام.

وهكذا كانت الحقول خاوية، مهجورة، خالية من الحياة أمام طلائع المسلمين، إلا من فلول القوات البيزنطية، جنود شاردة وضباط هاربين، متنكرين خشية ضبطهم، أو القبض عليهم حتى ينتهوا إلى قلعة يلجأون إليها،

أو برج يحميهم، أو حامية بيزنطية ينضمون إليها هنا أوهناك والشعب يرزح تحت حكم المحتلين، مغلوب على أمره، شعب بائس يائس إلا من انتظار الخير على أيدى العرب المسلمين القادمين إلى هذه الأرض وهذا الشعب لتحريره من الظلم والطغيان والأخذ بيده، خصوصا وأنه قد سمع الكثير عن حسن معاملتهم وكرم أخلاقهم ـ حين ذلك ـ وبساطتهم وتواضعهم، مع شجاعتهم وقوة بأسهم.

وما قاموا به من تحرير بلاد الشام وأراضى فلسطين، وأنهم حافظوا على الكنائس والأديرة، وحرروا الإنسان بداية ونهاية.

وأطلقوا حرية العبادة، ولم يضغطوا على أحد فى اعتناق الإسلام، وأنهم يجلون الرهبان والبطاركة والقساوسة، ويحمون الصوامع والهياكل والصلبان، وعكس ما سبق هو ما كان يعانيه الشعب المصرى من الوالى المقوقس الذى أرهقهم وأذاقهم صنوف العذاب ألوانا؛ ليدفعهم لاعتناق ملة الإمبراطور ويتركون الارثوذكسية المصرية الحقة، وأشاع فيهم العذاب والعسف والقتل. وقضى تعذيبه لشقيق باباهم بنيامين ـ أبشع ما يكون التعذيب وفى النهاية ألقاه فى البحر داخل جوال كما جاء ذكر ذلك من قبل....

واستمرت مسيرة عمرو بن العاص متخذا الفرع البيلوزى على يمينه حتى وصل إلى (بوبسطس) وهى مدينة الزقازيق حاليا... حيث مظاهر الخراب كانت تعم كل البلاد؛ فقد هرب أيضًا الفلاحون من قراهم فرارا من الظلم والضرائب المضاعفة والباهظة ـ إلا مجموعات مشتتة قليلة من الفلاحين المتناثرين فى الحقول، لاتقوى أرجلهم على حملهم من شدة الضعف والهزال. البعض يرفع المياه بالشواديف المهملة المتهالكة من مساحات المياه المتبقية الراكدة الضحلة القليلة المتناثرة فى فرع النيل، وعلى مدى النظر مجموعة من رعاة هاربين، مذعورين، أو يرعون مجموعات قليلة من الضأن أو الماعز، ومجموعة أخرى من الأغنام هائمة، فى رعاية كلب هزيل ينبح، لا يكاد يسمع نباحه، فقد قتل الجنود المستعمرين البيزنطيين الرعاة، وسطوا على باقى القطيع...

وفى الحقيقة كانت الاشتباكات، والقتال الدائر بين المسلمين، وحاميات الجنود البيزنطيين، التى كانت تعترض طريقهم. ولم تكن الحروب والقتال لترغم البيزنطيين على اعتناق الإسلام، ولكنه كان فى الحقيقة قتالا من أجل تحرير مصر والمصريين المطحونين المظلومين، والفقراء وحمايتهم من أجل الحرية، حرية اختيار الدين، وهكذا استمرت المسيرة فى منظومة تضم المسلمين والمسيحيين فى إخاء وحب طيلة أربعة عشر قرنا استمرت بعد ذلك، ولو كان الفتح من أجل فرض الدين الجديد لما بقى على أرض مصر أحد على غير دين الإسلام وقتذاك. فلم يكن عمرو بن العاص ليجبر المصريين على الدين الجديد، وإنما يريد تحريرهم ممن حكم عليهم باتباع دين معين وهو الملكانية، دين الإمبراطور، لكى يختاروا بحرية ما يريدونه، فالحرب لم تكن للإكراه، ولكن للتحرير وللحرية وحماية الضعفاء أصحاب الأرض الحقيقيين.

وهكذا استطاع المسلمون أن يغزوا قلوب (الأقباط) المصريين بشجاعتهم، وهمتهم، وفروسيتهم من جهة، وببساطتهم، ورقتهم، وحسن معاملتهم، وقرب عاداتهم مما هم عليه من عادات، وطرق معيشتهم البسيطة من جهة أخرى. وكان المصريون يتساءلون: ألا تعجبون من هؤلاء القوم المسلمين يتغلبون على جنود الاحتلال الطغاة، وهم - أى المسلمون - قليلو العدد والقوة؟ فيجيب أحدهم أن المسلمين يأتون محررين،فاستطاعوا أن يلمسوا قلوب المصريين وكان يتردد فى كل مكان أن هؤلاء القوم لا يتوهجون إلى أحد إلا ظهروا عليه، أى إلا انتصروا عليه.

وهكذا كانت أخبار المسلمين فى أراضى الشام وفلسطين لتملأ الآفاق فى مصر بانتشار الإسلام بينهم، خصوصا العرب الغساسنة، ومع طلائع الإسلام وراية العدل، وما صاحب عمرو بن العاص من مظاهر المساواة والعدل بعد أن لاقت هذه الشعوب ما لاقت من الاضطهاد البيزنطى، ثم الفارسى، ثم البيزنطى مرة ثانية خلال قرون مضت، منها أكثر من عشرين عاما حروب متتالية أتت على الزرع والضرع، وعلى الأخضر واليابس، مما يجعلهم يدخلون الإسلام بإيمان فطرى ليس له مثيل. وهكذا كانت أخبار هؤلاء الذين

يعتنقون الإسلام يأتي إلى مصر، وتسبق طلائع الحرية والتحرير بدعاية قد تفوق الحقيقة..... تملأ قلوب البيزنطيين بالخوف والرعب من هذا التيار الجارف القادم، وخصوصا أن الشعب المصرى ينتظر المخلص،ويجيء هذا اليوم ستنكسر قيود الظلم والعبودية، ويتم حماية مقدساتهم بعد أن أباح المستعمر كل شيء، فالمبانى مهدمة، والأديرة أصبحت أطلالا، وتظهر آثار الحرائق فى كل مكان، والأسقف المتهالكة، وأعمدة الكنائس والأديرة المهدمة تنتشر فيكل مكان، والأحجار متناثرة على مساحات ممتدة فى كل أرجاء مصر من آثار تدمير الحروب والقتال، وآثار الدماء مازالت على جدران الكنائس والأديرة، وعلامات الحرق الجماعى لجثث الرهبان والقساوسة تدل على وحشية الاستعمار والجثث المتدلية من الأسقف المتهاوية من آثار الشنق، شنق الراهبات والقساوسة الأبرياء الأنقياء.

وهناك مازالت آثار التعذيب والصلب فى كل مكان، وترى على امتداد الصحراء آثار الجماعات الهاربة: من بقايا جثث متناثرة، وهياكل عظمية لهؤلاء الشهداء الأطهار، والطيور الجارحة تتبع هذه القوافل، فكان الشهداء يتساقطون على امتداد مسارات هذه القوافل التى تهرب كل يوم فرادى وجماعات.

ومن ينجح من هؤلاء الهاربين والفارين يلجأ إلى مقابر الفراعنة فى سفوح جبال المقطم، والكثير رحل بعيدا إلى جبال الصعيد إلى: (قنا - بنى سويف - المنيا - أسيوط - سوهاج)، حيث مقابر الحواويش فى أخميم والسلامونى مازالت تشهد على إقامة هؤلاء فى هذه المقابر، فمازالت آثار إقامة هؤلاء الفارين والهاربين النساك تظهر فى أسقف وجدران هذه المقابر، وقد غطت آثار احتراق شموع الإضاءة التى كانت تستخدم بكثرة فى هذه الحقبة التعسة فى تاريخ مصر - لتبدد الظلام الشديد ليلا ونهارا أيضًا، وقد طمست هذه الآثار

الرسوم والنقوش والكتابات الفرعونية الجميلة بألوانها الزاهية. والتى رأيتها بعينى رأسى، فى زيارتى للعديد من المقابر إن كانت فى البر الشرقى للنيل فى الحواويش أو السلامونى أو المقابر العديدة فى البر الغربى.

وفريق آخر كان يلجأ إلى المغارات، وجماعات أخرى كانت تعيش فى كهوف الحيوانات الضارية.

وهكذا أنست الحيوانات الضارية المفترسة[٣]، لهؤلاء الرهبان والقساوسة والبطاركة المصريين المظلومين، وأيضًا أنس هؤلاء البشر لهذه الحيوانات البرية والضارية والمفترسة والتى أصبحت أليفة لهم.

وهكذا كانت تتنامى الأخبار إلى أسماع هؤلاء الرهبان والنساك، والمسيحيين الهاربين عن وصول العرب المسلمين الذين سيخلصونهم من عذاب البيزنطيين. وخصوصا أن كثيرا منهم كانوا مهيئين بعقيدتهم الفطرية المشابهة للإسلام، بوحدانية الله، وخصوصا طبقات عامة الشعب والفلاحين والبسطاء والأميين.

ولنا أن نتصور ما كانت عليه الحياة الاجتماعية فى مصر، والانفصال التام للشعب عن الحكام، إن كانوا من االرومان، أو من الفرس، أو البيزنطيين أيضاً؛ فقد كان الشعب المصرى فى واد والحكام فى واد آخر.....

الشعب بلغته الديموطيقية (المصرية) وديانته وحياته البسيطة وفقره المدقع وتقشفه، والحكام فى الناحية الأخرى بلغتهم الإغريقية - اليونانية - لتحل محل الحروف المصرية القديمة، والمصريون من ناحيتهم - وهم الضعفاء - كان عليهم أن يحتفظوا بمذاهبهم، إن كانت الأُرثوذكسية المصرية - لدى رجال العلم والثقافة والفلسفة، ومن ناحية أخرى كان العوام والبسطاء والفلاحون - كما يبدو لنا - يحتفظون فى صدورهم بالعقيدة المسيحية طبقا لمذهب آريوس وخصوصا أن ذاكرة التاريخ منذ حوالى ثلاثة قرون مضت فى عصر قيصر الشرق قسطنس بن قسطنطين عام ٣٣٧ ميلادية مازالت تتردد أصداؤها هنا وهناك...

خلال هذه العلاقة الفريدة لاقى المصريون ما يفوق طاقة البشر من ذل وظلم وتعذيب، إن كانوا أرثوذكس أوكانوا على مذهب آريوس.

فكانوا يسعون إلى الاستشهاد، وهم سعداء من أجل التخلص من هذا العذاب، ولقاء يسوع مخلصهم للحصول على الإكليل، أو مقابلة وجه الله البارى خالق كل شيء، وأيا كانت دوافعهم فى الاستشهاد فإنهم كانوا يقبلون على الموت بسعادة.

فى هذا الوقت كان الإمبراطور «قسطنطين بن هرقل» قيصر الدولة البيزنطية قد خطب أرمانوسة ابنة المقوقس والى مصر، وكانت الأميرة الجميلة المثقفة فى طريقها بموكبها لتزف إلى عريسها فى الشام تحت قيادة قائد كبير، ليؤمن قافلة ابنته العروس حتى قيسارية، وهى إحدى المدن الكبيرة فى فلسطين، وكانت محاطة بمظاهر العز والأبهة بما يتناسب مع بنت والى مصر المخطوبة إلى ابن القيصر، لتكون فى مأمن من الشرور وبعيدة عن المكاره، وكان عليه أن يحفظ الطريق، ولا يدع أحدا من الروم ولا غيرهم يعبر إلى مصر، ولذا بعث المقوقس رسله إلى أطراف بلاده فى داخل أراضى الشام ليعرفوا الأخبار، وألا يسمحوا ولا يتركوا أحدا يدخل أرض مصر، مخافة أن يتحدثون عن انتصارات المسلمين فى الشام على جحافل القوات البيزنطية فيدخل الرعب فى قلوب جنوده فى مصر.

وما أن وصلت قافلة الأميرة أرمانوسة إلى بلبيس بركابها، ومتاعها، وذهبها، ومجوهراتها، وحرسها وجنودها، وانتظر الركب تأمين الطريق، وراحت تأتيهم الأخبار عن سلامة الطريق وأمنه حتى المحطة التالية فى الفرما أو فى العريش، وبينما راية الإسلام تتقدم جيش المسلمين بقيادة عمرو بن العاص، وأرمانوسة فى معسكرها تحيط بها الخيام فى أبهة الملوك والقياصرة - إذ بقوة حراسة أرمانوسة مكونة من عدة آلاف فارس[٤] تتصدى لجيش المسلمين... وياللغرابة كان عدد المسلمين القادمين لا يتعدى هذا العدد، ويبدو أنهم أثناء قدومهم انضم إليهم الكثير من سكان رفح، والعريش، والفرما، وبوبطس، وبلبيس، وكل البلاد التى حلوا بها؛ مؤيدين ومؤازرين هذا

الجيش القادم ليحرر إخوانهم فى مصر ـ ودار القتال لساعات قليلة قتل فيها ألف جندى من جيش الاستعمار البيزنطى، وأسر ثلاثة آلاف أسير منهم، وانهزم من بقى، وكان لمعاملة عمرو بن العاص لأسراه معاملة إنسانية أكبر الأثر؛ فقد اعلن معظمهم إسلامهم وانضموا إلى صفوف جيش الإسلام ومن أسماء العائلات التى مازالت ذاكرة التاريخ ترددها، اسم العائلة البطريق وهى أكبر عائلة فى منطقة بلبيس اعتنق جدهم الكبير الإسلام وكان بطريقا ـ وهكذا استمر إسم بطريق ملازما لاسمهم رمزا وفخارا على مصريتهم وإسلامهم...، وفر الباقى إلى قلعة بابليون وقصر الشمع فى مصر حيث الوالى، وأضحت الأميرة أرمانوسة، وجميع مالها من مجوهرات، وفاخر ثياب، وعبيد وقيان وجوار ـ فى قبضة عمرو بن العاص، فأحب عمرو ملاطفة المقوقس، وإظهار مشاعر الود نحوه، وخصوصا أنه قد أشيع عنه وعن فطنته وذكائه بعد الرسائل المتبادلة بينه وبين الرسول (عليه الصلاة والسلام)، والهدايا التى أرسلها إليه، فسير ابنته أرمانوسة معززة مكرمة(٥) فى جميع مالها، وكان يرافقها قيس بن أبى العاص السهمى، ودخلت القافلة مصر لحصن بابليون أو مدينة منف مكرمة بكافة مظاهر الود والأبهة فى حراسة المسلمين، فسر والدها بقدومها(٦).

ورحل عمرو بن العاص عن بلبيس إلى أم دنين بالقرب من عين شمس فتقاتل مع الجيش البيزنطى، وكان قتالا شديدا ضاريا، فتباطأ عليه الفتح على غير العادة، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستمده، فأمده بأربعة ألف وقيل أكثر من ذلك، إلى أن وصلت قواته إلى اثنى عشرة ألف مقاتل وصلوا إليه مردفين لا يتبع بعضهم بعضا، كان معظمهم من العرب الغساسنة الذين اعتنقوا الإسلام فى منطقة فلسطين وسيناء وشرق الدلتا، وأيضًا من المصريين الفلاحين، أما الأربعة آلاف المتقدمة وكان على رأسهم أربعة من أتباع عمرو كل منهم معروف بشجاعته ويقدر بألف مقاتل وهم: العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، وقيل الرابع خارجة بن حذافة وليس مسلمة بن مخلد، ولم يكن باستطاعته أن يسيطر على مصر بهذا العدد القليل من المسلمين لولا أن (المصريين) كانوا معه وله فى كل خطوة فى مصر، فكانوا يدعمونه

بالرجال والمال والمئونة والعلوفة... وكان عمرو رجلا محنكا صقلته التجارب خلال أسفاره العديدة إلى الحبشة واليمن وحضر موت وعمان وعسير جنوبا والشام وفلسطين والأردن شمالا، ومجيئه مصر قبل ذلك، ومعيشته مع المصريين ولقاءاته العديدة مع الرهبان فى زيارته السابقة إلى الإسكندرية فى كنائسها وأديرتها ومكتبتها الشهيرة وملاعبها الهائلة - وفى هذه اللقاءات تمتزج خبراته بما فيها من مواهب مع «خبرات» بشرية ومواقف وظروف الأقوام التى قابلها، فقد كان يتعامل بالحسنى وبما يتوافق ويتمشى مع الأحداث التى يقابلها.

ودخل عمرو بن العاص عين شمس ولم يجد أى حامية أوأى قوات عسكرية بيزنطية، اللهم إلا بعض الفلاحين من بقايا أقوام هربت وتركت أراضيها من جراء الظلم والعنت الذى يلاقونه من جنود المستعمرين. ويبدو أن رسالة الأسقف المصرى بنيامين للشعب المصرى من منفاه الذى اختاره - متخفيا فيه خائفا من ظلم وجور الاستعمار وجنوده - يعلمهم بأن دولة الروم زائلة، ويأمر المصريين بلقاء عمرو لأن ملك الروم قد انقطع، ومع دخول المسلمين المدن المهجورة والقرى المصرية الخربة والمهدمة، وبسلوكهم السوى الرحيم، وتأمين المصريين على أنفسهم وعلى أموالهم، وأراضيهم وأملاكهم، ومعاملة الأطفال بالرحمة، وحماية المرأة والشيخ.. لكل هذا استطاع المسلمون أن يلمسوا قلوب الفلاحين المصريين، ويقتربوا منهم؛ فالعادات قريبة، وطرق الحياة والمعيشة بسيطة بالتقشف؛ وفوق كل هذا فإن عقيدة. الكثير من المصريين - الفقراء والفلاحين الذين يعتنقون عقيدة الفطرة - هى عقيدة التوحيد، وهكذا كانت عقيدة غالبية البسطاء هى فى جوهرها ومضمونها عقيدة الإسلام. هكذا استطاع المصريون فى وقت قصير أن يتعاطفوا مع بعضهم البعض، وينضم المصريون المسيحيون إلى المسلمين. وفى نفس هذا الوقت أرسل عمرو قوات أخرى بقيادة أبرهة بن الصياح إلى الفرما؛ لأن عمرو علم أن فلول الجيش البيزنطى استطاعت التحصن بها، ومع ذلك استطاعت قوات المسلمين أن تهزم سرايا الجيش البيزنطى، وتشتت شملهم، وأن تستولى على الفرما مرة

أخرى، وصالحه أهلها على خمسمائة دينار هرقلية، وأربعمائة ناقة، وألف رأس من الغنم.

ورحل عنهم أبرهة بعد أن اعتنق الإسلام العديد من شباب وسكان الفرما والمناطق المتاخمة لها مثل تانيس فى شمال الشرقية، وانضموا وانتظموا فى جيش المسلمين، ورحل إلى البقارة، وأمن المصريون على أرواحهم وأموالهم ومساكنهم ومزارعهم وحقولهم.

وهكذا بدأت تنشط حركة القوافل، وبدأت رحلات الشتاء والصيف تنشط بين الثغور مرة أخرى بعد انقطاع حركتها؛ بسبب كثرة قطاع الطرق والحروب المستمرة، وأيضاً كانت مباحة للمقاتلين فيما بين الروم والفرس - وبذلك زادت قوات المسلمين وقدمت إلى حصن بابليون حيث قصر الشمع والوالى كيرس «المقوقس» معتصما به بعد وصول ابنته الأميرة أرمانوسة فى كامل أبهتها وحشمها وخدمها وعبيدها.. فكان كيرس فى حيرة من أمر هؤلاء القوم الذين أرسلوا إليه ابنته مكرمة، ولم يسبوها، ولم يخدشوا حياءها، فقد كان من الممكن اعتبارها وجواريها سبايا وأخذ حراسها عبيدا، والاستيلاء على مجوهراتها وذهبها وكل متاعها - كما جاء ذكر ذلك من قبل.. فكان سلوكهم سلوكا حضاريا إنسانيا بكل المقاييس. ومع تقدم قوات عمرو بدأت قوات الحصن بقيادة أحد قواد الروم - واسمه بن قرقت - وكان قد كلفه كيرس أن يقوم بالدفاع عن الحصن، فبدأ فى تنظيم قواته ووضع الحراسات على الأبراج والأسوار وخلف المزاغل ورأى القبط من سيرة المسلمين العرب فى الشهور الماضية التى دخلوا فيها مصر، ووصلوا إلى بابليون وكل الأقاليم التى حرروها وأصبحت تحت سيطرتهم - رأوهم لا يتقاضون من أحد غير الضرائب المناسبة والجزية المعقولة، وتلك فى نظرهم دلالة على السماحة وعدم المغالاة، وما كانوا ليتمنوا أفضل من ذلك.... فلا مانع أن يأخذ الحاكم الجديد الذى حررهم من ظلم الحاكم القديم - ما كان يتقاضاه الحاكم القديم من جزية أو ضرائب، ويكفيهم أن الاستقرار أصبح يرفرف على كل أرجاء البلاد، وأصبح السكان ينعمون بالأمان والاستقرار والسكينة، وانتظمت قوافل التجارة.. وبدأ عمرو فى بناء مسجده

المشهور فى وسط الفسطاط ـ عند مصر القديمة حاليا ـ وجمع من الأحجار المتناثرة فى الصحراء المتاخمة لحصن بابليون وقصر الشمع، ومن آثار التخريب والهدم للكنائس والأديرة المهدمة، وكانت هذه الأعمدة والأحجار هى الأساس لمسجد عمرو بن العاص الأصلى، وكان البناءون متطوعين من الأقباط الذين أسلموا، وأيضاً ممن لم يسلموا، والكثير منهم ساعدوا المسلمين العرب فى وضع صرح أول مدرسة إسلامية فى مصر بعد أن حقق عمرو بن العاص انتصارات فى شرق الدلتا ومدخل مصر الشرقى.. حتى عين شمس وأم دنين، وعندما تقدمت القوات العربية الإسلامية على حصن بابليون، حينئذ عزم عمرو على فتح الإسكندرية ـ إذ كانت الإسكندرية وقتذاك هى عاصمة لولاية مصر ـ فقد كان يسكنها أكبر تجمع للجالية البيزنطية واليهود، لذلك كانت تعتبر وكأنها جزء منفصل عن مصر، ولذلك كان أهلها وسكانها يعاملون كأنهم من أهل وسكان الدولة البيزنطية نفسها، وتحول ضحايا جيشه وحركته إلى شبل ممزقة لاحول لها ولا قوة(٨).

ويبدو أنه مما زاد من اطمئنان عمرو تجاوب المصريين معه، وبالفعل أعطى عمرو بن العاص الأمر للتحرك من عين شمس، موقع تحرك قواته إلى الإسكندرية، وكان المصريون على امتداد الطريق إلى الإسكندرية من سكان القرى والبلاد، وحتى تخوم الإسكندرية ـ يقابلون القوات الإسلامية المدعومة بسرايا من المصريين (الأقباط) الذين أسلموا لله طائعين فرحين بكل الحب والتقدير وكذلك والذين بقوا على دينهم.. فى حرية لم يروا لها مثيل من قبل، وكانوا يقدمون له المساعدات وكل العون، ويمهدون له الطرق ويهدونه إلى الطرق المناسبة والمعبدة، إلى جانب ذلك فقد كانوا ـ أى المصريين (الأقباط) ـ ينظرون إلى هؤلاء المحررين الجدد نظرة إعجاب. فقد كانت أخبارهم تسبقهم بأنهم أهل مروءة وشهامة، وشجاعة ووفاء، ومن ناحية أخرى بدأت القوات البيزنطية فى الإسكندرية تتأهب لمقابلة هذا الزحف القادم إليها من الجنوب، وأخيرا وصلت القوات الإسلامية، وحاصرت المدينة واستمر الحصار ثلاثة شهور لم تنقطع خلالها المفاوضات بين أهل المدينة وكان فيهم المقوقس،

وكانت المراسلات متصلة متوالية بين المسلمين وعمرو بن العاص هناك في الفسطاط وأسفرت المكاتبات عن وعد منه لأهالي الإسكندرية بتأمينهم وتأمين كنائسهم وأديرتهم، وتأمين الرهبان الهاربين ليعودوا بعد هروب استمر لأكثر من عشر سنوات مضت.... تقديرا لباباهم بنيامين البابا السابع والثلاثين، وكذلك سمح لهم ببناء الكنائس والأديرة التي هدمت.. وكانت أطلال الكنائس حول الإسكندرية وأحجارها متناثرة على امتداد صحراء الإسكندرية، وكذلك أعمدة الكنائس مترامية في مساحات حول أطلال الأديرة والكنائس... وتم التصالح على أن يبقى المصريون (الأقباط) في المدينة، يتعاونون مع المسلمين، وإن كان معظم البيزنطيين قد طلبوا الرحيل، فرحل من رحل وبقي من بقي. وهناك على الجانب الآخر من شاطيء البحر المتوسط، وصلت أخبار هذا الاتفاق إلى هرقل، والذي أعلن غضبه على والي مصر المقوقس، بسبب تخاذله وموقفه السلبي الذي لم يتصدى للعرب المسلمين، بل إنهم يتعاونون مع المسلمين، بعلمه وموافقته، بل يقدمون المال والرجال والمعونة، وهناك الكثير منهم من المصريين (الأقباط) ممن اعتنق الإسلام.. هنا أو هناك، بل إن بعض البيزنطيين قد اعتنق الإسلام أيضاً...ولذلك اشتد حنق وغيظ هرقل وغضبه، وبدأ في شحذ همم البيزنطيين واستنفارهم، وقدمت عليهم مواكب من القسطنطينية ومن سائر أمصار الدولة البيزنطية، وعليها جمع عظيم من الجنود بالعدد والعتاد، وبدأت بعض القوات بالفعل في الوصول إلى الإسكندرية، وأغلقوا الأبواب التي تقع في السور الجنوبي في مواجهة القوات الإسلامية.

وهكذا استعدت القوات الإسلامية للقتال، وفي نفس الوقت بدأت المفاوضات تأخذ دورها مرة ثانية، ثم عزم عمرو بن العاص على التحرك بنفسه من حصن بابليون على رأس جيش إلى الإسكندرية ومعه جماعة من رؤساء القبط (المصريين) وقد أصلحوا للقوات المتقدمة المسلمة - الطريق، وأقاموا لهم الجسور والأسوار، وصاروا لهم أعوان إذا ما أرادوا قتال البيزنطيين، وسمعت بذلك الروم فازداد غيظهم، وفي الطريق إلى الإسكندرية سلك عمرو الطريق غرب الفرع الكانوبي (فرع رشيد) على حافة الصحراء، فلم تقابله أي قوات بيزنطية حتى

بلغ مريوط فلقى فيها طائفة من قوات الاحتلال، فقاتلهم قتالا خفيفا فهزمهم، ومضى[٩] عمرو ومن معه حتى لقى جمع الروم بكوم شريك جنوب الإسكندرية، فاقتتلوا ثلاثة أيام... وتم فتح الله على المسلمين وولى جيش الاحتلال الأدبار، ويقال بل أرسل عمرو بن العاص شريك بن سمى فى إثرهم، فأدركهم عند الكوم الذى سمى باسمه (كوم بن شريك) فهزمهم. وفى نفس الوقت تحرج موقف عمرو بمريوط، فألجأوه إلى الكوم، فاعتصم به، وأحاطت به الروم، فلما رأى ذلك شريك بن سمى أمر «أبا ناعمة الصدفى» وهو أحد القواد المسلمين والفرسان المغاوير الذى كان لا يجارى فى سرعته، فانحط عليهم كالسيل مع سرب من المسلمين بسرعة، مقاتلين بسيوفهم ورماحهم، ولاحقه البيزنطيون فلم يدركوه لسرعة فرسه وخفة حركتها؛ إذ لا تثقلها دروع خيول البيزنطيين، وهكذا كانت فرسان المسلمين سريعة خفيفة تنقض على القوات البيزنطية الثقيلة ذات الدروع المحملة بالأثقال فكانت الغلبة دائما للسريع الخفيف الشجاع ذى القلب الثابت، والروح التواقة للاستشهاد[١٠].

وهكذا انفرط عقد البيزنطيين مع وصول شريك إلى عمرو، أخبره بماحدث، وعلى إثر ذلك بدأ عمرو فى مهاجمة هذا الحشد من البيزنطيين، فتقهقروا إلى ناحية الإسكندرية، وفى سلطيس - وهى ضاحية جنوب الإسكندرية لاحق المسلمون فلول البيزنطيين، واقتتلوا قتالا شديدا فى موقعة شرسة، وهزموهم، وتقدم المسلمون فى اتجاه الإسكندرية بقيادة عبد الله بن عمرو بن العاص وعند الكيريون (ضاحية فيما بين سلطيس والإسكندرية) جنوب الأسوار، وكانت موقعة أخرى أشد ضراوة، استمرت حوالى أسبوعين، أبلى فيها عبد الله بن عمرو بلاء حسنا هو والذين معه، وأصيب عدة إصابات وتحامل على نفسه وواصل القتال... وكان من أبرز المقاتلين فى هذه الموقعة وردان مولى عمرو بن العاص.

واستمرت ملاحقة المسلمين لفلول الجيش البيزنطى، وهكذا كانت قوات الفرسان المسلمين أشبه فى أيامنا هذه بالسلاح الجوى السريع الذى يكون أعظم ما يتصف به، وما يميزه عنصر المفاجأة وسرعة الانقضاض على غرة.

وفى المقابل كانت جيوش الاحتلال البيزنطية ثقيلة الحركة، أشبه بالقطعان الكبيرة المقيدة بمواقعها، فأدهى ما ترمى به أن تنقض عليها تلك النسور بين عشية وضحاها على غير ما توقع، وهنا نتذكر (دائما على غير ما توقع) هذه للتنبيه بأهميتها، فلو أن عمرو بن العاص اتبع فى قتاله بفرسانه وسائر جنوده خطة تقليدية لأمكن لأى إنسان أن يتوقع خطواتها فى كل موقعة، وهذا سيفقد خطط عمرو بن العاص وقواته ميزاتها، والتى توفرها لها سرعة الحركة، والهجوم المفاجىء، وأتاح لقوات الاحتلال البيزنطية التجمع سلفا لملاقاة قوات المسلمين.

وهكذا بالفعل وصلت قوات بيزنطية إلى الإسكندرية قادمة من البحر واعتصموا بأسوارها، وأغلقوا الأبواب بالأسرار الجنوبية، وتحصنوا بأبراجها، وبدأت المفاوضات للمرة الثانية، وتقابل المقوقس مع عمرو بن العاص خارج الأسوار وقال المقوقس لعمرو ضمن ما قال: أسألك ثلاثة أمور. فقال له عمرو ما هى هذه الأمور؟

قال: أولا: لا تبذل للروم مثل ما بذلت لى؛ فإنى قد نصحت لهم فاستغشونى.

ثانيا: لا تنقض عهد المصريين (القبط) فإن النقض لم يأت من قبلهم.

ثالثا: أن تأمر بى إذا مت فادفنى فى بخنس.

فقال له عمرو هذه أهونهن وأيسرهن علينا[١١].

وهكذا كان البيزنطيون ينقضون عهودهم مع المسلمين، ويزجون بالمصريين القبط فى هذه المواقف. ولا نملك فى هذا الصدد إلا أن نقول إن المقوقس كان على علاقة ود واحترام مع عمرو بن العاص، فقصة تكريم عمرو لابنة المقوقس أرمانوسة، وإرسالها إليه معززة مكرمة، فى أموالها وخدمها، وحراسها، وفى كامل أبهتها - إلى بابليون بعد أن كان من حقه - بمفهوم ذلك العصر - أن يأخذها أسيرة هى وحراسها وخدمها وعبيدها.

هكذا استطاع عمرو أن يستحوذ على قلب المقوقس والى مصر.

وهكذا كانت هذه الحادثة حديث الناس فى كل أنحاء مصر، ويبدو أن هذه القصة قد ترامت إلى أسماع كافة أنحاء الإمبراطورية البيزنطية حينذاك، ومن ناحية أخرى فإن الشعب المصرى (القبطى) كان يكره المقوقس؛ لأنه لم يكن مصريا، بل كان واليا معينا من قبل هرقل ليكون واليا وبابا لكل المصريين بدلا من البابا الثامن والثلاثين (بنيامين)، الذى هرب من ظلم الاحتلال البيزنطى منذ حوالى عشرة أعوام، وكان مازال متخفيا هو والآلاف من الرهبان فى فيافى وصحراوات مصر...

واستمر حصار المسلمين للإسكندرية وكان على رأس الحصار عمرو بن العاص، وكان يعاونهم فى هذا الحصار المصريون (الأقباط) - من اعتنق الإسلام ومن بقى مسيحيا - بالرجال والمؤونة، وبكل ما يحتاجونه من علوفة للخيل. وهكذا كانت قوات المسلمين تتعاظم قوتها يوما بعد يوم عددا وعدة من الفلاحين البسطاء ومن العوام الأميين الأقباط، فبعد دخول عمرو بن العاص مصر كانت قواته لا تتعدى الأربعة آلاف مقاتل.. وفى أثناء القتال الدائر، وأثناء تقدمهم من بلوزييم والفرما وبويسطس وبلبيس استشهد منهم من استشهد، وكذلك فى أم دنين وعين شمس، وأثناء حصار حصن بابليون(١٢).

ومن البديهى والطبيعى كان تعويض هؤلاء الشهداء يتم من هؤلاء المصريين (الأقباط) الذين انتظموا فى صفوف المسلمين، وهؤلاء المصريون من ناحيتهم لم يبخلوا بأرواحهم فى استشهاد، فهم أهل لذلك. صحيح أن العدد جاء إلى عمرو أثناء موقعة أم دنين بأربعة آلاف مقاتل على رأسهم أربعة قواد كل منهم يعادل ألف مقاتل هم: الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة ومسلمة بن مخلد، وقيل خارجة بن الصامت - كما جاء ذكر ذلك من قبل - إلا وأن العبء ثقيل، ومازال المدد يأتى إلى الإسكندرية لتدعيم جيش الاحتلال، إلا أن الظروف حينذاك والمناخ الشعبى كان يؤكد أن المسئولية الوطنية والعبء الأساسى فى تحرير مصر من جيوش الاحتلال البيزنطى - كانت تقع على عاتق المصريين الأقباط، فهؤلاء كانوا لحمة الجيش الذى زحف إلى أفريقيا. وصحيح أن قيادة الجيش كانت معقودة للعرب؛ لأنهم خبروا وعرفوا أساليب

الحرب خلال عشرة أعوام مضت منذ بدر وأحد، ومن ناحية أخرى فإن المصريين (الأقباط) وهم المسلمين الجدد لم يكن لهم دراية بوضع الخطط وإدارة المعارك وقيادةالسرايا إلا فى أضيق الحدود؛ فإن المصريين كانت مسئوليتهم هى الزراعة والحرف،لكن جنود الاحتلال كان عليهم هم فقط الحرب والدفاع عن البلاد... وأخيرا تحرر االمصريون وأصبحوا يحاربون المستعمر المحتل البيزنطى - بجوار وجنبا لجنب مع هؤلاء القادمين الجدد من أجل تحرير وطنهم....

وهكذا تحققت نبوءة الرسول (عليه الصلاة والسلام) (إنهم خير أجناد الأرض)... وكان منهم لحمة الجيش الذى زحف إلى أفريقيا بقيادة عمرو بن العاص، فيما بعد...

وقد استمر حصار المسلمين للإسكندرية حوالى شهرين، وفى هذه الأثناء كان المدد يأتى إلى الإسكندرية عن طريق البحر بالرجال والمؤن والعلوفة (طعام الخيل)، ونظموا صفوفهم داخل المدينة. وفجأة انقض البيزنطيون بخيولهم على المسلمين من ناحية البحيرة مستترين بالحصن... وتواصل القتال، واستشهد الكثير من المسلمين، وفى المقابل قتل العدد الأكبر من البيزنطيين، وكان المصريون (الأقباط) فى وسط هذا الخضم ينضمون إلى صفوف المسلمين، واستشهد منهم الكثير - منهم من كان مسيحيا، ومنهم من اعتنق الإسلام.

هذا وكان المدد مازال ينهال على الإسكندرية، ورسل الإمبراطور هرقل تتردد على المدينة من البحر لتستطلع الأخبار، وكان هرقل يرى أن فى انتصار المسلمين على جيوشه فى الإسكندرية وسقوطها فى أيديهم نهاية للبيزنطيين ليس فى مصر فقط، بل فى كل العالم..... فقد كانت كنائس البيزنطيين فى الإسكندرية أعظم كنائس لهم - وهذه الكنائس كما نعرف تابعة لكنيسة القسطنطينية مركز المذهب الملكانى الذى يختلف عن مذهب المصريين (الطبيعة الواحدة) - ومن الناحية الاقتصادية كانت مصر مزرعة الإمبراطورية

التى تمدهم بالقمح والكروم، علاوة على شتى أنواع البقول والخضراوات والفواكه، فكانت تمثل الظهير الاقتصادى للدولة البيزنطية.

وبدأ هرقل يجهز جيشا لمهاجمة الإسكندرية مرة ثانية لاستعادتها ولكنه توفى فى هذه الأثناء، واستمر الهجوم والقتال بين القوتين إلى أن انهزم البيزنطيون تماما، وكان ذلك فى غضون العام العشرين من الهجرة. لم تكن الإسكندرية تهون على الرومان؛ إذ كانوا يعتبرونها جزء لا يتجزأ من الدولةالبيزنطية، فحشدوا لها الحشود لكى تبقى فى أيديهم، إلا أن المصريين (القبط) كانوا يقدمون للمسلمين العون والمساعدة فى القتال، بل كانوا يبذلون أرواحهم من أجل التخلص من المستعمرين الرومان، فأيام التعذيب وعصور الاستشهاد ليست بعيدة، فمازالت ذاكرة المصريين تجتر هذه الأيام السوداء - الحالكة الظلام - هكذا تعود المصريون على التضحية والفداء والاستشهاد، وها هى الفرصة جاءت لهؤلاء الشجعان ليبذلوا النفس والنفيس، واستمر القتال فى الإسكندرية شهرا، والحصار للمدينة الكبيرة مازال مستمرا، ومن الطبيعى أن المصريين كانوا يتمنون هذا اليوم.

فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) قال ما أبطأهم، وكتب إلى عمرو بن العاص: «أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ سنين، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، فإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة رجال وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكونوا غيرهم. وإذا أتاك كتابى هذا فاخطب فى الناس وحضهم على قتال غيرهم،ورغبهم فى الصبر وصدق النية لله رب العالمين، وقدم هؤلاء الأربعة فى صدور الناس، وامر الناس جميعا أن يكونوا لهم قبضة واحدة كقبضة رجل واحد، ولكن ذلك يكون عند الزوال من يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة، ووقت للإجابة، فليخرج الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم». فلما أتى عمرو بن العاص الكتاب جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس أن يتطهروا،

ويصلوا ركعتين ثم يدعو الله تعالى، ويسألوه النصر، ففعلوا، ففتح الله عليهم. ويقال إن عمرو بن العاص استشار مسلمة فقال: «أشر فى قتال هؤلاء. فقال له مسلمة: أن تنظر إلى رجل له معرفة بالحرب، من الصحابة، فتعقد له على الناس فيكون هو الذى يباشر القتال ويكفيك. فقال عمرو بن العاص: من يكون هذا الرجل؟ قال: عبادة بالصامت. فدعاه عمرو فأتاه وهو راكب على فرسه فلما دنا منه، أراد النزول فقال له عمرو: عزمت عليك ألا تنزل، ناولنى سنان رمحك. فناوله إياه فنزع عمامته عن رأسه وعقد له، وولاه قتال الروم، فتقدم عبادة مكانه، فصادف الروم وقاتلهم، ففتح الله عليه الإسكندرية من يومهم هذا، وبعد أن تم للعرب فتح مصر بمعاهدة الإسكندرية فى شوال عام ٢١ هجرية الموافق سبتمبر ٦٤٢م اتجه عمرو بن العاص إلى ليبيا واستولى على برقة فى عام ٢٢ هجرية - أوائل عام ٦٤٣) وكان حصار الإسكندرية بعد موت هرقل.

وفى فبراير عام ٦٤١م تولى قسطنطين الثانى وهو الإمبراطور - أشهر قليلة، وفى قول خمسة أشهر، وفى قول آخر سبعة أشهر.

ولكن المؤكد أن فتح الإسكندرية كان يوم الجمعة أول محرم سنة ٢١ هجرية، وبعد هذا الفتح المبين تزاحمت جحافل الجيوش البيزنطية منكسرة تحمل ما خف حمله وغلا ثمنه إلى أساطيلها - هاربة، بعضهم هرب إلى البحر فى الاتجاهات المختلفة، وبعضهم إلى الصحراء والمستنقعات جنوب الإسكندرية، أو إلى حقول الكروم، والبعض إلى الغرب حيث ليبيا. ومضى عمرو بن العاص ومن معه فى طلب من هرب من هؤلاء الجند، وخلف بعض الرجال من أصحابه فى الإسكندرية من عرب ومصريين من معاونيه، وفى أثناء غيبته عاد الرومان الذين هربوا إلى البحر، وفاجأوا من كان فى المدينة من المسلمين والمصريين الأقباط، وكان معظمهم ممن ينشدون الراحة والاستشفاء من جروح ألمت بهم، ومن جراء القتال المستمر والمبارزة الدائمة فى الأشهر الماضية - قام البيزنطيون بقتلهم فى كل مكان وجدوهم فيه على حين غرة، ولما علم عمرو بذلك رجع إلى الإسكندرية وقضى على من بقى

من جنود البيزنطيين، واستطاع أن يسيطر على مدينة الإسكندرية بماله من حنكة فى القتال، وفراسة جعلته يعلم ميزات جيشه ومواطن الضعف فيه. وهكذا أربكت هجماته المفاجئة العدو وشلت حركته، وأرسل إلى عمر بن الخطاب يهنؤه بفتح الإسكندرية.

وقبل أن يفرغ عمرو بن العاص من تحرير الإسكندرية، بدأ يستعد لصد هجوم آخر وشيك، فعلى بعد مائتى كيلو متر شرقا من الإسكندرية أى مدينة دمياط - وهى المدينة الرئيسية بعد الإسكندرية - وكان والى دمياط حينذاك هو أحد أخوال المقوقس وكان يسمى أو يكنى «الهاموك»، حينما علم بقدوم المسلمين إلى مصر ومساعدة المصريين (القبط) لهم، بدأ الهاموك فى الاستعداد للحرب، فبدأ بتحصين المدينة وأمر بتخزين الطعام والعلوفة والذخيرة والسلاح، وتحركت كتيبة من المصريين بقيادة المقداد بن الأسود يعاونهم العديد من المصريين القبط ليسهلوا لهم العبور والوصول إلى دمياط من أسهل طريق، فقابلهم الهاموك، وهم فى الطريق إليه، وبدأ الاشتباك بين قوات البيزنطيين والمسلمين واستمر القتال والمبارة، فقتل ولد الهاموك فى هذه الموقعة فى جنوب مدينة دمياط، وبعد موت ابنه، لملم الهاموك قواته الممزقة ورجع إلى دمياط، وأعاد ترتيب قواته، وضاعف من تحصيناته للمدينة.

وبدأ فى تجميع أصحابه لاستشارتهم فى أمر الحرب، وما لاقاه فى الموقعة جنوب المدينة... وكان ضمن مجلس الحكماء هذا، حكيما عاقلا يبدو أنه كان متعاطفا مع المسلمين، أو لعله كان من معتنقى مذهب آريوس، ذلك المذهب الذى كان منتشرا فى القرن الرابع الميلادى، ومازالت أفكاره البسيطة تعيش فى صدور بعض المصريين البسطاء، وأخيرا وجد فى الإسلام ضالته، وقال له: «أيها الوالى العظيم إن جواهر العقل لا قيمة له[١٣]، وما استغنى به أحد إلا هداه إلى سبيل الفوز والنجاة من الهلاك، وهؤلاء العرب المسلمون منذ بدأ أمرهم لم ترد لهم راية، وقد فتحوا البلاد وأذلوا العباد، وما لأحد عليهم مقدرة، ولسنا بأشد من جيوش الشام، ولا أعز ولا أمنع، وإن القوم قد أيدوا بالنصر والظفر. ويبدو أنه ذكره بتعاطف المصريين (القبط) مع هؤلاء المسلمين فى

كل مكان تطأه أقدامهم، وكذلك ما شاع عن تواضعهم وبساطتهم وعدلهم، ورفع الظلم عن المظلومين الذين لاقوا الظلم على أيدى المستعمرين طيلة ستة قرون مضت، بأنواع مختلفة من الظلم والقهر، منها ثلاثة قرون وهم يعبدون الله تحت الأرض على دين غير دين الملك الوثنى، ثم ثلاثة قرون بعد اعتناق الإمبراطور للمسيحية فهم مازالوا على خلاف، وهم على مذاهب مختلفة عن مذاهب الامبراطورية، وبعد ذلك للمرة الثالثة جاء الفرس وسيطروا عليهم وقهروهم لمدة عشرة أعوام، لاقوافيها ما لاقوا من استخفاف بدينهم، وأثقلوا كاهلهم بالضرائب والإتاوات، وبعد ذلك جاء هؤلاء الروم البيزنطيين ومازالوا يتحكمون فى االعباد وينكلون بهم، وشرح ضمن ما شرح هذا الحكيم للهاموك سر اندفاع الكثير من المصريين (القبط) إلى اعتناق هذا الدين الجديد، وأنهى هذا الحكيم مشورته بأن الرأى (أن يعقد مع القوم صلحا ننال به الأمن وحقن الدماء، وصيانة الحرم، فما أنت بأكثر رجال من المقوقس) فلم يعبأ الهاموك بقوله، وغضب منه وقتله، مما أثار العديد من أهل دمياط، ضد الهاموك، وكان على رأس هؤلاء عائلته زوجته وأبناءه وكان لهذا الحكيم ابن شاب أثر هذا الاغتيال فى نفسه، وعلى ما يبدو أن هذا الشاب كان على مذهب يخالف مذهب والده وممن يكتمون ما يعتنقونه فى صدورهم وكانت دار هذا الشاب ابن هذا الحكيم ملاصقة لسور المدينة، وبالفعل بدأ يتعاطف مع المسلمين، فخرج من فتحة فى السور، أحدثها، أثناء الليل وقابل المسلمين، وبالطبع طلب مقابلة قائدهم، وبالفعل سهل المسلمون لهذا الشاب مقابلة القائد وهو المقداد بن الأسود، وأخبره بتحالفه ومعظم أهل دمياط من المصريين (القبط) مع المسلمين، ودله على أسرار البلد والمناطق غير الحصينة، فاستولى المسلمون على دمياط، وتمكنوا منها، وبرز الهاموك للحرب فى صباح اليوم التالى مع الخيوط الأولى للشمس، استيقظ أهل دمياط على المسلمين وهم يكبرون على سور المدينة، وقد ملكوه، فعندما رأى شطا بن الهاموك والى دمياط - وكان شابا سويا - المسلمين فوق السور لحق بهم فى جمع غفير فى ألفين من أصحابه من شباب مدينة دمياط، وقد أعلنوا إسلامهم جميعا، وانضموا إلى صفوف

المسلمين يسعون إلى نشر الإسلام، ففت ذلك فى عضد أبيه، وأمن جانب المقداد، فتسلم المسلمون دمياط،واستخلف المقداد عليها، وسير بخبر الفتح إلى عمرو بن العاص. ومن دمياط بدأت انطلاقة الإسلام إلى شمال الدلتا، وكان يحمل هذه الشعلة الفتى المصرى الفارس شطا بن الهاموك، والذى امتلأ قلبه بالايمان، فبدأ ينضم إليه أهل البرلس والدميرة وشموم وطناح، وحشد أهل تلك النواحى وكل مناطق شمال الدلتا، وقدم بهم مددا للمسلمين وعونا لهم على عدوهم من الجيش البيزنطى، ومال إلى الإسلام لما سمعه من سيرة أهله المسلمين منذ قدومهم إلى أرض مصر، فبدأ الشعب المصرى فى وسط الدلتا يتحولون إلى الدين الجديد عن قناعة لما لا قوه من صنوف العذاب والاضطهاد لسنين مضت، أكثر من عشرة قرن من الزمان.

وهذا الفتى المثقف المتعلم ابن نائب الوالى والذى عاشر الطبقة الأرستقراطية، وأحس بالخلل الذى يعانيه المجتمع نتيجة فساد هذه الطبقة، فتضاعف سخطه على البيزنطيين وحكمهم، وبدأيتعاطف مع المصريين، وهؤلاء القادمين الذين جاءوا ليساعدوهم على التحرر من نير الظلم والاستعمار، وكان أهل هذه البلاد لا يعرفون للإيمان سبيلا.

وفى شرق الدلتا بدأ المصريون ينضمون إلى الإسلام زرافات ووحدانا وكانت تانيس عاصمة لهذا الإقليم، ولها أسوار بها مائة باب، وكان أهلها من العرب الغساسنة القادمين من الشام، وكان الفساد يعم سكان هذه المدينة فتدهورت أحوال المدينة وتحولت إلى خراب، وكانوا من العرب المتنصرة ـ أى المتنصرين ـ وكانوا لا يعرفون للإيمان سبيلا؛ لأن المسيحية الحقة لم تكن قد وصلت إلى وجدانهم، ولم تكن تغلغلت فى روحهم، ويبدو أنهم اعتنقوا المسيحية عندما اعتنقها الإمبراطور قسطنطين، فكانت بالنسبة لهم اسما فقط، وخصوصا كما ذكرنا أن سكان المدينة كلها من الغرباء، إذ كانوا من العرب والبيزنطيين والمشتغلين على أمرهم من خدم وعبيد، وكانت أخلاق هذه المدينة إجمالا سهلة منقادة... مائلة للرطوبة، ويقول أبو السرى الطبيب فى أهل هذه المدينة، إنهم مخنثون(١٤)، وكان يولد بها كل عام مائتا مخنث، وهم

يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة، وأكثرهم يبيتون سكارى، وهم قليلوا الرياضة لضيق المدينة، وأبدانهم ممتلئة الأخلاط، وتفشى بها مرض يقال له الفواق التنيسى، واستمر فى أهلها ثلاثين عاما، وقال جامع تاريخ دمياط وكان على تنيس رجل يقال له ابو ثور من العرب المتنصرة....

هكذا كانت تنيس والمناطق التى تعتبر حاليا محافظة بور سعيد وشمال محافظة الشرقية والدقهلية، على حال من التدهور والخراب، وسكانها معظمهم من العرب والمصريين الأقباط المغلوبين على أمرهم.. وإستطاع شطا بن الهاموك أن ينشر الإسلام فى هذه المنطقة بسرعة فائقة والذى معه استقامت أخلاقهم وصلح حالهم، والذى أصبحت معه هذه المنطقة سندا للمسلمين والإسلام فى مصر، وكان يبشر بالدين الإسلامى بالحسنى، وكانت له عدة لقاءات مع الجيش البيزنطى، وكان يبرز لهم ويقاتلهم قتالا عنيفا، إلى أن قتل فى معركة مع البيزنطيين ومات شهيدا، وحمل من المعركة ودفن فى مكانه المعروف به خارج دمياط، وكان استشهاده فى ليلة الجمعة، النصف من شعبان، وهكذا أصبح كل شمال الدلتا والإسكندرية ووسطها وقراها يناصرون ويحالفون المسلمين، ومنهم من أسلم ومنهم من بقى مسيحيا وظل على تحالفه مع المسلمين.. وكانوا جميعا عونا للمسلمين فى تقدمهم إلى شمال أفريقيا فيما بعد. وهذا ما سوف نراه بعين التاريخ فى صفحات الفصل التالى... ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نوضح أن العلاقة بين الأفراد خلال الحكم الطويل للاستعمار (الرومانى - البيزنطى) الذى استمر حوالى ألف عام منذ ٣٣٢ قبل الميلاد (ق.م) حتى ٦٤ ق.م كانت مجرد علاقة بين حاكم ومحكوم، وأن الحاكم قد يكون من غير جنس المحكوم، ويبدو أن العصبية القومية لم تكن تفشت بعد؛ ولذا لم يكن هناك غضاضة باستبدال العرب بما يحملونه من عدل وبساطة بالبيزنطيين بكل ما يحملونه من ظلم وجور.

ولقد قضى صلح الإسكندرية فى أول المحرم من ٢١ هجرية (١٠ ديسمبر ٦٤١م) بأن يؤدى المصريون الجزية دينارين عن كل رجل قادر على العمل، وأن تجلو الجيوش البيزنطية فى مدى إحدى عشر شهرا وتحمل معها كل

متاعـها، وأن يتاح للمسيـحيين أداء عبادتـهم، وتصان معابدهم، وأن يسمح لليـهود بالبقـاء فى الإسكندرية. وبذلك تم تحـرير البلاد من البيـزنطيين مـرة أخرى ـ كما حدث من قبل الهجوم على الإسكندرية أكثر من مرة.

وفى هذا الصدد لم يغير عمرو بن العاص الجهاز الإدارى للحكم، فلم ينزع المناصب من أهل البلاد ليستأثر بها المسلمون، بل تركها لمن هم أعلم بها من المصريين الأقباط، إن كانوا مازالوا مسيحيين أو الذين اعتنقوا الإسلام ليكونوا مسئولين عن دواوينهم وأعمالهم أمام الوالى، فى تنظيم الأمور كلها وتسييرها كما كانت فى النواحي: الإدارية، والمالية والاقتصادية وتسجيل المواليد وكل ما من شأنه انضباط الدولاب العام للدولة، وكذلك جباية الخراج والجزية والزكاة وخلافه، وأيضاً ضبط وقياس مياه النيل لمعرفة مدى غلة الأراضى للعام القادم، وهكذا كانت عدالة عمرو، فأولى المصريين القبط كل المهام الكبرى مكان من رحل من البيزنطيين، وبالفعل نهضوا بالعبء كله، وما أن مرت سنون قليلة حتى أصبح كل عمال مصر من (الأقباط) المصريين، وهى سياسة بعثت الطمأنينة فى أوصال مصر من أدناها إلى أقصاها، وجعلت الخبرة فى أيدى الخبراء، مما انعكس على الإنتاج وزيادة ما كان يحصل من ضرائب بمفهوم العصر، وكانت هذه الضرائب على نوعين الجزية على الأشخاص، والخراج على الأموال. والجزية كما نعلم كان مقدارها على أهل الذمة ديناريـن فى المتوسط، كما سيأتى ذكر ذلك فيما بعده.

هوامش الفصل الثانى عشر

(١) المقريزى - الخطط والآثار - الجزء الأول - (ص ١٦٤ وما بعدها) .

(٢) القس منسى متى - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - (ص ٣٠٣ وص ٣٠٤) .

(٣) القس منسى متى - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة (ص ٧٢) .

(٤) المقريزى - الخطط والآثار (الجزءالأول) (ص ١٨٣) .

(٥) المقريزى - الخطط والآثار (الجزء الأول) (ص ١٨٣) .

(٦) القس منسى متى - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة (ص ٣٠٦) .

(٧) المقريزى - الخطط والآثار - الجزء الأول - (ص ١٦٤ وما بعدها) .

(٨) نظمى لوقا - عمرو بن العاص .

(٩) المقريزى - الخطط والآثار - الجزء الأول - (ص ١٦٤) .

(١٠) المقريزى - الخطط والآثار - الجزء الأول - (ص ١٦٤ وما بعدها) .

(١١) المقريزى - الخطط والآثار - الجزء الأول - (ص ١٦٣ وما بعدها) .

(١٢) المقريزى - الخطط والآثار - الجزء الأول - (ص ١٦٣ وما بعدها) .

(١٣) المقريزى - الخطط والآثار - الجزء الأول - (ص ٢١٣ وما بعدها) .

(١٤) المقريزى - الخطط والآثار - الجزء الأول - (ص ١٧٦ - وما بعدها) .

خير أجناد الأرض والإنطلاق
إلى أفريقيا

«إذا فتح الله عليكم بعدى مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفًا؛ فذلك الجند خير أجناد الأرض»

حديث شريف

محمد رسول الله ﷺ

خير أجناد الأرض والإنطلاق إلى أفريقيا

أحدثت الفتوحات الإسلامية، وتحرير الشعوب فى فلسطين والشام ومصر هزة عنيفة فى أرجاء الإمبراطورية البيزنطية، أقلقت مضاجع الإمبراطورية، وأحدثت دويا هائلا، وأثارت اضطرابات وفتنا ومؤامرات، خصوصا بعد وفاة هرقل فى ٢٠/ هجرية - فبراير سنة ٦٤٢م، حين قرر مجلس الشيوخ السنباتو تولية حفيد هرقل المسمى قنسطزنر إمبراطورا، وشهدت السنوات الأولى حكم قنسطانز الثانى امتداد حركة تحرير الجيوش الإسلامية لشمال أفريقيا، وكان تحرير برقة وطرابلس ضرورة حتمية اقتضتها الاستراتيجية، فقد كانت برقة امتدادا طبيعيا لمصر، وكان لابد من الالتفاف حول الدولة البيزنطية من الغرب لحماية وتأمين انتصارات الجيوش الإسلامية فى تحرير شعوب شرق حوض البحر الأبيض، وبعد الانتهاء من تحرير مصر بمعاهدة الإسكندرية فى شوال ٢١هـ سبتمبر ٦٤٢م، بعدها اتجه عمرو بن العاص على رأس جيش لمدة حركة تحرير شعوب شمال أفريقيا فى الغرب فاستولى على برقة فى عام ٢٢ هجرية الموافق أوائل عام ٦٤٣ ميلادية، وأصبحت قاعدة للجيش الإسلامى فى أفريقيا، وبعد ذلك بعام واحد فى عام ٦٤٤م قاد عمرو حملة تالية خرجت من الفسطاط، وفتح إقليم طرابلس واستولى عليها بعد حرب مع البيزنطيين وأعوانهم من البربر عندما توفى عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان

خلافة الدولة الإسلامية الفتية، واستدعى عمرو من جبهة القتال فرجع عمرو من الجبهة، وترك الجيش، وفى هذه الأثناء، أستطاع البيزنطيون أن يقوموا بهجوم مضاد، وأرسلت الدولة البيزنطية أسطولا كبيرا بقيادة مانويل (Manuel) واستطاع هذا القائد أن يأخذ الحامية الإسلامية على غرة، واسترد الإسكندرية مما اضطر الخليفة عثمان بن عفان إلى إعادة القائد عمر بن العاص بسرعة، فاستطاع أن يهزم قوات مانويل عند نيقيوس (NIKUS) ودخل الإسكندرية ظافرا منتصرا مرة ثانية، عام ٦٤٦ ميلادية، واضطر مانويل إلى الهرب إلى القسطنطينية، واستقبل الأقباط من أهل الإسكندرية بزعامة البطريرك بينيامين (PENJAMIN) - المسلمين بترحاب كبير، وفقدت بذلك بيزنطة إلى الأبد أغنى ولاياتها فى الشرق، وبعد أن أمن المسلمون مركزهم فى الشام وأعالى الجزيرة، التفتوا إلى أرمينيا وآسيا الصغرى، فى عام ٦٤٧ ميلادية، غزا معاوية بن أبى سفيان والى الشام قبادوقيا واستولى على قيصرية، فى آسيا الصغرى وعاد إلى دمشق بغنائم نفيسة وكثيرا من الأسرى، وتابع المسلمون فتوحاتهم غربا على حساب الدولة البيزنطية، فعندما تولى الخلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه/ سمح عام ٢٧ هجرية الموافق ٦٤٧ ميلادية لأخيه من الرضاعة عبدالله بن سعد بن أبى السرح والى مصر بغزو أفريقية على رأس حملة كبيرة، اشترك فيها جماعة من الصحابة وأبنائهم - جيش العبادلة (عبدالله بن عمر بن الخطاب، عبدالله بن الزبير، عبدالله بن عمرو بن العاص) .

وتقابل جيش المسلمين مع البيزنطيين بقيادة أرخوس أفريقية «جريجورى»وكما يسميه العرب «جرجير» - عام ٢٨ هجرية الموافق ٦٤٩ ميلادية فى مكان قرب سبيطلة جنوب غرب المكان الذى تأسست عليه مدينة القيروان فيما بعد.

وكانت انتصارات المسلمين فى شمال أفريقية دليلا جديدا على فشل الدولة البيزنطية فى حل خلافاتها المذهبية مع رعاياها، فقد وقف سكان شمال أفريقية موقف المناوئ من المذهب المونوثيليتى (MONTHILTY) الذى نادى به الامبراطور هرقل، وكان يعيش فى شمال أفريقيا فى ذلك الحين عالم دينى

أرثوذكسى اسمه (مكسيموس المعترف Confessoor MAXIMUS والذى عقد عدة اجتماعات دينية فى عدة دول فى شمال أفريقية فى عام ٦٤٦م، قرر فيه أن المذهب «المونوثيليتى» (MONTHILTY) الذى تسانده الدولة هرطقة دينية، وحاول الأمبرطوار قنسطانز الثانى كما حاول هرقل قبله، إيجاد حل لهذه الهرطقة الدينية التى هددت الوجود البيزنطى فى شمال أفريقيا، ولكن بلا جدوى. رفى عام ٦٤٨ ميلادية أصدر الإمبراطور مرسوما جديدا عرف باسم النموذج الإيمانى (Tgpicon Tgpus) وبموجبه حرم النقاش فى مسألة الإرادة الإلهية ومسألة قدرة الله، ويقتضى المرسوم الاعتراف بطبيعتين للسيد المسيح وإرادة واحدة فى أسلوب غامض، وساعد ذلك على زيارة تعقيد الأمور وثارت ثائرة مكسيموس؛ وأخذ جانبه باباروما، البابا مارتن، الأول (٦٤٩ ـ ٦٥٥ ميلادية) وعقد مجمع دينى فى روما عام ٦٤٩م، وقرر هذا المجمع أن النموذج الإيمانى لا يصلح لأن يكون أساسا للعقيذة الصحيحة، وأرسل الباب هذا القرار إلى جميع الأساقفة وإلى رجال الدين، وإلى الإمبراطور قنسطانز الثانى وثارت ثائزته، وخصوصا أن البابا أقر بعقد المجمع بدون إذن من الإمبراطور، ولذا تم القبض على البابا مارتن الأول وأخرج من روما ليلا إى القسطنطينية، وحكم عليه بالإعدام، ثم خفف الحكم ونفى إلى بلدة خرسون بالقرم، وأما العالم الدينى مكسيموس فقد تم القبض أيضا ونقل إلى القسطنطينية واتهم بالهرطقة، ثم عذب، ونفى إلى مدينة لازيقا على شاطئ البحر الأسود حيث توفى فى عام ٦٢٢م.

وهكذا زادت هوة الخلاف الدينى، وتعقدت مشكلات الإمبراطورية البيزنطية، وازدادت حيرة الشعوب التى تحررت من حكم الاستعمار البيزنطى فى شمال أفريقيا، وفى جزر البحر المتوسط، وفى مناطق عديدة أخرى مثل آسيا الصغرى.

وهكذا كان فى الإسلام الإجابة على التساؤلات العديدة التى كانت تساورهم، والحيرة التى كانت تلازمهم؛ ففى أحكامه حسم للخلافات، وأيضا كان فى تعاليم الإسلام حل للغز الذى دام أكثر من ستة قرون، بلا إجابة.

هكذا تطلع المسلمون إلى مكان لهم فى كل هذه المناطق الحائرة المرتبكة المتشاحنة، وتطلعوا إلى تحقيق السيادة على البحر المتوسط، وانتزاعه من البيزنطيين، لتأمين حدودهم فى الشام ومصر وأفريقيا، وإمتدادا لحروب التحرير التى خاضوها لتحرير شعوب مصر وفلسطين وأفريقيا، وطرد المحتلين... هكذا تنفس المصريون الصعداء، وكشفوا عن معدنهم الزاخر بالوطنية والذى يفيض بالعزة، واستقرت فيهم النخوة، ولأول مرة يسمعون عن الإنسانية، ويتعاملون كبشر، فانضموا إلى العرب المسلمين ليشتركوا فى تحرير أوطانهم والدفاع عنها، وبدأ الحماس يسيطر عليهم للاشتراك معهم لملاحقة البيزنطيين، وكانت ملاحقة فلول الجيش المندحرة، تتعدى حدود البر والاشتراك فى الحروب والمعارك البرية (المشاة والفرسان).

وهكذا كانوا أحسن ما يكون جنود الأرض، كما تنبأ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا فتح الله عليكم بعدى مصر، فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا؛ فذلك الجند خير أجناد الأرض).

لم يقتصر اشتراك المصريين فى الزحف البرى (المشاة والفرسان) كما ذكرنا من قبل، ولكنهم كانوا روادا فى الحملات البحرية لما لهم من باع فى أساليب وفنون البحر، فكان منهم النوايتية والبحارة وقواد السفن، صحيح أن القيادة كانت تعقد لقواد من العرب المسلمين، ولكن يبدو أنه كانت تعقد للمصريين الأمور الفنية؛ فهم بناة السفن ولهم دراية بتوجيهات الرياح وأيضا علوم الفلك، وخصوصا أن العرب لم يكن لهم عهد أو دراية بالبحر. وأن الخليفة عمر بن الخطاب والخليفة عثمان بن عفان كانا يخشيان البحر، وكذلك والى مصر عمرو بن العاص كان أيضا يخشى البحر. وفى ذلك يقول فى رسالة إلى الخليفة عمر بن الخطاب ردا على استفساره عن البحر. (إنى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، وإن ركن أحزن القلوب، وإن ترك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا غرق) ونود أن نشير إلى أن عمرو بن العاص كان يجيد السباحة ولكنه كان يخشى على جنده من البحر.. وأيا كان الأمر فإن

المصريين لهم تاريخ قديم مع البحر وركوبه؛ فالنيل يجرى فى مصر، والبحار الكبيرة تحيط بها من كل مكان، فالمصريين يألفو البحر، ويعرفون فنونه، ويتقنون الإبحار فيه. وفى هذا يقول ابن خلدون فى مقدمته: «فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم، وصارت أم العجم خولالهم وتحت أيديهم، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته، واستخدموا من النواتيه فى حاجتهم البحرية أمما، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته فشرعوا إلى الجهاد فيه، وأنشأوا السفن فيه والموانى، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر المقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر، واختصموا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل: الشام وأفريقية والمغرب والأندلس».

فى عام ٤٥هـ - ٦٦٥م وفى أواخر حكم قنسطانز الثانى حفيد قسطنطين - تقدمت الجيوش الإسلامية من القيروان لتحرير أفريقيا، وتوجهت السرايا المصرية إلى قابس وبنزرت وسوسة وحصن جاولاء. وفى عام ٥٠هـ - ٦٧٠م فى عصر قسطنطين الرابع عين معاوية عقبة بن نافع الفهرى أثناء ولايته الأولى التى استمرت خمس سنوات، وكان عقبة خبيراً بشئون أفريقيا؛ فقد دخل من قبل برقة عام ٢٣هـ - ٦٤٤م ومعه الكثير من الجنود المصريين وهو فى سن الرابعة عشر مع ابن خاله عمرو بن العاص، وقيل إنه أخوه من والدته. واستمر تقدم عقبة بن نافع لملاحقة البيزنطيين وتحرير الشعوب فى أفريقيا حتى وصل إلى شواطئ المحيط الأطلسى فى عام ٦٤هـ - ٦٨٣م وكان عمره يناهز الخامسة والخمسين عاما، واستمر مقاتلا حوالى واحدا وأربعين عاما. وبذلك يكون قد حرر كل شمال أفريقيا. وفى ذلك يقول: «**اللهم إنى أشهدك أن لا مجاز ولو وجدت مجازا لجزت**»

نرجع مرة ثانية للأسطول الذى بناه عثمان بقيادة معاوية بن أبى سفيان، فى عام ٢٨هـ - ٦٤٩م. فكان الأسطول المصرى بقيادة عبدالله بن سعد بن أبى السرح (١) يعتبر حجر الزاوية فى الأسطول الإسلامى، وقد استولى هذا الأسطول على قبرص فى نفس العام، واستمرت انتصارات الأسطول الإسلامى

وتم الاستيلاء على جزيرة رودس، وعلى بعض جزر بحر إيجه، وتعرضت كريت لحملاتهم المتكررة، وكانت القسطنطينية من نصيب الأمويين.

وخرج الإمبراطور قنسطانز الثانى عام ٣٤هـ - ٦٥٥م على رأس قوة بحرية لمواجهة الخطر الإسلامى فى البحر....

وفى هذا يذكر الطبرى

«فخرجوا فى جمع لم يجتمع للروم قبلة منذ كان الإسلام، فخرجوا فى خمسمائة مركب»

وعند فوينكس «Phoenix» قرب شاطئ ليكيا بآسيا الصغرى حدثت معركة بحرية كبيرة، انتصر فيها المسلمون بقيادة والى مصر عبدالله بنى سعد بن أبى السرح، بجنوده المصريين، وما كان ليحقق انتصارا بحريا إلا بالمصريين؛ لأنه عندما وصلت إلى مصر عام ٢٠هـ سرايا جيش المسلمين العرب قبل ذلم بأربعة عشر عاما فقط - لم يكن هناك أسطول إسلامى، ولك يكن فى هذا العدد القليل من تمرس على الحرب فى البحر أو تدرب على فنون البحر وركوبه... هكذا انتظم آلاف المصريين «الأقباط» فى صفوف الجيس الإسلامى الذى يدافع عن حدود مصر والبلاد المحررة الجديدة وهكذا انتظم المصريون فى الجيش والبحرية، وسميت الموقعة البحرية التى هزمت فيها البحرية المصرية أسطول الروم - موقعة ذات الصوارى، وجاء انتصار المسلمين فى تلك المعركة نتيجة خطة حديثة. إذ ربط المصريون السفن بعضها ببعض بسلاسل قوية، فاستحال على البيزنطيين اختراق سفنهم، واستخدام المصريين أيضا فى تلك المعركة للخطاطيف التى يقذفون بها صوارى سفن الروم ثم يجرونها إلى جوار سنهم فصارت المعركة كأنها معركة برية. وهكذا استطاع المصريون أن يحققوا انتصارا فذا، فكرا وإدارة وقتالا.

«إنهم خير أجناد الأرض»... أليس هم حفدة جيش أحمس

نعم....

«إنهم خَيَر أجناد الأرض»

نعم... إنهم حفدة جيش أحمس وحور محب ورمسيس...

نعم كان معظم جنوده من المصريين المتطوعين المنضمين للدين الجديد، ونقول مرة ثانية، هكذا تحققت نبوءة الرسول عليه الصلاة والسلام عندما بشر بقوله:

«إذا فتح الله عليكم بعدى مصر، فاتخذوا فيها جندا كثيفا؛ فذلك الجند خير أجناد الأرض».

وبالفعل كان المصريون (الأقباط) ينضمون إلى الإسلام، وقوات المسلمين، يؤيدونهم ويساعدونهم ويقاتلون معهم، هذا كله خلال لقائهم معهم وجها لوجه منذ دخولهم من البوابة الشرقية لمصر ـ وهذا ما ألممنا به خلال الأوراق السابقة ـ وأنهم يساعدون ويقدمون العون لقوات المسلمين ويقاتلون معهم قوات الاحتلال، يأخذون بثأرهم من هؤلاء الذين طالما أذاقوهم الذل وصنوف وألوان العذاب والعبودية، وانضمام الأقباط إلى صفوف العرب المسلمين، واقع الطبيعة الكريمة، والمعدن النقى، والخصال الحميدة، حيث لاقوا من العرب البساطة، والحياة الطبيعية، مع ما فيها من جفاف وخشونة، وعلاقتهم التى يظللها الأمن والأمان، والسكينة والاطمئنان، وروحهم الودودة خلال المعاملات التى تصاحبهم يوميا، والاحتكاك المستمر، فالوضوء فجرا بالماء البارد فى الشتاء، والجو زمهرير ودرجة الحرارة منخفضة، والالتزام فى اجتماعهم للصلاة، واصطفافهم كأنهم بنيان مرصوص متلاحم ـ كل ذلك وغيره كان له تأثير فى قلوبهم والسحر على نفوسهم، ولم يغب هذا عن ذهن هؤلاء الفلاحين البسطاء المصريين الأقباط، والذين كانوا يراقبونهم عن كثب وهم يؤدون هذه الصلاة خمس مرات فى اليوم، فى مواعيد الصلاة المحددة بعد رفع الآذان، فكانوا يقتربون من مضارب هؤلاء المسلمين على تخوم حقول الدلتا وبداية الصحراء الشرقية والصحراء الغربية، أو فى الشمال على تخوم حقول وتلال وكثبان الرمال جنوب دمياط أو رشيد أو الإسكندرية، وهكذا كان رفع الآذان للدعوة للصلاة، فكان ـ على ما يبدو ـ فى نفس الوقت كأنه دعوة لهؤلاء البسطاء للإسلام، ويبدو أن من اعتنق الإسلام من أقباط مصر، كانوا يتنافسون لترديد

الآذان والقيام بدور من أجل نشر الدين، وهو ما يؤكد أن هؤلاء الأقباط هم حملة مشاعل الدين الإسلامي، وهم خير أجناد الأرض. فإن تجويد الآذان بصوتهم الرخيم، وأسلوب الترديد والتنغيم، والترجيع الذى لا يضاهيه أسلوب آخر فى كل العالم الإسلامي... ترديدا وتنغيما وترجيعا وتجويدا... فلا عجب فى ذلك؛ فهم ورثة كهنة كنيسة الإسكندرية، وورثة رهبان الأديرة العديدة، وأيضا الكهنة الفراعين منذ آلاف السنين والذين عاشت فى وجدانهم وفى أروقة المعابد ودهاليز قدس الأقداس تلك الأنغام وتلك التراتيل، وأنغام كهنة آمون وكهنة آتون.

فلا غرو فى ذلك؛ فإن هاجر المصرية أم إسماعيل علمته النطق السليم للحروف، والتى تطورت وأصبحت هى الحروف العربية. وخلال هذا التلاحم، كان المسلمون يعلمون المصريين مبادئ الدين الإسلامي، وبدأ المصريون يعودون إلى منازاهم المخربة بعد هروب استمر شهورا وسنين، فمع الوقت بدأوا يأنسون ويألفون لهؤلاء الضيوف الجدد الذين طهروا البلاد من المحتلين... وتزوج الكثير من المسلمين من الفتيات المصريات، فقد فقدت مصر الكثير من شبابها، فمن هرب هرب إلى الصحراء، ومات من مات فى طريقه إلى الأديرة والقلايات، ومن استشهد فى الحروب العديدة بين الفرس والروم، ومن قتل قتل من العذاب والتعذيب على أيدى الجند الروم.

وبدأ المصريون فى إعادة بناء منازلهم وترميم ديارهم، وتقرب المصريون من العرب ليستطلعوا ويستوثقوا من كثرة ما قيل عنهم وعن تواضعهم ورحمتهم وعدلهم... وكثرت المصاهرة؛ فالشباب المصرى ترك الديار إلى الأديرة، وقتل من قتل منهم على أيدى الروم والفرس - كما ذكرنا - ولم يبق إلا الشيوخ والنساء.... ومن منطلق أن القرآن كتاب هداية، لامكان فيه لأبطال الملاحم فالإسلام بدو ن إنسان يقوم بتطبيق تعاليمه، يصعب فهمه، فكان الإسلام أمام المصريين البسطاء واقعا ملموسا، وقدوة حسنة، وأحس المصريون أن الإسلام ما جاء لفئة أو جماعة بعينها بل هو للكافة، منهج واحد للناس أجمعين على قدم المساواة، ومبدأ اشتراكى يحقق المساواة للكافة. ولا يفوتنا

أنهم قد عايشوا - قبل مجيء الإسلام - نظاما أخلاقيا، يفرق في المعاملة بين الطوائف والطبقات: فللقساوسة من أتباع الإمبراطور نظام ومعاملة، والوجهاء والأعيان وعليه القوم لهم نظام ومعاملة، وللشعب العادي الكادح نظام ومعاملة في مقابل الزواج المسموح به لعامة الناس حيث العزوبية في نظرهم هي الأمثل، أما الزواة فتسوية أو حل وسط.

والإسلام يحث الناس على الكدح والسعي وراء الرزق، وهذا ما شاهدوه: **بسم الله الرحمن الرحيم «وجعلنا النهار معاشًا». ويذكرهم الإسلام بنعمة النهار المضيء الذي يسهل السعي فيقول: بسم الله الرحمن الرحيم «الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه، والنهار مبصرا، إن الله لذو فضل على الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون» صدق الله العظيم**

ويحث القرآن عن الحق والذود عنه من منطلق أن القرآن أقر القتال وأمر برد العدوان، بدلا من الرضوخ للمعاناة والظلم، ولم يكن يقر الإسلام مبادئ دين دون أخلاق، بل دائما كان يضع قواعد أساسية واجتماعية.

وهكذا امتزجت الدماء العربية بالدماء المصرية من هذه المصاهرات، التي استمرت منذ هذا العهد القديم منذ أربعة عشر قرنا من الزمان، والتي ستستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هوامش الفصل الثالث عشر

(١) المقريزى الخطط والآثار.

استقرار مصر فى ظل حكم الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

«ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا والذين قالوا إنا نصارى؛ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع».

صدق الله العظيم

وبالفعل عاد البطريك بنيامين ومن معه، بعد ثلاثة عشر عاما من الهروب والتخفى من ظلم المسيحيين الأرثوذكس الملكانية التى لاقى فيها الهوان. واستقبله عمرو بالترحاب وتعانقا فى ود وحب، وزرفت الدموع.

تاريخ الكنيسة القبطيه
القس منسى يوحنا
(صفحة ٣٠٧)

استقرار مصر فى ظل حكم الإسلام

ما أن انتهى عمرو بن العاص من القضاء على الحاميات العسكرية لجيش الاحتلال البيزنطى، وتطهير القلاع والأبراج المنتشرة على أطراف الحدود المصرية والمواقع الاستراتيجية، وبعد تصفية الجيوش المنتشرة فى المدن والقرى والكفور، من عملاء الروم وأتباعهم وأذنابهم وجواسيسهم، وبعد أن انتهت مراسم توقيع معاهدة الإسكندرية وجلاء البيزنطيين عن الأراضى المصرية، وتأمين الحدود المصرية الغربية فى برقة حتى القيروان - استقرت الأمور ودانت البلاد له وما أن انتهى كل ذلك حتى بدأ عمرو بن العاص فى لقاءاته مع القيادات الشعبية المصرية. وخلال الأعوام الثلاثة الأولى التى أمضاها عمرو فى مصر فى أحداث وقلاقل، وقتال وحروب، وهجوم، ودفاع، وكر هنا وفر هناك، فى مطاردة لفلول الهاربين من بقايا جيش الاحتلال فى كل مكان.

واستطاع أن يستوعب اللغة المصرية (القبطية) بما يحقق له الحد الأدنى للتفاهم مع المصريين فى الأمور الحياتية والسياسية اليومية، مع ملاحظة أنه عندما دخلها محررا فى عام ١٩ هـ كانت له دراية ببعض الألفاظ والجمل المفيدة للتفاهم بها مع المصريين، فذكاء عمرو كان يدفعه لتعلم الجديد كل يوم

فى شتى الأمور واللغات واللهجات، وفى هذا الصدد لا ننسى زيارة عمرو الأولى لمصر مع صديقه الشماس المصرى - وكان ذلك قبل الفتح بحوالى عشران عاما مضت - وتجاذبهما أطراف الحديث، طوال شهر لم يفترقا فيه قط. ولا يفوتنا أن اللغات حينذاك كانت مفرداتها أقل مما هى عليه الآن، وأيضا كانت بسيطة وسهلة، كبساطة وسهولة الحياة نفسها، فكانت اللغة العربية تتفق - لحد ما - مع اللغة المصرية القديمة واللغة العبرية، أو تقرب منهما بدرجات، فلا غرو فى ذلك؛ فهى لغات سامية ذات أصل واحد. وفى هذا الصدد نتذكر أن أم عمرو بن العاص كانت كتابية فالعديد من الألفاظ مشتركة فى هذه للغات، وعلى رأسها مفردات التعامل اليومى، ومفرادات الحقل مثل: حمار ومشنة وشادوف وفول وبصل وعدس وثوم وفجل، هذا بخلاف أسماء زراعات عديدة أخرى، وأيضا الألفاظ التى تستخدم فى الحياة اليومية داخل البيوت ذات الأسوار والأبواب المغلقة التى مازالت تستخدم حتى الآن، مثل آمبو، وتاتا، وبخ ومسخمط، وبيت، وست، ، ومفتاح، وختم، ويد، ورجل إلى آخره. ولا غرابة فى ذلك أيضا فأسماء الأشهر المصرية القديمة لا زالت تستخدم بأسمائها حتى الآن مثل: برمهات وطوبة وتوت وأمشير... إلخ وكذلك أسماء بعض المهن مثل: نجار وطباخ، وكذلك بعض الصفات مثل: جسر، أى (شجاع). وهكذا نستطيع أن نتصور كيف استطاع عمرو بن العاص، أن يلم ببعض مفردات اللغة المصرية التى مكنته من التعامل والتفاهم والحديث مع القيادات، حتى يؤلف بين قلوبهم ويلتفوا حوله، وخاصة أنه ذو فراسة وعلى درجة ذكاء عالية، وهو ذو حديث جذاب مزرد بالكثير من الثقافة والعلم والحكم والطرائف والتجارب، لهذا ولغيره ألفه المصريون وأحبوه، وأيضا بدأ العرب المسلمون بأعدادهم القليلة يندمجون فى المجتمع المصرى الذى التف حوله المسلمون ينهلون من الثقافة الجديدة القادمة، من هؤلاء المسلمين بدينهم الجديد السهل البسيط، وهكذا مع تلاحم هؤلاء مع أولئك واطمئنانهم لهم، ازداد عدد من يعتنقون الديانة الإسلامية يوما بعد يوم، فالتفوا جميعا حول عمرو بن العاص، واستطاع بهم أن يتصدى للمحن، ومواجهة المواقف الصعبة، وكان

من قيادات الشعب المصرية الذين يلتفون حول عمرو، ويجالسهم ويتجاذب معهم أطراف الحديث ـ رجل من أعيان المصريين اسمه شنودة توحدت علاقته بعمرو والى مصر، واستطاع خلال هذه العلاقة أن يروى له أكثر وأكثر، وينقل له نبض المجتمع وما لاقاه من محن وهوان وظلم على أيدى الحكام البيزنطيين والفرس، وأيضا عن هروب واختفاء البطريرك بنيامين البابا الثامن والثلاثين، والذى ظل مختفيا طيلة ثلاثة عشر عاما مضت، كما شرح للوالى مدى رغبة الرعية القبطية المصرية الأرثوذوكسية فى عودة باباهم إلى مقره.

وفى هذا الصدد يحكى فى تراث الكنيسة القبطية أنه بعد أن حرر عمرو بن العاص مصر من الروم ـ جاءه حوالى سبعون ألفا من الفارين والهاربين من حكم الروم (البيزنطيين)، جاءوا وهم شبه عراة فى[1] حالة من البؤس يرثى لها، ممزقى الثياب، وطالبوا عمرو بحريتهم الدينية، فاستجاب عمرو لهم، وفى نفس الوقت انزعج عمرو لما وصل إليه حال المصريين، وأمر على الفور أن يرسل إلى جميع الأقاليم والكفور وكل الجهات، يدعو فيها البطريرك الهارب للعودة إلى مقره دون ما خوف مطلقا، وأمنه على نفسه وعلى كل مرافقيه من الرهبان والنساك، وبالفعل عاد البطريرك ومن معه، وقابل عمرو بن العاص الذى استقبل وفادته بالكرم فشكره البطريرك على حسن صنيعه، وأظهر له ولاءه، وتعانقا فى ود وحب، بعد سنين طويلة من الظلم والعذاب والقلائل، وذرفت الدموع،[2] وأعطاه عمرو الكنائس التى أغتصبها الروم، وساعده فى إعادة بناءها وترميمها.

واطمأن البطريرك على أن السلام سيعم البلاد ويظل يرفرف على مصر والمصريين جميعا، من أسلم ومن بقى على مسيحيته وسيكون هو وأهله وعشيرته وأمواله وممتلكاته ـ فى أمان واستقرار.

وهكذا استجاب عمرو لطلبهم وأظهر ميله للأقباط فازدادوا ثقة فيه، وخصوصا لما وجدوه رحيما بهم، وسمح لهم بإقامة الكنائس وسط الفسطاط، وفى هذا الصدد كان هؤلاء الأقباط (مسيحيون ومسلمون ممن اسلموا حديثا)

يساعدون عمرو فى تأسيس مدينة الفسطاط التى أصبحت عاصمة للبلاد، ومركزا للإدارة، وكان المسلمون حينذاك يصلون فى الفلاة، إذ لم يكن قد أسسوا مسجدا لهم بعد.

وفى هذا الصدد يروى أن عمرو بن العاص اشترى قطعة أرض فى مدينة الفسطاط من سيدة يهودية؛ لإقامة مسجد عليها - وهو المسجد الذى أصبح مسجد عمرو بن العاص فيما بعد.

ويقال إن عمرو بن العاص قد تجاوز المساحة التى اشتراها من السيدة اليهودية، فما كان منها إلا أن سافرت وقابلت عمر بن الخطاب الذى قابلها فى بساطة وبشاشة، وأمر لها بحقها من عمرو بن العاص على قطعة صغيرة من الفخار.

فما كان من عمرو إلا أن استجاب لأمر الخليفة على الفور. والرواية تقول إن السيدة اليهودية هالها من أمر عدل الخليفة عمر بن الخطاب، واستجابة الوالى عمرو بن العاص لأمر العدل، فأشهرت المرأة فورا إسلامها استجابة لعدالة الإسلام.

ومع استقرار الحكم فى مصر، والأمن والأمان الذى استمتع به المصريون مع عدل عمرو بن العاص، وإعطاء حرية الديانة للمصريين - وجه البطريرك التفاته إلى الأديرة التى خربها الفرس أثناء حكمهم واستعمارهم لمصر، واجتهد فى إصلاحها[٣]، فرمم وعمر برية شيهات وكل تخوم وادى النطرون وبنى دير الأنبا بشيوى، وأعاد إليه رهبانه، ولما تجمعوا واشتد عودهم، وأخذوا قسطهم من الراحة قصد بهم إلى دير أبى مقار فرمموه، وبنوا الكنيسة الكبيرة، ودعوا البطريرك لتكريسها، وكان شنودة أحد أعيان وكبار الأقباط حينذاك قد تعاون مع البابا بنيامين ببناء كنيسة على اسم القديس مرقص - ولكن الأجل لم يفسح له بناء هذه الكنيسة؛ حيث إن بعض الملكانية قد سرقوا رأس القديس مرقص، وكانوا بالفعل فى طريقهم لتهريبها إلى خارج مصر.

وأيضا قد ساعد عمرو بن العاص المصريين فى بناء الكنائس وترميمها التى تهدمت إبان حكم الرومان (البيزنطيين)[٤].

وهكذا استمرت مسيرة السلام فى مصر بعد تحريرها على أن يدفع البالغون ما تقرر عليهم من جزية كل عام فى المتوسط بما قيمته دينارين هرقلين، وهى العملة التى كانت سائدة فى العالم حينذاك، والمتداولة فى كل أنحاء الدولة البيزنطية فى أفريقيا ومصر والشام (وبهذه المناسبة آن لنا أن نعرف أن قيمة هذا الدينار حينذاك كانت تساوى ما قيمته دولار أمريكى تقريبا فى زماننا، فمثلا كان ثمن الجمل عشرة دنانير، وكانت دية قتل الإنسان فى حالة القتل الخطأ ألف دينار. وأيا كان الأمر، فإن قيمة الدينارين تعتبر مناسبة فى أن يدفعها المواطن المصرى من أجل تأمين وتحقيق الأمان لشخصه، وأيضا يدفع دينارين عن كل شخص من أسرته ليعيشوا تحت مظلة من الأمن والأمان بدون أى تكاليف، أو بذل آخر فى مجالات الدفاع والأمن، وهكذا كان المصرى المعفى من التجنيد - أو ضمنيا كل من طلب إعفاءه من التجنيد باللغة المصرية - عليه أن يدفع عنه وعن عائلته حماية لهم - بدل للتجنيد (أو البدلية) أو الجزية المحددة كما هو متبع حينذاك، وهى ديناران كل عام. وبالطبع نظام الجزية كان ساريا فى مصر قبل دخول الإسلام، إلا أن الجزية بالنظام الجديد كانت تضمن للمصريين العدل؛ فقد كانت تخفض للمصريين، وأحيانا تعفيهم بقدر إعسارهم، وفيما بين هذا وذاك درجات لقيمة الجزية ، فقد تعود المصريون على نظام عريق فى الإدارة، وقد تعود أفراد الشعب على الالتزام نحو دفع ما يفرض عليهم إزاء الدولة من ضرائب، فها هى الألف عام الأخيرة فى ظل الاحتلال الرومانى منذ فتح الإسكندرية لمصر عام ٣٣٢ قبل الميلاد حتى نهاية الاستعمار البيزنطى فى عام ٦٣٠، مرورا بالاستعمار الفارسى، والذى استمر حوال عشرة أعوام - كان الشعب خلالها يدفع الجزية بانتظام.

ومع العهد الجديد فى ظل حكم الإسلام، كانت الجزية لا تفرض على العاجزين والمعدمين والرقيق والشيوخ والأطفال والنساء، وقد كانت الجزية عموما على ثلاث مستويات: الفقراء، والأغنياء، وأواسط الناس ذوو الدخل المتوسط، بمعنى أن يخفف عن الفقراء، ويضاعف الضريبة على الأغنياء، ويجعلها متوسطة لذوى الدخول المتوسطة. وكان هذا الأسلوب فى جباية

الضرائب هو أول صور الضريبة التصاعدية، حسب شرائح الدخل، أما الخراج فسار فيه عمرو على القاعدة المتبعة أيام الرومان مع خضوعها لمنسوب الفيضان، لذا إذا كان الفيضان شحيحا يجرى حساب الخراج على كل قرية وكل منطقة، وإذا كان الفيضان غامرا يعمل حساب ذلك.

وإذا كان الفيضان مدمرا يتقرر الإعفاء، وذلك بدون النظر إلى ديانة أو جنس، فكان الكل فى حق الحياة سواء.

وجاء بعد الروم الفرس وفرضوا على الشعب المصرى الجباية بما يساوى أو يزيد على ما كان يتحمله المصريون، هذا علاوة على الظلم الذى لاقاه الشعب، والجور الذى يتحمله الفلاحون والمزارعون والتجار، هذا علاوة على ما تكبدة رجال الدين من ظلم واضطهاد وملاحقة مستمرة.

ثم جاء الروم مرة ثانية، وبدأو فى مضاعفة قيمة الجباية المفروضة على المصريين، خلال سنوات الفرس، وهى العشرة أعوام الماضية؛ وذلك نكاية وتأديبا للمصريين لعدم مساعدتهم إبان القتال عند الغزو الفارسى، ونكاية فيهم أيضا لتعاونهم مع الفرس، هؤلاء الغزاة، أثناء الاحتلال - هكذا كانت معاملة الروم للمصريين لأنهم أعداء وليسوا حلفاء ولأنهم أيضا مغلوبين مستعبدين - وكانت نظرتهم إلى مصر أنها مزرعة الكروم والقمح، وأيضا هى الخزينة التى تمول القسطنطينية بما تحتاج إليه، ولا يعنيهم العدل ولا الرحمة ولا المساواة ولا الطمأنينة، ولا يهمهم أن يرفرف السلام على البلاد، ولا يعنيهم أن تتآلف القلوب، ولكن ما يعنيهم هو جمع الأموال ، وابتزازها، وامتصاص الدماء. وهكذا كان المصريون فى ظل الحكم الفارسى أو البيزنطى يدفعون كل ما يملكون حتى دمائهم، مجبرين صاغرين، وكانوا دائما خائفين على أنفسهم وأرواحهم، وسائر ممتلكاتهم؛ لأن الحامى هو الحرامى (حاميها حراميها) وكان الروم يتصفون بالظلم والجشع والغدر والخديعة.

ولكن مع مجئ هؤلاء الفاتحين المحررين الجدد أصحاب الرسالة السامية، وأخبارهم التى سبقتهم من عدل وود ومساواة، وكل الصفات الكريمة والأخلاق

الفاضلة، وهم فى النهاية لا يسعون إلا لتحرير الشعوب المظلومة والمضطهدة والمقهورة، وهذا ما حدث بالفعل خلال الأعوام العشرين الماضية، فقد حرروا الشعوب فى كل أرجاء الجزيرة العربية المترامية فى تهامة وعسير واليمن، وفى عمان والهفوف والشواطئ الشرقية وقطر والبحرين، وأيضا فى بلاد ما بين النهرين وتخومها، وهذه الأخبار كانت تنتقل عبر الفيافى والصحراوات، خلال فلول الهاربين من هنا وهناك هربا من الجواسيس المنتشرين والعيون التى ترصد حركاتهم، حيث لم يكن هناك فى ذلك الوقت، وكالات أنباء أو صحف أو إذاعة أو تليفزيون، ولكنها ا لآذان المتلهفة لسماع ما هو جديد، والأبصار المرتقبة لكل ما هو غريب وحديث.

هكذا أمن عمر بن الخطاب المصريين على حياتهم وأملاكهم، شأن كل الشعوب التى دخلت حظيرة الإسلام، وبدأ عمرو بن العاص فى تنظيم الدواوين: ديوان المظالم، ديوان الحسبة. وتم قياس الأراضى لحساب الإيرادات المتوقعة، والخراج المحتمل، وكانت فلول الشعب المصرى العائدة على اختلاف عقائدهم ومشاربهم، بعضهم يعتنق المذهب الملكانى وبالطبع الكثير على مذهب الأرثوذكس اليعاقبه، والبعض يعتنق تعاليم الآريوسية، وبعضهم على مذاهب أخرى عديدة، ومن المحتمل أن يكون بين هؤلاء الوثنيين - ومعظم هذه الاعتقادات كانت تدرس وتمارس فى الخفاء هروبا من الملكانيين جنود الإمبراطور.

وكانت الدعوة الإسلامية وما نشرته من طمأنينة واستقرار لحياة البشر، فالداعون إلى الإسلام يدعون بالحكمة والموعظة الحسنة، ويتصفون بالسلوك الطيب والعمل الصالح. وصدق الله سبحانه وتعالى حين قال: (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا..) صدق الله العظيم.

وهكذا استطاع هذا العدد القليل من هؤلاء الدعاه الشجعان بما يحملون فى نفوسهم من إنسانية وحب وعطاء، ورغبة فى التضحية بالنفس والنفيس - أن ينشروا الرسالة الإنسانية، ويعمموا نورها، ويتموا مكارم الأخلاق، وقواعد المعاملات والعلاقات فيما بين البشر بعضهم وبعض، وبين البشر والخالق

الواحد الأحد. وكان الآريسيون هم أكثر الفرق المسيحية في مصر تعاطفا مع الإسلام، وبسرعة انتظموا في صفوف الإسلام، كذلك اعتنق الإسلام الكثير من اليعاقبة الذين يختلفون مع الاستعمار وعقيدته الملكانية، وكذلك كثير من الملكانيين الذين كانوا أيضا يخفون آريوسيتهم بعد مازل الحكم والاستعمار البيزنطي، وهكذا تلاقت الآريوسية ببساطتها في وحدانية الله مع الإسلام بفطرته، هذا علاوة على موقف المصريين من الإسلام، وتحرير العرب لمصر من الاستعمار البيزنطي، هذا كله كان له طعم خاص، وتأثير كبير في النفوس، فقد جاء العرب بعد فراغ عسكري شمل العالم القديم، وحل الإسلام بسلامه وسماحته على كل من إمبراطورية الروم ودولة فارس، فقد كانوا في منتهى البؤس لسوء المعاملة التي تلقتها هذه الشعوب من قوات الاحتلال، سواء كان الاستعمار الروماني أو الفارسي، وسواء كانت هذه الشعوب المستعمرة في بلاد الشام أو مصر أو العراق أو فلسطين.

لهذا وغيره أقبلت هذه الولايات وتلك الشعوب على الدعوة الإسلامية التي جاءت لتخلصهم من الظلم والظلام إلى العدل والنور والسلام.

تلك العوامل بالإضافة إلى العامل الأساسي، الذي دفع العرب للخروج من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام والعراق وغيرها - هو الدين الإسلامي الحنيف، الدين العالمي، فقد أمر الله تعالى المسلمين أن ينشروا دينهم أينما حلوا، لأنه دين الله القويم الذي يعامل حتى من لم يدخل الإسلام وجميع أهله - معاملة حسنة كريمة، ولم يجبر أحدا على دخول الإسلام، وواكب انتشار الإسلام في مصر وباقي الشعوب المحررة مثل فلسطين والشام والعراق - حركة هجرة واسعة إلى هذه البلاد، وأيضا إلى المغرب العربي بالشمال الأفريقي حتى أسبانيا (الأندلس).

وواكب هذا كثرة إقبال العرب المقبلين على الزواج من الفتيات المصريات؛ حيث كان عدد الإناث وقتذاك يزيد كثيرا عن عدد الرجال بسبب القتل الجماعي فيهم - كما أشرنا من قبل خلال عهود الظلم والطغيان - وبزيادة المصاهرة زادات أعداد المسلمين حيث إن تشريع الدين الإسلامي ببساطته

وفطرته يسمح بالزواج بأكثر من واحدة، وبذلك قويت عرى الوحدة الوطنية بسبب هذه المصاهرات، وامتزجت الدماء العربية والمصرية، وكذلك انصهرت الآريوسية فى الإسلام بمفهوم الفطرة الدينية البسيطة السلسة، واستمر الاندماج والتزاوج بين العرب والمصريين، أى بين المسلمين والأقباط، حتى أوائل القرن الثالث الهجرى فى عهد الخليفة المعتصم بالله العباسى، حتى انصهر العرب بإسلامهم السمح الكريم مع الأقباط وتسامحهم، وانصهروا جميعا فى بوتقة الحب والود والسلام، وخصوصا وقد أسلم من الأقباط عدد لا يستهان به، ومن هؤلاء الذى أسلموا عدد كبير من الآريوسيين الذين يحملون فى صدورهم معانى الوحداغنية، وانتشرت اللغة العربية تبعا لهذا التزاوج، والمصاهرة، وانتشار الدين الجديد بين المصريين مع استخدامهم لها فى العبادة والصلاة، وخلال التعاملات اليومية، وأتقن الأقباط اللغة العربية على مختلف فئات الشعب المصرى، مسلمين ومسيحيين، فقد ألف أحد البطاركة كتابا فى التاريخ باللغة العربية، وكذلك أرخ للتاريخ حينذاك ساويرس أسقف الأشمونين للبطاركة فى أواخر القرن الرابع الهجرى باللغة العربية، وبذلك أصبحت اللغة العربية هى لغة التفاهم اليومية، والتخاطب، واللغة الرسمية لمصر، ولم تعد اللغة القبطية التى كانت سائدة قبل ذلك منذ الفراعين العظام - تفهم من عامة الشعب، بل أصبحت السيادة للغة العربية. وهكذا نمت وترعرعت سيمفونية الحب والوئام فى مسيرة الود والتسامح والسلام.

واستمر الشعب المصرى (القبطى) بعد ذلك على مدى قرون - مسلمين، ومسيحيين - فى زورق واحد يبحر بهم فى عباب التاريخ تتقاذفهم أمواجه.

وفى مجال الاستقرار لدخول الإسلام فى مصر، فقد قام عمرو بن العاص بإصلاح القناة التى تربط بين النيل والبحر الأحمر - والتى كانت تسمى قناة داريوس - والذى أدى إهمالها إلى عدم صلاحيتها للملاحة خلال القرن السادس والسابع فقام عمرو بتطهير القناة، وسميت بخليج أمير المؤمنين فعادت طريقا صالحا للملاحة...

أما حاصلات بلاد ما بين النهرين (العراق حاليا) وفلسطين فكانت تحملها القوافل حتى غزة ثم الفرما، وتمر بمنطقة قريبة من القنطرة حاليا ومنها إلى بلبيس موازية للجانب الشرقى للفرع البيلوزى الشهير، وتستمر القوافل فى سيرها حتى أون (هليوبوليس) - وهى منطقة عين شمس والمطرية حاليا - وهو الطريق الذى عرفه الفراعنة باسم طريق حورس، وبعد ذلك ركوب فروع النيل، وفى الغالب الأعم الفرع الكانوبى حتى مدينة الإسكندرية، وفى خلال فترة الجفاف كانت القوافل التجارية تستمر فى سيرها برا حتى مدينة الإسكندرية، وهكذا انتظمت خلالها القوافل من الشرق للغرب وبالعكس[٥]، ورجعت مصر إلى ما كانت عليه من أمن اجتماعى، واستقرار اقتصادى، ورواج تجارى عم كل البلاد، وتنفس المصريون الصعداء.

فالإسلام جاء إلى مصر بروحه التى لا تفاضل بين الناس بسبب: الحسب والنسب واللون والجنس والدين.. فمعيار التفاضل والتميز هو التقوى بمعنى السلوك القويم، لذلك اختلط المسلمون بالمصريين، واندمجوا معهم وتزاوجوا بهم، وكان لفطرية الإسلام وبساطته أن أباح الزواج من النساء الكتابيات، والمصاهرة بين الشباب المسلم وبين الفتيات المصريات اللاتى فقدن عائلهن إبان التعذيب والتقتيل الفارسى والبيزنطى، وأيضا خلال المشاركة فى الحياة الاجتماعية، فالإسلام أباح معاشرة ومصاحبة أهل الكتاب، فطعام المسلمين حل لهم، وطعامهم حل للمسلمين، وتم إسلام هاتيك الزوجات من فعل المعاشرة الطبيعية، وكان لهذا الاختلاط والمعايشة أثره البالغ فى انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية، فضلا على أثره فى انتشار اللغة العربية، ولا غرابة؛ فإن العرب والمصريين ينتميان إلى سلالة بشرية واحدة. وكان لبساطة الإسلام والسماح لزواج الرجل من أكثر من امرأة، دور كبير فى زيادة المصاهرة بين المسلمين والمصريين، فقد ترك المسلمون زوجاتهم هناك فى مكة أو المدينة فبعدت وطالت الشقة بينهما، فكان ضروريا أن يتخذ له زوجة مصرية قد تكون أرملة فقدت عائلها، أو فتاة لا عائل لها.

رأى عمرو بن العاص الظلم الذى يقاسيه الشعب المصرى (القبطى) بعين رأسه - منذ عشرين عاما مضت، وها هو الشعب مازال يقاسى ويتحمل، بدرجة

أكبر، وحجم أكثر - فقد جاء محررا لشعب مصر، كما تحرر هو نفسه منذ أكثر من عشرة أعوام.

و كما بشر الإسلام، وحسبما ورد فى الآيات القرآنية المتعددة والسنة النبوية، على الدعوة السلمية، والإقناع وعدم الإ كراه فى الدين والمجادلة بالحسنى، وعدم الالتجاء إلى الحرب إلا لضرورة الدفاع عن الإسلام، والديار الإسلامية، ولذلك بعث الرسول الكريم بكتب إلى حكام الدول المختلفة - وكما جاء فى ذلك من قبل - منها رسالة إلى المقوقس والى مصر من قبل الدولة البيزنطية يدعوه إلى الإسلام.

فكان دخول الإسلام إلى مصر، والتحول من اللغة المصرية (القبطية) إلى اللغة العربية فى سهولة ويسر، وخصوصا أن اللغة المصرية «القبطية» واللغة العربية من أصل لغوى واحد، بل وشارك الذين اعتنقوا الإسلام من مسيحيين ويهود فى بناء الحضارة الإسلامية ديانة ولغة، وأيضا حياة اجتماعية، وهو ما يناقض تماما موقف المصريين من الحضارتين البيزنطية ومن قبلها الرومانية رغم ما أصاب المصريين من اضطهاد وتعذيب لإجبارهم على نقل الحضارة البيزنطية، وهذا المسلك من جانب المصريين يؤكد أن التحول إلى الإسلام واللغة العربية لم يتم بالإكراه؛ إذ أن العلاقة بين كتائب تحرير مصر من الروم، والشعب المصرى كانت علاقة كلها ود، حتى مع حرب التحرير وما لقيه المصريون من مضايقات اجتماعية، وما تحملوه من أعباء مالية لا يقارن بما كان عليه حالهم فى العصر الرومانى،[6] فالإسلام فرض سلطان الحماية على مصر والمصريين بعد تحررهم من الاستعمار البيزنطى، ولكن التحول إلى الإسلام واللغة العربية تم بالرضا الكامل والاستجابة الموضوعية لمتطلبات الحياة اليومية، فلاغرو، فالإسلام دين ودنيا، فقد أعطى الإسلام إلى المصريين حلول لكل مشاكلهم الحياتية اليومية. وهذه الاستجابة السريعة جاءت من المصريين، إذ أن أكثرهم عند دخول الإسلام مصر كانوا من الأرثوذكس اليعاقبة، وكانت أقلية على المذهب الملكانى (وهؤلاء فى الغالب الأعم كانوا يعتنقون هذا المذهب عن غير إيمان، ولكن كانوا على هذا المذهب ليقربهم من

الإمبراطور) ومن ناحية أخرى، كان عامة الشعب مازالت على الفطرة ـ كما جاء ذلك من قبل فى الصفحات التى طالعناها فى الفصول السابقة.

كما كانت توجد أقليات بدرجات متفاوتة من اليهود[٧] والمسلمين، والوثنيين، أو القريب العهد بالمسيحية، وكانوا جميعا قد ضاقوا ذرعا بالحكم البيزنطى؛ بسبب الاضطهادات الدينية والأعباء المالية التى يرزحون تحت عبئها، وبدأ بعض المصريين (الأقباط) يتحولون إلى الإسلام عن إيمان وعقيدة، وقد يكون بعضهم تحول كرها أثناء حكم المستعمر القديم ، أو تقربا لغرض فى نفس يعقوب.. أيا كانت الأسباب، فقد بدأ الإسلام ينتشر تدريجيا بين المصريين بصورة ملحوظة سواء كأفراد أو جماعات، حتى أصبح المسلمون أكثرية مع نهاية القرن الثانى وبداية القرن الثالث الهجرى.

ويرجع هذا التحول السريع إلى الإسلام فى مدة وجيزة ـ تزيد قليلا عن قرن ونصف ـ إلى عدة أسباب، نجملها فى: تسامح الإسلام، وتؤكدها القاعدة الإسلامية فى الحكم «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»[٨]، فقد جرى العرب فى البلاد التى حرروها من الروم أو الفرس ومنها بالطبع مصر، وهى تخيير الشعوب المحررة هذه بين الإسلام أو الجزية أو الحرب. وقد قبل المصريون دفع الجزية فى صلح بابليون الأول، ولذلك عامل العرب المصريين معاملة البلاد التى فتحت صلحا، ومن ثم عوملوا معاملة أهل الذمة.

وبمقتضى عقد الذمة تلتزم الدولة بتأمينهم وحمايتهم فى دار الإسلام والدفاع عنهم. الأمر الذى ترتب عليه معاملتهم معاملة حسنة، والتسوية بينهم وبين المسلمين فى الحقوق والواجبات إعمالا للمبدأ العام الذى جاء ذكره من قبل، الذى أمر به الإسلام بالنسبة لأهل الذمة **«لهم ما لنا وعليهم ما علينا»**، فتحسن وضع المصريين بالمقارنة لما كان عليه حالهم وقت الحكم البيزنطى، لدرجة أنهم لم يكتفوا بمعاونة المسلمين أثناء تحرير مصر، بل ساندوهم ضد الروم حينما حاول هؤلاء استعادة مصر وفتح الإسكندرية عام ٢٥ هجرية ـ كما جاء ذكر ذلك فى الفصول السابقة.

وذكى من روح التسامح مع المصريين الأحاديث النبوية العديدة ومنها: **«أن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا؛ فإن لهم منكم صهرا وذمة»**، وجاءت «قبطها» فى حديث الرسول تفيد أهل مصر المصريين. وتجلت روح التسامح هذه فى المظاهر العديدة، منها حرية العقيدة، فقد تمتع مسيحيو مصر بحرية العقيدة خلافا لما كان عليه حالهم فى العصر البيزنطى، ومن قبل الاستعمار الفارسى، ومن قبل الاستعمار الرومانى، فبعد تحرير مصر، والإسكندرية، أعاد عمرو بن العاص البطريرك بنيامين إلى رئاسة الكنيسة الأرثوذوكسية، والذى حضر لمقابلة الوالى بعد أن أمنه على حياته وحياة كل من فى عقيدته بعد هروب استمر ثلاثة عشر عاما قضاها فى البرارى والكهوف هربا من ظلم واضطهاد الروم، وبعد تعيين بطريرك ملكانى بدلا منه، وهكذا بدأ البطريرك الشرعى يمارس قيادته. وقد تم ترميم ما تهدم من كنائس فى عهد الرومان، كما تم بناء كنائس جديدة فقد بنيت كنيسة مار مرقس بالإسكندرية فيما بين عامى ٣٩ - ٥٠ هجرية، **كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط فى حارة الروم فى ولاية مسلمة بن مخلد فيما بين عامى ٤٧ - ٦٨ هجرية**، ومن ناحية أخرى تجلت روح التسامح والود والعرفان بين المسلمين والمصريين، فقد انتصر المسلمون للمصريين الأرثوذكس على أعدائهم فى المذهب وهم الملكانيون، وردوا إليهم الكنائس والأديرة التى كان قد استولى عليها الملكانيون فى عهد الروم. كما أن الخلفاء كانوا يتدخلون لنصرة المسيحيين إذا اشتكوا من عسف ولاة مصر معهم..[٩]

وكان من مظاهر التسامح بين المسلمين والمصريين- تقبل المسلمين النزعة الاستقلالية للمصريين والتى بدأت مع العصر البيزنطى، فانتصروا للغتهم على حساب اللغة اليونانية التى كانت لغة رسمية فى عهد الرومان والبطالمة من قبلهم، فحلت اللغة المصرية (القبطية) محل اليونانية فى الدروس والصلاة فى الكنيسة، وعادت الأسماء المصرية للقرى والبلاد التى كان البطالمة والرومان قد أطلقوا عليها أسماء يونانية (فمثلا إخميم بدلا من بانوبولس، وأهناسيا بدلا من هراقليوبوليس، والأشمونين بدلا من هر نوبوليس.. إلخ) لكن ظل شئ واحد

غريبا عنهم، إذ استمرت الحروف اليونانية هى الحروف السائدة. وترك المسلمون العرب للمصريين (الأقباط) حرية تنظيم أمورهم الداخلية والدينية بإشراف بطريركهم الذى ينتخبونه ويعتمد الوالى انتخابه. وكان القضاة والمسلمون يخصصون يوما من كل أسبوع للنظر فى منازعات أهل الذمة، وسمحوا لهم بدخول المسجد لعرض قضاياهم. كل هذا لمس قلوب المصريين (الأقباط) بل استقر فى قلوب الكثيرين منهم، ومن مظاهر التسامح أن أصبح للمصريون نصيب كبير فى إدارة شئون بلدهم مصر، إذ حلوا محل البيزنطيين فى كثير من المناصب الكبرى مثل: رئاسه المدن والكفور، والرئاسات والقيادات المالية، ووصل بعضهم إلى أعلى مناصب الدولة مثل الوزراء، وتدل الوثائق على أنه لم يرصد فى وجههم باب من أبواب العمل، ولم يضيق عليهم فى الرزق، بل كون الكثير منهم ثروات طائلة، تشوبها الأبهة والمظهرية، وخصوصا أن الكثير منهم كان أهل علم وثقافة، وعاشوا عيشة مترفة والتى أحيانا كانت تستفز العامة، وخصوصا عندما كان يشوب جمع هذه الثروات العسف أو الظلم فى جمعها، والتى فى الغالب الأعم كانت على غير علم الولاة أو غفلتهم، وفى كلتا الحالتين تستفز الشعب، ومع ذلك استمر المصريون يقودون الإدارةفى مصر... واستمرت القيادات معقودة لهم. والتسامح كان له جانب مادى أيضا، فقد خفف الحكام المسلمون الأعباء المالية على المصريين، ولم يبق منها سوى بعضها وعلى رأسها الجزية، وهى تقابل الزكاة التى يلتزم بها المسلمون وحدهم، وحتى هذه الجزية كان لا يدفعها الرهبان والنساء والأطفال والشيوخ، على خلاف ما كان عليه الحال فى خصوص ضريبة الرؤوس التى كانوا يدفعونها وقت الاحتلال الرومانى، بل إن النصوص والوثائق تشير إلى إعفاء الفقير غير المسلم من الجزية، وإجراء الرزق عليه من بيت المال، من ذلك ما فعله عمر بن الخطاب، وأبو بكر، وعمر بن العزيز حسبما ورد فى كتب الخراج، وتساووا مع المسلمين فى دفع الخراج وغير ذلك من الضرائب، والتى، بأى مقياس، لم يكن يتمتع بمثل هذه المساواة المواطن المصرى أثناء الاستعمار البيزنطى، وكان الرهبان والأديرة والكنائس - حسبما

يذكر سويرس بن المقفع أسقف الأشمونين فى القرن الرابع الهجرى - كانوا يعفون من الضرائب.

كل هذه الصور من التسامح وروح الود والمحبة والعرفان بين الحكام والمصريين - كانت دافعا لهم لاعتناق الإسلام والانضمام لصفوف المسلمين، وليكونوا **أحسن أجناد الأرض** وليكونوا قدوة فى الإسلام...

وكان فى هذا الصدد أن قام الحكام المسلمون بتخفيف المضايقات الاجتماعية، بل وإزالتها تماما، فقد جرى الفقهاء المسلمون على تحديد الالتزامات التى تقع على عاتق أهل الذمة، وميزوا فيها بين الشروط المستحقة والشروط المستحبة، والشروط المستحقة تستهدف حماية المجتمع الإسلامى ونظامه العام، وأثر مخالفتها محل خلاف بين الفقهاء، فالحنفية لا يجيزون نقض الذمة إلا إذا حاربوا المسلمين، أما بقية الفقهاء فيجيزون نقضها إذا أخلوا بأحد هذه الشروط.

أما الشروط المستحبة فهى تستهدف التمييز بين المسلمين وغيرهم فى النواحى الاجتماعية، ولذلك فإن مخالفتها لا تستوجب نقض عهد الذمة بإجماع الفقهاء.

وواقع الأمر - حسبما تدل الوثائق - أن حكام مصر لم يضيقوا على أهل الذمة فى زيهم ومركبهم، وما يشغلونه من وظائف وما يقومون به من أعمال[10] - كما أوضحنا فى الفصول السابقة باستثناء ما كان يصدر من أوامر من وقت لآخر والتى سيأتى ذكرها فى الأوراق التالية فى عهود تمتاز بضعف الحكم والحاكم، والذى معه ينعدم العدل وينتشر الظلم، ويقاسى منه المسلمون والمسيحيون على السواء، أو ما يكون من قيود لردود فعل لأحداث داخلية أو خارجية، والتى ستأتى فى مجالها فى الفصول التالية، عزيزى القارئ.

وكان مما سهل تفهم المصريين (الأقباط) للدين الإسلامى - بساطته وفطرته التى تناسب الإنسان العادى والفطرى، وتكاليف الإسلام التى هى فى مقدرة الإنسان البسيط والفقير أيضا، مما جعل المصريون يدخلون الدين

الإسلامى فى مجموعات وأفراد أيضا، وكذلك المعقولية فى جمع الخراج وأيضا الجزية، فقد حققوا معادلة البساطة بتخفيف الأعباء المالية وخاصة الجزية، فقد احتفظ الحكام العرب بالنظام المالى الذى كان سائدا وقت دخول الإسلام مصر - بعد التخفيف - وذلك بالسعى للاتزان بين استغلال موارد البلاد بأقصى حد، والاعتدال في جباية الضرائب، ومن ثم عدم الشطط فى فرضها وعدم جبايتها. وهذه السياسة طبقت على كل أبناء مصر، مسلمين وغير مسلمين، غير أن الأقباط انفردوا بالخضوع لبعض أنواع الضرائب التى كانت أشد وطأة مما خضع له المسلمون، فالمسلمون يدفعون ضريبة الزكاة ويقابلها بالنسبة للمسيحيين ضريبة الجزية، وهى أشد مؤونة من الزكاة، وقد فرضت الجزية بمقتضى معاهدة بابليون الأولى، وهى تتشابة فى بعض الوجوه مع ضريبة الرؤوس التى كان يؤديها المصريون للرومان من قبل، من حيث إنها تفرض على الفرد (الرأس)، ولكنهما يختلفان من حيث الغرض من فرضهما، ومن ثم من حيث مجال التطبيق، فهى عند الرومان، رمز لخضوع المصريين لهم، ولذلك كانت تفرض على كل فرد يقيم في مصر يبلغ الرابعة عشرة حتى سن الستين، أيا كان جنسه: ذكرا أو انثى، أو ديانته، أو جنسيته، أو عمله باستثناء الرومان ومواطنى المدن الإغريقية الحرة الثلاث لمصر.

أما الجزية فهى بمثابة ضريبة دفاع؛ لأنها بديل لضريبة الدم التى يؤديها المجندون، ولما كان الأقباط لا يدخلون الجيش فإنهم يؤدون الجزية كبديل لضريبة الدم. وفى هذا الصدد نذكر فى مصر أيضا أنه حتى الاربعينيات كان من يدفع البدلية - وهى ضريبة الدم - لا يجند، ولذلك كانت تسقط الجزية عن المسيحيين الذين ينخرطون فى سلك الجندية، كما تدل على ذلك المعاهدات التى عقدت بين القواد المسلمين والبلاد المفتوحة، وقد أورد منها الطبرى العشرات من نماذج هذه المعاهدات[11]، ويظهر ذلك بوضوح فى أن الملتزمين بها هم القادرون على حمل السلاح، ولذلك يعفى منها الشيوخ والنساء والرهبان والصبية دونما تمييز بسبب الحسب أو النسب أو الجاه. وكذلك سقطت الجزية عن المسيحيين الآن فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية، بعد ما أصبح

التجنيد إجباريا، أو تم إلغاء نظام البدلية الذى جاء ذكره من قبل. وقد نصت معاهدة بابليون على فرض الجزية على غير المسلمين من المصريين بواقع دينارين عن كل فرد، غير أنها نصت على أن مقدارها يرتبط بمقدار ارتفاع منسوب النيل ارتفاعا وانخفاضا كل عام، وأنها تدفع على ثلاثة أقساط فى السنة، وكتب الخراج تذكر أقوال الفقهاء فى مقدار الجزية ومدى اختلافهم فى مقدارها، ويعد النظام المالى الذى وضعه عبد الله بن سعد بن أبى السرح والى مصر (٢٥ - ٣٥هجرية) والذى تم بموجبه العدول عن نظام الجزية الموحدة المقدار، وحل محله مبدأ تقدير الجزية حسب المركز المالى للشخص، بحيث تقل جزية متوسط الحال عن جزية الغنى، كما تدل الوثائق على أن مقدارها كان يختلف تبعا لثراء الشخص أو فقره، وتبعا لتقدير الوالى، ولذلك اختلف مقدارها تبعا للظروف المختلفة، وكان يتولى حصر الملتزمين بدفع الجزية شخص يدعى العريف، وتغير اسمه إلى الحاشر والشئ بالشئ يذكر، أن معظم من كان يقوم بجباية الضرائب إن كانت جزية أو خراجا - كانوا من المسيحيين المصريين، فقد كانوا أكفاء فى مثل هذه الأمور ويتقنون أعمالها وفنونها، وذلك منذ الاستعمار البيزنطى ومن قبله الاستعمار الرومانى.

ولما كانت الجزية تسقط بالإسلام، فإن تحول كثير من المسيحيين إلى الإسلام أدى إلى تناقص أموال الجزية منذ أواخر القرن الأول الهجرى، فقد هبط مقدار الجزية فى عهد معاوية بن أبى سفيان إلى نصف ما كانت عليه فى عهد عثمان، ولذلك عهد بعض الخلفاء والولاة إلى الزام[١٢] من بقى على دينه من المسيحيين بسداد جزية من أسلم بل ومن مات منهم، بل إن بعض الولاة ألزم من أسلم بدفع الجزية حفاظا على قيمة ما يجئ من مصر من أموال، ولذلك اضطر الخلفاء إلى إصدار أوامر مشددة إلى الولاة بإسقاط الجزية عن من أسلم من المسيحيين، ومن ناحية أخرى عهد بعض المسيحيين إلى الاحتماء بالأديرة، إذ كانت معفاة من الضرائب، ورهبانها معفون من الجزية، مما اضطر الحكومة إلى تقييد اللجوء للأديرة وإحصاء عدد الرهبان.

وفى هذا الصدد أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى واليه على مصر حيان بن شريح ـ: «أما بعد فقد بلغنى كتابك.... فضع الجزية عمن أسلم، فإن الله بعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هاديا ولم يبعثه جابيا».

ومما ساعد على تحول الشعب المصرى إلى الدين الإسلامى، هو الحياة الاجتماعية وانتظامها، ومعيشة المسلمين والمسيحيين فى ود وعرفان ومعروف، وسياسة التسامح التى التزم بها الولاة مع المصريين. والواقع أن الأعباء المالية لم يكن لها دور فى اعتناق الإسلام، فإن الفقراء كانوا يعفون من دفع الجزية، علاوة على أن هؤلاء الفقراء ـ فى الغالب الأعم ـ هم على درجة متواضعة من العلم والفلسفة، بل كانت الفطرة هى قانونهم وفلسفتهم، فهم لا يعرفون شيئا عن قانون الإيمان وتفسيره، فكان الإسلام بفطرته أقرب إلى بساطتهم وفطرتهم، وخصوصا مع روح الود والسلام الذى أصبح يرفرف عليهم فى ظل هذا الدين الجديد[١٣]. وفى هذا الصدد نلجأ إلى ما كتبه الدكتور صوفى أبو طالب فى كتاب تاريخ القانون فى مصر فى العصر الإسلامى إنه من غير المعقول أن يتحمل المصريون المسيحيون تنكيل الرومان بهم، وتعذيبهم، وتكبيلهم بالأعباء المالية الباهظة لإجبارهم على التحول عن دينهم، وذلك على مدى قرون ذا قوا خلالها العذاب والهوان والتقتيل فى النهاية. وفجأة يتحولون ويغيرون من طبيعتهم ومسلكهم من المسلمين، فيتحولون إلى الإسلام تفاديا لدفع دينارين جزية عن الفرد الواحد أو تزيد وتنقص طبقا للظروف المادية والاجتماعية ـ كما جاء ذكر ذلك من قبل ـ تفاديا لبعض القيود الاجتماعية التى كانت لا توصف إلا فى حالات استثنائية، وهم الذين تحملوا مالا يستطيع تحمله بشر، وهذا ليس ليوم أو أسبوع أو شهر أو سنة أو قرن من الزمان ولكن لمدة ستة قرون كاملة، استمر هذا الجهاد مع النفس على دين المسيحيين ـ قد أشرنا إليه فى فصول سابقة بالتفصيل.

والآن ونحن بصدد تحكيم العقول ومتابعة الهجرات العربية إلى مصر ـ نود أولا أن نؤكد على دوام واستمرار الهجرات من الجزيرة إلى مصر قبل الإسلام،

وأنها كانت كثيرة في منطقة شرق الدلتا التى كان يسكنها عرب - في الغالب الأعم - من غساسنة الشام، وكانوا يتركزون فى منطقة شمال الشرقية بالتحديد فى تانيس العاصمة حينذاك، وهى حاليا صان الحجر التابعة لمركز الحسينية. وكانت الهجرات الإسلامية فى هذا الصدد مجموعها لا يتجاوز بضعة عشرات من الآلاف على مدى خمسة قرون بداية بدخول الإسلام مصر، فى الوقت الذي كان عدد سكان مصر وقت تحريرها يتراوح ما بين خمسة ملايين وسبعة ملايين نسمة(١٤)، والمصادر المسيحية تؤكد أن عدد المصريين عند دخول الإسلام مصر كان ٢٤ مليون(١٥) والعرب المسلمين فى فتوحاتهم كانت مسئوليتهم العالم كله من حدود الصين حتى أسبانيا وحدود فرنسا.. فمثلا الجيش الذى قاده عمرو بن العاص لتحرير مصر وفتحها كان مكونا من أربعة الاف جندى، جاءهم مدد أربعة آلاف، وفى قول آخر إنهم وصلوا فى النهاية إلى ١٢ ألف، وأسرهم التى وافتهم بعد ذلك، ومصاهرتهم للشعب المصرى، فقد جرت العادة على أن تصحب الأسرة عائلها عند الاستقرار فى مصر. وكانت سياسة الخليفة عمر بن الخطاب فى البلاد المفتوحة المحررة تقضى بعدم مزاولة الجيش لأى نشاط مهنى: تجارى أو زراعى أو صناعى، وتعويضهم عن ذلك بعطاء من ديوان الجند - وكان تمويل هذا الديوان من إيرادات الولاية - حتى يظلوا متفرغين للجندية والدفاع عن البلاد، وتطبيقا لهذه السياسة اختط العرب مدنا جديدة لإقامة الجيش وعائلاتهم، ونتيجة لقلة عدد العرب وإقامتهم فى أماكن منفصلة ومنعزلة، لم يكن لهم تأثير يذكر فى انتشار الإسلام واللغة العربية حتى نهاية القرن الأول، فإن الجيل الأول الذى ولد مسلما من أمهات مصريات مسيحيات، على ما يبدو أنه لم يكن عددهم كبيرا، علاوة على أن دورهم لم يكن مؤثرا، ولكن تبدل الحال تماما منذ بداية القرن الثانى الهجرى أثناءحكم الأمويين، خلال هذا القرن اعتنقت الإسلام القبائل العربية الموجودة فى شرق الدلتا وكذلك ظهر الجيل الثانى من الذين ولدوا مسلمين على أرض مصر بشكل كبير ومؤثر.. هذا علاوة على اعتناق الكثير من المصريين المسيحيين الإسلام، والاختلاط المستمر بين بعضهم البعض. وانتشر هكذا المسلمون فى ريف مصر، وزاد الاختلاط بين من هم من أمهات مصريات،

ومن هم من أمـهـات عربيـات قدمن مـع أزواجـهن، وبدأوا فـى تملك الأراضى الخراجـيـة ... واسـتـمـر الزواج فى الريف والحـضـر بين هؤلاء وأولئك، وأصبح غالبـيـة المصـريين مسلمـون، وقد أدى هذا الانتـشـار ومـا صـحـبـه من اندمـاج اجتماعى إلى انصهار الأجيال الجديدة بصـورة ليس لـهـا مـثيل، فقد أصبحت بوتقـة تحـتـوى هذه السـبـيكة الجـديدة، التى تضم هؤلاء المسلمين من والدين مسلمين ومن المسلمين وأمهاتهم مسيحيات وهؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام حديثا بجانب إخوانهم منهم من بقى على مسيحيته. وفى عهد عبد الملك بن مروان ٨٧ هجرتة أصبحت اللغة العربية هـى اللغـة الرسمـيـة، وجـاء ذلك مـع تعريب مصر وانتشار اللغة العربية ومعرفة المصريين بحروفها الجـديدة عليهم وتركهم الحروف اليونانية والتى كانت تكتب بها اللغة المصرية (القبطية).

ولأن الشئ بـالشئ يذكـر فـيـجب أن نقـول إن الحـروف العـربيـة هـى تطور للحروف المصرية القديمةالهيروغليفية والديموطيقية «لغة الشعب»؛ ولذلك على مـا يبدو تقبلها المصريون، هذا خلاف الحـروف اليونانية فـهى بعيدة كل البعد عن الحروف المصرية الأصلية، وكان لتعلم اللغة العربية دور إضافى فـى نشر الإسلام فى مصر بشكل كاسح، ومع استقرار الأمور فى مصر، وإنشاء الدواوين التى استخدمت اللغة العربية فى عـهد عبد الملك بن مـروان ـ كـما ذكرنا من قبل.

استمر المسيحيون فى بقائهم بوظائفهم وتعلموا اللغة العربية وأجادوا العمل، وبذلك كـان المصريون المسيحيون مسئولين عن جمع الخراج، وجمع الجزية، وحـتى الزكاة ... وبذلك استطاع المصريون ـ على مـدى التاريخ ـ جمع ثروات كانت دائما مـحل طمع ووشاية من المنافسين إن كانوا مسيحيين أو مـسلمين.. وهذا كان بالطبع فى فترات ضعف الحكام والولاة والسلطان.

ومن ناحـيـة أخـرى تفـرغ المسلمـون المصـريون لأمـور الدفـاع، والأمن، والاستـقرار، والمسـيـحيون (الأقبـاط) لأمـور الجبـايـة، وقيـاس الأرض، وجـمع الخراج، وحـتى الزكـاة، وأيضـا كـانت للمسـيـحيين (الأقـبـاط) أعـمـال التـجـارة وأيضا الهندسة، فكانوا هم بناة المساجد والخانقاوات والقصور والجوامع..

وفى صدد القانون واستقراره فى نفوس المصريين سوف ننظر إلى مصر من الزاوية القانونية والمؤسسية والإدارية، ونستطلع الأحوال الاجتماعية، فلنا أن نرجع قليلا إلى قرن مضى.

فمنذ مطلع القرن السادس الميلادى فى عهد جستنيان قسمت مصر إلى خمسة أقاليم: الإسكندرية، وإقليم شرق الدلتا، وإقليم غرب الدلتا، ومصر الوسطى، وإقليم مصر العليا. وذلك قبل استقبال مصر للإسلام بقرن من الزمان.

وينقسم كل إقليم إلى عدة مراكز أو أقسام، ويضم كل قسم مجموعة من القرى. وتفككت وحدة البلاد الإدارية، إذ اقتصر نفوذ والى مصر على الإسكندرية، وكان يضم إليه حكم ليبيا فى الفترات التى تضم فيها إلى مصر، أما حكام بقية الأقاليم المصرية فكانوا يخضعون مباشرة لدوق الشرق، ومقره فى القسطنطينية، وكان كل منهم يختص بإدارة إقليمه، وتخضع له الأجهزة الإدارية والشرطة والقضاء والمالية، فضلا على قوات الجيش بعد اجتماعات لحاكم الإقليم بالسلطتين المدنية والعسكرية، ولا يتمتع الوالى بالإسكندرية بأية نفوذ أو سلطة على حكام بقية الأقاليم المصرية، وإن كان يمتاز عنهم بتجميع كل ضرائب مصر عينية كانت أو نقدية، ثم يرسلها إلى القسطنطينية. ولم يكن حكام الأقاليم فى مصر من أبنائها، بل كانوا أجانب، ثم جرى العمل منذ النصف الثانى من القرن السادس على اختيارهم من اليونانيين المقيمين فى مصر، مع مراعاة رغبة الأساقفة وكبار الملاك وعظماء مصر. وفى أواخر العهد البيزنطى بعدما اشتد الخلاف الدينى - كان الوالى بالإسكندرية يشغل فى نفس الوقت وظيفة بطريرك الكنيسة المصرية، بالرغم من اختلاف مذهبه عن مذهب مسيحى مصر، وكان آخر من جمع بين هذين المنصبين هو المقوقس أو كيرس (Cyrus) عام ٦٣١م الذى يعرف لدى المؤرخين العرب باسم المقوقس.

وقد صاحب هذه التطورات تطور سياسى هام، فالمصريون يعتبرون من وجهة نظر القانون الرومانى من الأجانب المستسلمين (Dedticii)، وهم الأشخاص الذين كانوا لا يتمتعون بصفة المواطنين فى إحدى المدن الحرة قبل

خضوعهم لروما، وهذه الطائفة لا تتمتع بأى حقوق سياسية، ولا يسمح لهم بتطبيق نظمهم وقوانينهم المحلية، وما اتفقوا عليه من أعراف أو حتى عادات، إلا بالقدر الذى يسمح به الوالى، ولا يجوز لهم التعامل طبقا للقانون المدنى الرومانى، وإن كان يجوز لهم التعامل وفقا لأحكام قانون الشعوب!! أى ظلم وأى قهر يلاقيه الشعب المصرى؟!! وكان شعورهم بالظلم يزداد، ولكن هيهات، فإن القبضة الحديدية تسيطر على كل البلاد... فالحكم البيزنطى يكسر عظام كل من تسول له نفسه أن يرفع صوته أو حتى يفتح فمه...

هكذا ظل المصريون محرومين من التمتع بالحقوق السياسية، بل ومن النظم البلدية حتى تم تطبيقها فى القرن الرابع الميلادى، كما ظلوا محرومين من حق الزواج من المواطنين الرومان، ومن مواطنى المدن الحرة بمصر. وظلوا مكبلين بشتى أنواع الضرائب، ومحرومين من الدخول فى الجيش «الرومانى» حتى أواخر العصر البيزنطى الذى سمح بأعداد قليلة جدا للانضمام، ولا يتولون من الوظائف إلا أحقرها شأنا، وقد اكتسب المصريون الجنسية الرومانية بمقتضى دستور الإمبراطور «كراكلا» عام ٢١٢م، ولكن الوثائق تدل على أن المصريين ظلوا يطبقون قوانينهم المحلية، وفى هذا الصدد فإن الجدل مازال ثائرا بين شرح القانون الرومانى حول مدى تطبيق دستور الإمبراطور «كرا كلا» فى عام ٢١٢م الذى قضى بمنح الجنسية الرومانية لجميع الأحرار المقيمين داخل الإمبراطورية. وفى هذا يعلق الدكتور صوفى أبو طالب فى كتابه تاريخ القانون فى مصر[١٦] مرجعا هذا الخلاف لسقوط بعض الألفاظ من البردية التى تضمنت هذا النص، فذهب فريق منهم إلى أن هذا الدستور استثنى الأجانب المستسلمين - ومنهم المصريون - من اكتساب الجنسية الرومانية، وهو الرأى الراجح بين الشراح. وتطبيقا لهذا الرأى الأخير، وفى ظل مبدأ شخصية القوانين الذى طبقه الرومان فى مصر وغيرها من بلاد الإمبراطورية الرومانية - أصبح القانون الرومانى هو القانون الأوحد الواجب التطبيق فى مصر. غير أن الوثائق تدل على أن المصريين ظلوا يطبقون قوانينهم المحلية بعد صدور هذا الدستور. والواقع أن استمرار المصريين فى

تطبيق قوانينهم بالرغم من اكتسابهم الجنسية الرومانية - يرجع إلى تكوين قانون مختلط بين القواعد المصرية والقواعد الرومانية طيلة الفترة الرومانية، قبل دستور «كراكلا» وبعده، فخضع له المصريون والرومان على السواء - هو القانون المصرى الرومانى، ومن ناحية أخرى لم يترتب على اكتساب المصريين الجنسية الرومانية بمقتضى دستور «كراكلا» - تغير فى أوضاعهم السياسية القانونية والاجتماعية والاقتصادية، إذ ظلوا فى مركز أدنى من الرومان الأصلاء، بل أدنى من الإغريق سكان المدن الحرة الثلاث نقراطيس، (بالقرب من دمنهور)، وبطلمة وتقع فى محافظة جرجا، والإسكندرية.

وفى مجال الرؤية الاقتصادية قامت سياسة البيزنطيين على استغلال ثروات مصر، كما كان يفعل البطالمة من قبلهم، ولذلك جرت عادة المؤرخين على القول بأن مصركانت بالنسبة للرومان بمثابة ضيعة تمدهم بالغلال، وتفيض عليهم بالثراء، وبقرة ينبغى حلبها لصالح روما، وليس ثمة شك فى أن البقرة كانت حلوبا، ولكن روما دأبت على استدرار لبنها حتى استنزفته، فكانت معظم أراضى مصر - وهى أهم موارد الثروة بها - ملكا للإمبراطور، وآل الجزء الآخر إلى الكنائس والأديرة وكبار الملاك بعد تدهور الأحوال الاقتصادية، فاعتبر الإمبراطور، باعتبارها وراثا للفراعنة والبطالمة، وصارت أرض مصر ملكا له وطبق فيها نظام الاقتصاد الموجه، فقيدت حرية الأفراد فى العمل والتنقل، فالدولة هى التى حددت نوع العمل ومكانه، فلا يجوز تغيير نوع العمل ولا الانتقال من مكان إلى آخر إلا بإذن الدولة، فهى التى كانت تحدد نوع الحاصلات الزراعية، ونوع الصناعات المطلوبة والأماكن التى تخصص لزراعات معينة أو صناعات معينة، كما احتكرت الدولة الصناعات والمنتجات، وبذلك سيطرت الدولة على كل أوجه النشاط الاقتصادى، وهذه السياسة اقتضت الاستعانة بعدد كبير جدا من الموظفين. وما أن ضعفت الدولة وفسدت إدارتها حتى انهار النظام الاقتصادى منذ النصف الثانى من القرن الخامس، حتى انتشر الفساد فى الإدارة وبدأت الأوضاع الاقتصادية فى التدهور، وانهار تماما خلال القرن السابع قبيل تحرير مصر من الروم ودخول الإسلام مصر.

فمع هذا التدهور بدأت مصر تفقد مكانتها كمعبر للتجارة بين الشرق الأقصى وأفريقيا من ناحية، وأوروبا من ناحية ثانية، وامتد الإهمال أيضا إلى الصناعات، فتدهورت الصناعات التى اشتهرت بها مصر ومنها: النسيج والورق البردى والزجاج، وصناعات المعادن والذهب، ودب الفساد فى الإدارة المالية، وضج الناس - كما جاء ذكر ذلك من قبل - وذلك من فداحة الضرائب التى أرهقت كاهلهم، فكلما ساءت الإدارة كلما زادت الحاجة إلى ضرائب جديدة، أما فى مجال الظروف الاجتماعية خلال الحكم البيزنطى، فقد كان المصريون يمثلون أدنى درجات السلم الاجتماعى، فبعضهم يشغل أدنى درجات الوظائف وأحقرها، فهم إجمالا مستخدمون لملأ خزانة الدولة بالمال، بما يؤدون من ضرائب باهظة. ومنهم الذين يعملون فى المناجم والمحاجر والمصانع، ويسخرون فى شق الترع وتمهيد الطرق، وزاد من وطأة النظام اتباع أسلوب الالتزام فى جباية الضرائب، حيث كان يلتزم شخص بتوريد ما يخص منطقة معينة من ضرائب، ويتولى هو تحصيلها من الناس. وكذلك الحال بالنسبة للحرف، إذ كان لكل حرفة مسؤل عن تحصيل الضرائب ومراقبة الأسعار. وللملتزم فى سبيل ذلك استخدام كافة ضروب القسوة بما فيها السجن، إذ كان القانون يعطى للإدارة المالية امتياز حق التنفيذ على أموال المدين، أو حبسه إذا تخلف عن سداد الضرائب دون الحاجة إلى استصدار حكم قضائى بذلك، الأمر الذى أدى إلى هروب المصريين من أعمالهم إلى الصحراء، فهجروا الزراعة والصناعة. أما صغار الملاك منهم فقد آثروا هجر أراضيهم وتسليمها للكنائس والأديرة؛ حيث إنها كانت معفاة من الضرائب. وآثر بعض الملاك الصغار والفلاحين، الاحتماء بكبار الملاك ذوى النفوذ - ومعظمهم من اليونانيين المقيمين فى مصر - وهم أيضا معفون من الضرائب، الأمر الذى ترتب عليه اختفاء طبقة الملاك، وتحول النظام إلى نظام شبه إقطاعى.

وفى مجال العقيدة والدين، فقد كان الخلاف الدينى على أشده، والذى ثار بين الكنيسة المصرية والدولة الرومانية الوثنية، ومن بعد ذلك بين الكنيسة والدولة البيزنطية المسيحية، وما ترتب على هذا الخلاف من اضطهاد الرومان والبيزنطيين للمصريين، مما كان له أثر كبير فى خلق الوعى الوطنى المصرى

فى مواجهة الاحتلال الرومانى والبيزنطى؛ إذ اختلط الشعور الدينى بالنخوة الوطنية، وأصبح الجهاد الدينى فى أى صورة من صوره، سواء كانت صورا إيجابية أو سلبية - رمزا للوطنية والاستقلال عن الدولة الرومانية فى عصرها الوثنى ومن بعده المسيحى، وتحين المصريون الفرص للثورة والاستقلال، وعملوا فى نفس الوقت على إحياء التراث المصرى القديم، والحضارة المصرية بما فيها اللغة المصرية والقوانين المصرية الخالصة، وما اصطلح على تسميته باللغة القبطية، والقانون القبطى - كما سيأتى ذكر ذلك فى الأوراق التاليةعزيزى القارئ..

ففى الواقع أن الدولة الرومانية ظلت على وثنيتها وعبادة الإمبراطور، وتحريم، واضطهاد ما هداها من ديانات، حتى عام ٣١٢ ميلادية عندما قرر الإمبراطور قسطنطين اعتناق المسيحية والاعتراف بالدين المسيحى، وفى عام ٣١٣ أصدر مرسوم ميلانو الذى أباح الحرية الدينية، وأباح اعتناق الدين المسيحى، والذى أصبحت بموجبه الديانة المسيحية ديانة رسمية للدولة فى عام ٣٩١ فى عهد الإمبراطور يتودوز، وبالرغم من تبعية مصر للإمبراطورية الرومانية فإنها تمردت على الوثنية الرومانية، وأقبلت على اعتناق المسيحية منذ النصف الثانى من القرن الأول الميلادى.

عذرا عزيزى القارئ فى تكرار بعض المشاهد التاريخية، ولكن فى اعتقادنا أن هذا التكرار ضرورى؛ لأنه يلقى الضوء على زاوية أخرى من زوايا الرؤية للموضوع الذى نتناوله، وهى أن الشعب المصرى يقاوم عندما يرفض التعاون بمحض إرادته وإرادته فقط. وهكذا اعتنق الشعب المصرى الديانة المسيحية بالرغم من كل العذابات التى لاقاها، وأنشأ القديس مرقس (الرسول) كنيسة الإسكندرية، ودفن بعد مقتله على يد الدهماء عام ٦٨ فى عهد الإمبراطور الرومانى ببرون، ثم نقل رفاته بعد ذلك إلى البندقية، وبدأت الديانة المسيحية فى الانتشار فى مصر، وتغلبت على الوثنية واليهودية.. فى هذا الخضم قام صراع مرير بين المصريين والرومان الوثنيين، إذ عمد هؤلاء إلى تخريب الكنائس وهدمها، وأعملوا القتل والتخريب فى المصريين المسيحيين مما

اضطرهم إلى الهروب إلى الصحراء، وبناء الأديرة للاحتماء بها من وحشية الرومان وقبل كل هذا أوذاك التفرغ للعباده والتوحد مع الله التنسك فى جو الصفاء والروحانيات.

ولكن اضطهاد الرومان للمصريين لم تخف وطأته باعتناق الرومان للمسيحية، بل على العكس من ذلك ازداد ضراوة نتيجة للاختلاف المذهبى، ومرجع هذا الاختلاف إلى الجدل الذى ثار حول طبيعة السيد المسيح، فقد ذهب البعض إلى أن له طبيعتين، بينما ذهب البعض الآخر إلى أن له طبيعة واحدة، واتهم كل فريق الآخر بالكفر والهرطقة، وذهب البعض إلى أن طبيعة السيد المسيح طبيعة بشرية، وكان صاحب هذه العقيدة آريوس أحد البطاركة المصريين، وذهب البعض إلى الكفر والرجوع إلى الوثنية. وفى هذا ظهرت مذاهب وعقائد عدة مثل مانى وخلافه - والتى جاء ذكرها من قبل.

وكانت الكنيسة المصرية تنادى بمذهب الطبيعة الواحدة، وتطلق المصادر العربية على أتباع هذا المذهب اسم اليعاقبة، وعلى الكنيسة المصرية اسم الكنيسة القبطية (Egypto).

ودأبو الأباطرة على مطاردة أتباع الكنيسة المصرية وتعذيبهم وإغلاق كنائسهم، وكان التصادم يسفر عن الآلاف من الضحايا فى كل صدام، وازداد إصرار المصريين على التمسك بمذهبهم وعقيدتهم، وتدخل الأباطرة لتعيين بطاركة ملكانيين للكنيسة المصرية بدلا من بطاركتها الأرثوذكس، ونفيهم وإسناد الرئاسة السياسية والدينية لشخص واحد على غير رغبة المصريين، وكان آخرهم المقوقس، وكان بنيامين آخر البطاركة المصريين وقت الفتح الإسلامى، الذى فر من الإسكندرية قبل وصول المقوقس إليها مباشرة، وقبل وصول الإسلام إليها بحوالى عشرة أعوام مضت. هكذا كان النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى نقطة تحول كبرى فى علاقة المصريين بالدولة البيزنطية، إذا تصدعت أركان هذه العلاقة بالتدريج على مدى قرنين من الزمان، وبلغت ذروتها فى عهد الإمبراطور هرقل ٦٤٠ - ٦٤١ التى تخللها احتلال الفرس لمصر حوالى عام ٦١٦ وخروجهم منها نهائيا عام ٦٢٩ ...

ومع عام ٦٣٩ كانت تتقدم القوات الإسلامية لتحرير المنطقة من الروم ومن ضمنها مصر.

وهكذا خلال هذين القرنين ازدادت الأمور الاقتصادية سوءا وتفككا، وكذلك انهارت إدارة البلاد، واشتد الصراع الديني بين المصريين والبيزنطيين (الروم)، وكل هذه العوامل أذكت روح الكراهية ضد الروم المحتلين، وأشعلت روح الاستقلال لدى المصريين، ودفعتهم إلى إحياء الحضارة المصرية الأصيلة الفرعونية، والتخلي عن الحضارة البيزنطية، واتخذت هذه النزعة الاستقلالية عدة مظاهر أبرزها: التخلي عن التقويم الروماني، واستخدام تقويم الشهداء، وأيضا التخلي عن اللغة اليونانية، وهي اللغة الرسمية في مصر البيزنطية، واستعمال اللغة المصرية بعد كتابتها بالحروف الإغريقية، وهي التي عرفها العرب باسم القبطيه واللغة المصرية. ونود في هذه المناسبة التنوية إلى أن اللغة القبطيه المصرية هي لغة الشعب المصري، وليست لغة الدين المسيحي.

والإنجيل تم ترجمته إلى اللغة المصرية (اللغة القبطية). ومن مظاهر الإحساس بالعزة المصرية، والجنوح للنزعة الاستقلالية ـ إحياء التراث الحضاري المصري القديم (الفرعوني) مما لحق به من مؤثرات الحضارة البيزنطية، ومن أهمها المجال القانوني. فقد سبق أن ذكرنا أن المصريين في ظل ومبدأ شخصية القوانين، لم يتخلوا عن قوانينهم، وإن كانوا قد تأثروا بالقوانين الداخلة عليهم، سواء كانت يونانية أو رومانية، مما أدى إلى ظهور قانون مختلط، تكون أهم عناصره من القانون المصري، كما أنهم احتفظوا بقانونهم بعد اكتسابهم الجنسية الرومانية، بل إن القانون الروماني هو الذي تأثر بالقوانين المصرية، وحينما دون جستنيان القانون الروماني في مجموعاته الشهيرة، كان للقانون المصري وغيره من القوانين الشرقية أثر ظاهر في قوانين جستنيان، ولم تكشف لنا الوثائق عن كيفية تطبيق جستنيان له في مصر، ولكن وثائق القرن السادس تقطع بأن المصريين كانوا يطبقون قانونهم المصري الذي يعتمد بصفة أساسية على القانون الفرعوني في آخر عصور وصور تطوره، وهو ما اصطلح على تسميته بالقانون القبطي، بمعنى القانون المصري.

وفى صدد العلاقة الوطيدة والحميمة بين المجتمع المصرى (القبطى) مسيحيين ومسلمين، فإنها كلها خرجت من عباءة المجتمع المصرى الواحد - خرجت من داخل جدران البيت المصرى القديم ومن حضن الأم المصرية، فالتقاليد المصرية والحياة الاجتماعية والفنون فى مصر لها أصل واحد. خذ مثلا الموسيقى المصرية الكنسية لها طعم مميز، ومذاق خاص فى الترتيل والترديد والتنغيم، يختلف عن غيرها من الكنائس فى شتى أنحاء العالم، حتى الكنائس الارثوذكسيه إن كانت روم أرثوذكس أو أرثوذكس شرقيين هذا يؤيد ما ذهب إليه المؤرخون والباحثون من أن أنغام الكنيسة (المصرية) ترجع فى مجموعها إلى العصور المصرية القديمة (عصور الفراعنة)[١٦]، فلا غرو فى ذلك؛ فإن الآلات الموسيقية هى نفسها منذ فجر التاريخ، لدرجة أن المصريين القدماء هم الذين اخترعوا النوتة الموسيقية وتم إستقرارها وتسجيلها على يد «ديديموس» الضرير فى القرن الرابع الميلادى.

وفى نفس الوقت نجد التواشيح الإسلامية المصرية التى تتردد فى مصر - تختلف وتتميز عن أى تواشيح فى أى قطر إسلامى آخر، وكذلك تلاوة القرآن الكريم وتجويده وترتيله وطريقه رفع الاذان فإن مصر تختلف عن كل بقاع الدنيا الإسلامية فى النطق وسلامته ، والترديد وعذوبته، والتنغيم وحلاوته؛ لذلك نحن نعتقد أن هذا من ذاك ، وأنهم عنصر واحد، فالأم المصرية منذ الفراعنة هى التى تعود طفلها النطق السليم وتعلمه الحروف، فهؤلاء الذين يرفعون الآذان هم أبناء وحفدة الشمامسة والقساوسة الذين يقيمون التراتيل، وهم كلهم حفدة لكهنة آمون ولا غرو فى ذلك؛ فإن عثمان بن سعيد - صاحب الصوت الرخيم - تعد قراءته إحدى قراءات القرآن الشهيرة، وهى القراءة الشهيرة بقراءة ابن ورش، وقد سميت باسمه حيث كان يسمى بابن ورش، نظرا لشدة بياض بشرته.

وقد اعتنق الإسلام فى بداية القرن الثانى الهجرى وتوفى فى نهاية القرن وكان حافظ للقرآن ويجيد تلاوته.

وهذه صوره من الصور التى مازالت ترددها ذاكره التاريخ، وهى قليل من كثير.. طواها النسيان فى خضم أحداث التاريخ المصرى خلال عشرين قرناً من الزمان...

هوامش الفصل الرابع عشر

(١) القس منسى يوحنا .. تاريخ الكنيسة القبطية (ص٣٠٧) .

(٢) نفس المصدر (ص٢٩٠) .

(٣) القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة (ص٢٩٠) .

(٤) القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - (ص٢٩٠ وما بعدها) .

(٥) د. صوفى أبو طالب - تاريخ القانون فى مصر - دار النهضة العربية (ص١٤) .

(٦) دكتور صوفى أبو طالب - تاريخ القانون فى مصر - مكتبة النهضة العربية (ص٢٢) .

(٧) المصدر السابق (ص٢٢) .

(٨) دكتور صوفى أبو طالب - تاريخ القانون فى مصر - مكتبة النهضة العربية (ص٢٢)

(٩) دكتور صوفى أبو طالب - تاريخ القانون فى مصر - دار النهضة العربية (ص٢٤) .

(١٠) دكتور صوفى أبو طالب - تاريخ القانون فى مصر - دار النهضة العربية (ص٢٦) .

(١١) الدكتور صوفى أبو طالب - تاريخ القانون المصرى - دار النهضة العربية (ص٢٩) .

(١٢) د. صوفى أبو طالب - تاريخ القانون فى مصر - دار النهضة العربية (ص٣٠) .

(١٣) د. صوفى أبو طالب - تاريخ القانون المصرى - دار النهضة العربية (ص٣٢) .

(١٤) د. صوفى أبو طالب - تاريخ القانون فى مصر - دار النهضة العربية (ص٣٢) .

(١٥) القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة (ص٣٠٧) .

(١٦) إبراهيم صبرى معوض - تاريخ حياة القديس إثناسيوس - دائرة المعارف القبطية (ص٩٦) .

المصريون وقود الحروب

واستمر الشعب القبطى - المصرى - (مسلمون ومسيحيون) على مدى قرون فى زورق واحد يمخر عباب التاريخ، وتتقاذفهم أمواجه، موجة وراء موجة، وموجات حكم ضالة فيما بين الطولونيين، والإخشيديين، والفاطميين، وموجة حكم الأيوبيين الرشيدة.

وموجات أخرى تترية، وموجات صليبية ضارية، ومصر فى النهاية تبقى مصر، والمصريون وقود الحروب هم المصريون صامدون فى وحدة وطنية عبقرية.

«مصري»

المصريون وقود الحروب

وبعد انتهاء حكم عمر بن الخطاب جاء عثمان ومن بعده على بن أبى طالب، وجاء الخلاف بين المتشيعين لعلى وبين أهل معاوية من الأمويين، واستقر الحكم للأمويين، وكانت الفتوحات الإسلامية تتوالى فى تحرير الشعوب من الاستعمار البيزنطى فى الشمال، والاستعمار الرومانى فى شمال غرب أفريقيا والشمال حتى أسبانيا، والاستعمار الفارسى فى الشرق فيما بين العراق وماوراء النهرين حتى حدود الصين.

وجاء العباسيون لتصفية حساباتهم مع الأمويين واشتد القتال، واستمرت القلاقل فيما بين فترة استقرار حكم العباسيين لأكثر من قرنين من الزمان، لم تسلم مصر من القلاقل والانتفاضات ـ سيطر على البلاد خلالها الطولونيون، والاخشيديون، والفاطميون، والأيوبيون.

وهكذا كان الحكم فى مصر كالكراسى الموسيقية تتناوبه مراكز القوى الموجودة على الساحة فى هذه الفترة، بينما الشعب المصرى (القبطى) – مسيحيون أو مسلمون – يقاسى من كل هذه الحروب التى ليس له فيها ناقة ولا بعير، مابين استقرار يتشح بوشاح العدل.... فترة حاكم عادل رشيد، قوى، وولاة عظام مثل عمرو بن العاص ـ كما جاء ذلك تفصيلا ـ وعمر بن عبد

العزيز، وابن طولون وخمارويه، وكثيرين يعرفهم التاريخ، وآخرين لا يعرفهم أحد في هذه العصور الوسطى المظلمة.

وفى العصر الحديث مازالت ذاكرة التاريخ تشيد بوالى مصر العظيم محمد على، الذى رعى العلم والتعليم، ولم يفرق بين مسيحى ومسلم.

وأيضا مرت على مصر فترات يعم الظلم والاضطراب فيها أرجاء البلاد، عندما يكون الحاكم ظالما وضعيفا، هكذا على كل أفراد الشعب، لم يفرق الحاكم بين مسلمين ومسيحيين؛ فالعدل والظلم ليس لهما دين ولا وطن... فالعدل عدل والظلم ظلم، فالعدل يرفرف على المسلمين والمسيحيين، وأيضا الظلم عندما يخيم فإنه يخيم على المسلمين والمسيحيين سواء بسواء، فقد حدث فى أثناء وجود المأمون بمصر أن مر بقرية تسمى «طأ النمل» ولم يشأ أن يعرج عليها لصغرها فخرجت خلفه عجوز قبطية - ولا ندرى إن كانت هذه العجوز مسيحية أو مسلمة؛ إذ لفظ قبطى كان يطلق على كل مصرى مسيحيا كان أو حديث الإسلام، وهذا يفرق بين المسلمين الجدد والقادمين مع قوات تحرير مصر من البيزنطيين وجيش الروم - وطلبت منه أن يشرف قريتها، فلبى دعوتها، وقامت العجوز وولداها بتقديم طعام فاخر له ولجنوده حتى استعظم ذلك، ولما أصبح الصباح وعزم المأمون على الرحيل حضرت إليه العجوز ومعها عشرة وصيفات، وفى يد كل وصيفة طبق عليه كيس من ذهب مطبوع فى عام واحد، فهش المأمون وطلب منها أن تعيد ذهبها، فأبت وقالت له لا تكسر قلوبنا ولا تحتقرنا، ولما سألها من أين لك كل هذا تناولت قطعا من الطين وقالت له «إن الذهب من هذا الطين، ولا تنس عدلك يأمير المؤمنين»، فأعجب بها وبسعة حالها وقبل هديتها وأقطعها عدة ضياع، ووضع عنها خراج مائتى فدان[1].

وخلال حكم الإخشيد ومن بعده كافور ....

كانت مصر تنعم بعدل شامل، حتى مع انخفاض النيل ثلاث سنوات متتالية، وكانت النتيجة الحتمية لهذا النقص قلة المحصول، وغلاء الأسعار

فعمت المجاعة، وأيضا حدثت كارثة الحرب التى شنها ملك النوبة على جنوب مصر، وقد نجح أهل النوبة على الفتك بأهالى الصعيد، وإشاعة الذعر بينهم.

وعلى الرغم من حروب النوبه هذه، فقد ظل المصريون - مسلمون ومسيحيون - على ولائهم لكافور، وكان حاكما محبوبا لما امتاز به من عدل وإنصاف بين رعاياه جميعاً على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم، بل إن أقرب الوزراء إليه كان مسيحيا اسمه أبو اليمن قزمان بن مينا(٢).

وكانت الإعياد المسيحية يحتفل بها مثل الاحتفال بأعياد المسلمين التى سمح بإقامتها عمرو بن العاص منذ أكثر من ثلاثة قرون مضت بعد تحرير مصر من الفرس والبيزنطيين.

وكان الهدوء النفسى المنبعث من الاستقرار والعدالة خير عون للأنبا مينا الثانى فى جهاده، فانصرف إلى بناء الكنائس والمدارس الجديدة، وترميم القديم منها، وحث الأولاد الصغار من الأقباط على ارتشاف العلم، فسارع الآباء والأمهات إلى العمل بنصيحته وتعليم أبنائهم.

ومن بعد الإخشيديين (الدولة الإخشيدية) جاء الفاطميون من (شمال أفريقيا) وحكموا مصر؛ لمجرد أنهم ادعوا زورا أنهم من نسل الرسول عليه الصلاة والسلاة وجاءوا معهم ببدع، وخرافات أجدادهم مدعين الأساطير!!..

واستطاعوا أن يحكموا هذا الشعب المسكين؛ فيقربوا هذا تارة ويقربوا ذاك تارة أخرى، وتارة يكون الحاكم منهم عادلا، وتارة ظالما جائرا.

فكان المعز لدين الله الفاطمى سياسيا داهية، وكان مثالا يحتذى، سار على منواله قائده جوهر الصقلى، إذ اتبع السياسة الحكيمة التى اختطها المعز، فأحسن معاملة المصريين، واتبع سبيل العدل والإنصاف مع الجميع، فلم يفرق بين مسيحى ومسلم، وأنس إلى أبى اليمن الكاتب المسيحى الذى كان وزير لكافور الإخشيدى؛ لما وجده أمينا مخلصا فى عمله، وخوله سلطة أوسع مما كان يتمتع بها فى عهد كافور(٣).

كاد الفرح أن يكون شاملا لولا أن النيل جاء ناقصا فى فيضانه. وكان العصر الفاطمى إجمالا من أعجب العصور التى اجتازتها مصر، ذلك التاريخ الملئ بالأعاجيب، فقد عرف فيه المصريون معنى الحرية الدينية فى أوسع حدودها، كما ذاقوا من الاضطهاد فى سبيل العقيدة الكثير بما لا يتحمله بشر.

وسوف نطالع مع الكتاب الثالث من تاريخ الكنيسة القبطية للمؤرخة إيريس حبيب المصرى «وكان المعز نفسه أكثر الحكام تسامحا وأوسعهم صدرا.. وكان إلى جانب ذلك سياسيا محنكا، ذا مقدرة بالغة على الأخذ بأسباب النجاح، ودراية بحسن استغلال الفرص، كذلك كان واسع العلم، له قوة عجيبة على استيعاب اللغات، فهو لم يبرع فى حفظ الشعر العربى فحسب، بل كان يجيد اليونانية والسريانية ولغة شمال أفريقيا، كما كان يلم بالسلافونية ليتحدث بها مع العبيد الذين اقتناهم من شرق أوروبا، وكان خطيبا بارعا إلى حد أنه كان يستذرف الدموع من عيون سامعيه، وفوق هذه الميزات كان جوادا سخيا، كما كان يحب العدالة والإنصاف»[٤]. وقد حظيت مصر بالسلام الاجتماعى خلال فترة حكم الفاطميين. فمثلا كان خلال حكم «العاص» الخليفة الفاطمى الذى يتسم بالعدل والوئام بين المسلمين والمسيحيين، وكان السلام يرفرف على بلاط الخليفة الذى يضم المسلمين والمسيحيين، وكان على رأسهم أبو المعالى وكان كاتبا خاصا للخليفة. وهكذا كان يتناوب المراكز الكبرى فى بلاط الخلفاء السلاطين – المسيحيون والمسلمون طبقا للحاجة والكفاءة المطلوبة لكل وظيفة، وأيضا لإمكانيات كل هؤلاء، فالحاكم الصالح يلجأ لذوى الضمير إن كانوا مسلميين أو مسحيين، ومن أمثلة الحكام الصالحين صلاح الدين الأيوبى الذى استوزر أحد المسيحيين كاتبا خاصا له، وكان من عائلة قبطية كريمة هى عائلة شراقى، وقد منحه صلاح الدين الأيوبى لقب الشرف والرئاسة، فصار معروفا باسم الشيخ الرئيس صفى الدولة ابن أبى المعالى[٥].

وظل يخدم صلاح الدين الأيوبى حتى وفاته، وتهلل المصريون مسيحيون ومسلمون، وتنسموا الحرية، وأجمع المسلمون والمسيحيون على الصلاة من أجله[٦].

كان صلاح الدين اسما على مسمى؛ فقد بدأ معه عهد من الاستقرار والإصلاح والعدالة فقد أنصف جميع المصريين على السواء، وقد اتسمت عدالته بالكرم والسماحة، فأحبه المصريون حبا جما، وأخلصوا له الولاء، وكان انتصاره على القلوب حاسما.

وعموما كان خلال كل هذا الخضم، الشعب فى واد والحكام فى واد آخر، ومرجع ذلك إلى الحروب الدائرة فى منطقة الشرق الاوسط، والتى مركزها مصر، إن كانت حروبا صليبية، أو حروبا للتتار، أو حروب العثمانيين، لكثرة القلاقل. كل هذا لم يعط لمصر ولا لشعبها فرصة الالتحام بالحكام، وكانت تزداد الهوة بين الشعب والحكام... فالشعب لا يشارك فى الحكم، ولكن دوره فقط كان العمل فى فترات البطالة، فيما بين الفيضان والحصاد، فكان الفلاحون يصلحون الجسور، ويمهدون الطرق ويصلحون معداتهم.

ومع نهاية الدولة الفاطمية فى عهد خلافة آواخر الخلفاء (المستعلى)، عم الفساد كل أرجاء مصر حينذاك. وتوفى البابا ميخائيل، وتم ترشيح اثنان للبطريركية من رهبان دير أبى مقار.

واختلف المسيحيون فى اختيار أحدهما لأسباب كنسية، وأخيرا تم اختيار «مقار الثانى» البطريرك التاسع والستون، على شرط أن يلتزم بالتعهد بدفع مرتبات باهظة سنوية، على غير رغبته. ولما صمموا عليه وضايقوه فر منهم وانزوى فى أحد الأديرة، ولكنهم أحضروه رغما عنه، وتنازل إكليروس الإسكندرية عن غلوائهم، وقبلوا أن يدفع لهم ٢٠٠ دينار كل سنة فقط[٧].

وعلى أثر اختياره ورسامته دعاه الأساقفة إلى رفع القربان فى الكنيسة المعلقة، فهاج رهبان دير أبى مقار لمخالفة ذلك لعادة السلف الذين كانوا يرفعون أول قربانهم فى ديرهم. وتنازعوا مع الأساقفة والأراخنة، وألحوا طالبين عدم انقطاع عادة ديرهم، فأجابوا طلبهم وأخذوا البطريرك وانطلقوا به إلى دير أبى مقار، واحتفلوا به احتفالا عظيما.

وفى عهد هذا البابا توفى الأنبا شنودة أسقف مصر، فطلب منه وجهاء الأقباط وفى مقدمتهم الشماسى يوحنا بن صاعد – أن يرسم لأيروشيتهم أسقفا

عوضا عنه، وكان البطريرك لا يرغب في وجود أسقف خاص في أيروشية مصر؛ خوفا من مزاحمته إياه، لأن أسقف مصر كان يعادل البطريرك في المنزلة ويزاحمه على مراكزه ودخله، فلم يجبه إجابة تامة، بل كان يعدهم من يوم لآخر حتى أدركوا أغراضه، فتعصبوا ضده وأصروا على طلبهم حتى التزم رغما عنه أن يكمل مرغوبهم(٨).

وجاء بعد وفاة البابا مقار الثانى – البابا غبريال الثانى البابا السبعون.

وجاء بعده ميخائيل الثالث البابا الحادى والسبعون ولم يستمر فى كرسى البابوية إلا شهورا قليلة. وقيل إنه مات مسموما، والذى أقدم على قتله أحد الرهبان(٩).

وجاء بعده يوحنا الخامس وهو البطريرك الثانى والسبعون.

وقد حدثت خلافات وفتن فى الكنيسة شأن مصر كلها حيث القلاقل والانتفاضات، فقد كانت الحروب الصليبية مستعرة.

جاء بعد ذلك يوحنا السادس البابا الثالث والسبعون والذى تم اختيار المسيحيين له بناء على مشورة بعض أصحاب الكلمة من إخوانهم المسلمين، وبالفعل استجاب المسيحيون لهذه المشورة باختياره لهذه الوظيفة الأصلية، وذلك فى عهد صلاح الدين الأيوبى(١٠).

واستمر فى كرسى البابوية حتى توفى فى عام ١٢١٦ بعد أن قضى على الكرسى ٢٧ عاما، وكان لموته رنة حزن؛ لأنه كان محبوبا من الجميع مسيحيين ومسلمين(١١). وهكذا نجد أن الشعب المصرى كله أخوة فى السراء والضراء، وفى مناخ الحكم العادل تسير الأمور مستقيمة سلسلة، ولكن فى مناخ الظلم والاستبداد نجد أن هذا الظلم ينعكس على كل الشعب، مسلميه ومسيحييه.

وهكذا انعكس عدل صلاح الدين الأيوبى على كل أنحاء البلاد. واستقرت الأمور وتعاطف كل الشعب لمجابهة العدو المشترك، وهو هجوم الفرنجة على مصر، ووقوف المصريين كلهم وقفة رجل واحد (مسيحيين ومسلميين)..

هوامش الفصل الخامس عشر

(١) المقريزى – الواعظ والاعتبار (الجزء الأول) – مكتبة الثقافة الدينية – طبعة ١٩٨٧ (ص ٨١).

(٢) إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة القبطية – الكتاب الثالث – مكتبة المحبة (ص ١٥) ومابعدها.

(٣) إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة القبطية – الكتاب الثالث (ص ١٨) ومابعدها.

(٤) إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة القبطية – الكتاب الثالث – مكتبة المحبة (ص ٢٢) ومابعدها.

(٥) نفس المصدر (ص ١٨١) ومابعدها.

(٦) نفس المصدر (ص ١٨٢) ومابعدها.

(٧) القس منسى يوحنا – تاريخ الكنيسة القبطية – مكتبة المحبة (ص ٤٠٥) ومابعدها.

(٨) المصدر السابق (ص ٤٠٦) ومابعدها.

(٩) المصدر السابق (ص ٤٠٨) ومابعدها.

(١٠) المصدر السابق (ص ٤٠٩) ومابعدها.

(١١) المصدر السابق (ص ٤١٠) ومابعدها.

عصر ظلام المماليك

وصار لا يترقى فى هذه الدولة إلا من يبذل المال، ولو كان من أوباش الناس أو السوقة؛ وذلك لشره المماليك فى جمع المال.

ابن تغرى بردى

عصر ظلام المماليك

عزيزى القارئ هيا نقرأ معا كتب التاريخ، وما سطره مؤرخو هذه العصور حيث توالى على مصر فى هذه الحقبة عدد كبير من السلاطين المماليك، وتنقسم إلى مرحلتين: المرحلة الأولى: وهى المرحلة التى حكم فيها المماليك البحرية من عام ١٢٥٠م حتى عام ١٣٨٥ ميلادية، والمرحلة الثانية: حكم فيها المماليك البرجية من عام ١٣٨٥م حتى عام ١٥١٧ ميلادية، امتدت فترة حكم المماليك البرجية حوالى ثلاثة قرون تخللتها المؤامرات والانتفاضات والانقلابات والثورات الشعبية[1]، فكان المماليك أحيانا لا يبقون على كرسى السلطنة فى مصر إلا عدة شهور لا تتجاوز العام الواحد، مثل ما حدث للسلطان الكامل شعبان، وقليل من السلاطين طالت مدة حكمهم بعض الشئ، مثل السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والذى بالرغم من ذلك تخللت فترة حكمه انقلابات عديدة، ترك فيها كرسى الحكم وغادر البلاد. وقد أخبرنا المؤرخ المصرى المقريزى، والذى كثيرا ما أدان فترة حكم المماليك – «إن هذا النظام كان يعتمد على الإقطاع الذى يتصف بالسلب والنهب. وإجمالا كان الحكم يتصف بالقرصنة».

وكل هذه الأمور أدت إلى تفكك المجتمع المصرى وتخلفه، خاصة بعد أن صار نظام البذل والبرطلة – أى الرشوة – يمثل المورد الأساسى والدخل الثابت لموظفى الدولة، فالدولة خزينتها فارغة؛ فلا مرتبات ولا مكافآت للموظفين، فكانت الوظائف تشترى.

وهكذا كان الضحية هو الفلاح.... مما دفع الكثير منهم إلى ترك زراعته، فأصبحت الحقول مهجورة لا فلاحين ولا زراعة. وهكذا كانت البلاد من الناحية الزراعية، فقد كانت الدلتا معظمها مستنقعات من بقايا فيضانات السنين الماضية، تغطيها النباتات الشيطانية والأحراش، فكانت الفيضانات تأتى ثائرة مدمرة لكل شئ، وتقضى على كل حياة، وفى النهاية ينحسر عن ضحايا من الأطفال والشيوخ والنساء، وكذلك حيوانات الحقل والماشية، ناهيك عن الكلاب الضالة والثعالب والحيونات المفترسة التى تهدد كل من نجا من آثار الفيضان، حتى فى حالة انخفاضه يعيش المصريون فى قلق، فانخفاض النيل يسبب قحطا وجفافا يؤثران على الزراعة والإنتاج. فكانت المجاعات تنتشر وتسود البلاد، هكذا كان الناس مهددين فى كلتا الحالتين، سواء فاض النيل وارتفع، أم انخفض.

لذلك انعدم الأمن والأمان، وانتشر قطاع الطرق فى كل قرية أو كفر أو نجع أو مدينة، خصوصا المدن التى تقع متاخمة للصحراء هكذا كان النظام الاجتماعى والاقتصادى، أو فلنقل: هكذا كانت الحياة الاجتماعية عموما، أساسها البذل والبرطلة والرشوة.

هكذا الفساد لا يعرف دينا ولا وطنا، فالمسيحى والمسلم سواء أمام الرشوة والبذل والبرطلة، من يدفع أكثر لوظيفة معينة ينالها، فإذا دفع المسيحى أكثر من المسلم وأكثر من اليهودى لينال وظيفة معينة نالها، وإذا دفع المسلم أكثر نالها، وإذا دفع اليهودى أكثر نالها... هكذا كان من يتقدم للوظائف الكبرى كأنه يتقدم إلى مزاد، من يدفع أكثر، يحصل على مراده من الوظائف العليا..

ولنقرأ معا ما كتبه المؤرخ الصفدى فى زمن السلطان (الناصر) قلاوون، فقد كانت سمعته السيئة تملأ الآفاق، وكذلك كل المحيطين فى بلاطه، وفى حاشيته، وفى وزرائه، ووكلائه ونوابه، هذا السلطان عندما تولى الأمر بالبلاد، اختار نائبا له على حلب يدعى «قراسنقر».

وكانت حلب تابعة لمصر حينذاك، وقد عين بدوره أحد اليهود فى وظيفة مستوفى الأوقاف، وهى من الوظائف التى تتمكن من رقاب الناس، من خلال مايؤخذ من الممولين سواء بحق أو بغير حق، وبطرق عديدة من وسائل الابتزاز، وقد وصل هذا السلوك حتى إلى الفقهاء ورجال وأهل الأوقاف، فما كان منهم إلا أنهم شكوه بدورهم للنائب «قراسنقر» فاستجاب لهم وعزله عن منصبه، أما اليهودى فلم يستجب لهذا العزل، بل قام بالسعى والبذل والرشوة ونجح فى العودة مرة ثانية إلى منصبه، ومن ثم عاملهم أشد من المرة الأولى وزاد من ابتزازه، فشكاه أهل الأوقاف مرة ثانية، فتم عزله، ولكن اليهودى بدوره لم يستكف وواصل السعى ورجع إلى وظيفته للمرة الثالثة، وكانت مهادنة نائب حلب لموظف مستوفى الأوقاف لا تأتى من فراغ، وكان هذا فى الحقيقة يقابله علاقة حميمة ووطيدة بين قراسنقر والسلطان منصور قلاوون – فإن تعيين قراسنقر هذا فى وظيفة نائب للسلطان على حلب جاء أيضا بالرشوة، هذه العلاقة المشبوهة التى تتسم بالريبة وسوء السمعة لا تفسير لها سوى أن السلطان كان له نصيب من الرشاوى التى ينالها النائب.

وهذا الظلم الذى كان يقع على الشعب كان مبعثه هو الفساد الذى يخيم بجناحيه على أرجاء وربوع مصر وشعبها، ولم يكن يفرق بين المسلمين والمسيحيين، فكان الذهب هو الأساس للوصول للوظائف العليا والمراكز الرفيعة.

وقد يقول قائل إن آراء بعض المؤرخين كانت متحيزة مثل المقريزى الذى يعتبر مصريا بحكم تركيبته الاجتماعية، وكان له موقف مخالف ومناهض للنظام وحكم المماليك. ولكننا فى هذا الصدد نستشهد برأى «ابن تغرى بردى» حيث يلخص لنا حال البلاد فترة حياته إبان حكم سلاطين المماليك، وذلك فى مجال مايعيبه على واقعة السلطان المؤيد شيخ، وهى توليته نيابة الإسكندرية

فى صيف ١٤١٦ - «لقطلوبغا» أحد الأمراء المماليك عن طريق الهدايا العينية والنقدية قائلا: «وصار لا يترقى فى هذه الدولة إلا من يبذل المال، ولو كان من أوباش الناس أو السوقة لشره المماليك فى جمع المال» هكذا كان يصل المسلم والمسيحى إلى أعلى المراتب وأرفع المناصب بالرشاوى، وأيضا ينزل من أعلى عليائه إلى أسفل سافلين نتيجة وشاية أو حقد المنافسين، وهكذا نجد أن قائمة المظلومين من المسلمين والمسيحيين لا حصر لها.

وشهادة «ابن تغرى بردى» هذه لها أهميتها؛ إذ أنه كان بالدرجة الأولى مملوكا، وهذه بطبيعة الحال تجعله منحازا للماليك؛ لارتباط المصالح وتشابكها وتعقدها، علاوة على أوجه المصاهرة والدم، فهو عموما يحسب على نظام المماليك، ومن نسيجه، وضمن تكوينه دما ولحما وعظاما حتى النخاع.

ولكى نحس بهذا النظام ومدى ما انتابه من خلل، يجب أن نرجع قليلا إلى الوراء لنعرف جذور هذا النظام وبذوره التى كانت تحمل فى طياتها عوامل فشلها، ولنستعرض معا قصة المماليك، ونشأة هذا النظام وتطوره عبر القرون الماضية، وكيف كان يجلب هؤلاء المماليك من المناطق المختلفة من العالم، إذ كانت تجارة الرقيق، تجارة رابحة فى العصور الوسطى.

وكانت تجارة الرقيق فى اختيارها، واقتناصها الأطفال والصبية من شتى بقاع العالم - لا تعرف دينا ولا جنسا، فكان هؤلاء الأطفال من مناطق مختلفة فى آسيا من الشرق: شراكسة أو ترك أو أبخاز، أو من الغرب من أوروبا كانوا: صقالبة أو آفار أو ألبانا، أو من الجنوب أفارقة كانوا أو أجناس. وأيا كان دين هؤلاء أو أولئك، كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهودا هكذا كانت تجارة الرقيق تجارة رابحة، فهذه حقيقة فى تاريخ العالم... وهكذا كان هؤلاء الأطفال المساكين يخطفون ويباعون فى الأسواق ويساقون إلى الملشيات التى تحكم مصر، ويحملون شعارات، فهم لا دين لهم ولا وطن. وأصبحوا يتحكمون ويقبضون على مجريات الأمور بأيد من حديد: على كل نواحى الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية... إلخ حتى أصبحوا يشكلون أكبر مراكز القوى التى أثرت على الشعب المصرى بثرواته وإمكانياته البشرية فى هذا

الوقت، بل تعدى الأمر ذلك إلى الحد الذى حكموا فيه باسمهم، وسيطروا على أقدار البلاد، حيث جمعوا فى أيديهم مقاليد الحكم والسيادة، وأصبحوا بنظامهم هذا يشكلون المؤسسة العسكرية التى تحكم بالفعل، وأصبح هذا النظام مع الوقت نظاما مستقرا شمل المجتمع، لثلاثة قرون، تم فيها حكم مصر بيد من حديد، فحجبوا الشعب المصرى عن الاشتراك فى الحكم أو حتى الدفاع عن نفسه، فالمصرى مسيحيا كان أو مسلما، واجبه فقط فلاحة الأرض وزراعتها، وأيضا ما هو حول فلاحة الأرض من إنتاج وحراسات يقومون بالعمل والسخرة وحفر الترع وتطهير القنوات وشق الطرق... هكذا الخدمة فى صمت بالغ، لافرق بين مسلمين ومسيحيين، فكان المصرى لا يشارك فى الدفاع عن وطنه، وغير مسموح للمصرى بحمل السلاح سواء كان مسلما أو مسيحيا - كما ذكرت من قبل - فالمصريون منذ حملة رمسيس لم يشاركوا فى الدفاع عن وطنهم.

اسمح لى عزيزى القارئ أن نرجع قليلا إلى الوراء لنعرف نشأة هذا النظام مع بداية القرن الثامن الميلادى الذى واكب نهاية الدولة العباسية، حيث بدأ هذا النظام بمجموعات صغيرة فى قصر الخليفة وبين حاشيته بغرض حماية خصوصيته، إذ كانوا حينذاك أهل ثقة، فليس لهم عصبة يعملون لحسابها، فقد كانت المؤامرات تسود المناخ العام للحكم خلال دهاليز وأروقة القصور، فما زالت جيوب الأمويين تعمل وتدبر، فالدولة الأموية فى الأندلس فى أقصى الغرب فتية قوية مازال شبحها يهدد الدولة العباسية فى الشرق، ولها عملاء وجواسيس فى كل مكان، والفرس من جانب يدبرون، والعرب لهم مطالبهم فى الحكم، وأيضا الهاشميون وأواصر القربى التى تربطهم بالعباسيين يكيدون ويعتقدون أن لهم نصيبا فى الخلافة، والإسلام كان بعيدا عن كل هذا الصراع، وتعاليم الإسلام بريئة من كل هذا الدس وهذا الطمع، وهذا الجشع. ومع هذا الجو الزاخر بالمؤامرات والدس والكيد بدأت تزداد أهمية المماليك ويتعاظم دورهم، ومع هذا المناخ وصلوا إلى أعلى المراتب واحتلوا أعلى المناصب، فكان الخلفاء يعتمدون على تزويد ودعم البلاط بحاشية من هؤلاء المماليك الشبان، وكان الولاة فى الولايات المختلفة والنواب يقلدون الخليفة العباسى بدعم

بلاطهم بحرس خاص من المماليك للأبهة والعظمة. ومع الوقت أصبحت هذه الحراسات ميلشيات، وتطورت الميلشيات إلى جيوش صغيرة، إلى أن جاء الأيوبيون فاستخدمهم الناصر صلاح الدين الأيوبى فى الحروب بأعداد كبيرة، فقد اشترى اثنى عشر ألفا من المماليك الجراكسة والأتراك، ودربهم على كل فنون القتال والفنون الحربية الأخرى[٢]، وصاروا أشد الجنود بأسا وإقداما وشجاعة وبطشا. واستمر هذا النظام فى الدولة الأيوبية إلى أن جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب فى منتصف القرن الثالث عشر، ووضع المقاييس لاختيار المماليك، وجعل من جزيرة الروضة المكان المخصص لتدريبهم، وبعد حكم الأيوبيين آلت مصر إلى سيطرة هؤلاء المماليك، وتصرفوا فى أموال الدولة على أهوائهم، ثم لم يلبثوا أن عينوا السلاطين فيما بينهم، واستمروا فى شراء مزيد من المماليك، فتضاعف عددهم ونمت فيهم العصبية التى ساعدت على تنفيذ أحكامهم والتغلب على سواهم، وكانت قيمة الإنسان المصرى لا تساوى شيئا، لا فرق بين مسلم ومسيحى، ولكن الفرق فقط كان هو من يدفع أكثر للحكام المماليك من ناحية، والسلطان من ناحية أخرى، وهؤلاء وأولئك منفصلين عن المجتمع والشعب المصرى كل الانفصال، فهم لا يعرفون قيمة للإنسان إلا الدينار والذهب والفضة، ولا يؤمنون إلا بالقوة، وهم يحمون أنفسهم ونظامهم بقوة الميلشيات والجيوس العسكرية من هؤلاء الشباب الغر المشترين من سوق النخاسة من مناطق أواسط آسيا ومناطق أخرى متفرقة من العالم – كما جاء ذكر ذلك من قبل – حيث يباع هؤلاء الأطفال بيع الأرقاء من أهلهم لظروف فقر أو قحط، أو لظروف اعتداء وإغارة قبائل على قبائل أخرى، تستحل معه كل ما تحصل عليه من مكاسب من القبائل المهزومة[٣]، وأيضا لا فرق بين القبائل المسلمة أو المسيحية أو الوثنية ، فالعبودية لا دين لها ولا وطن، والنخاسون لا يعرفون دينا ولا وطنا ولكن دينهم هو الدنيا والذهب فقط، وكانت مقاييس الاختيارتخضع لمعايير ومواصفات على رأسها: حداثة السن والذكاء والملاحة وقوة النظر وحسن التصرف، وقبل كل شئ اللياقة الجسمانية المتكاملة، وقوة التحمل الفائق والعزيمة، ولا يشترط فى هؤلاء المماليك أن

يكونوا من أصل مسلم أو مسيحى أو يهودى أو وثنى، وكان لابد أن يتسم هؤلاء الأطفال والشباب بالولاء والأمانة؛ لأنهم سيكونون مسئولين عن حماية النظام بما فيه الحاكم، سواء كان خليفة أو سلطانا أو حتى واليا، إذ أنهم أدوات حماية هذا النظام القاسى البغيض من خلال تواجدهم فى السلطة، فهم يتنقلون بين والى هذا القصر أو ذاك، وقد يقبضون على زمامه دون أن تربطهم به صلة أو وطن أواصر قربى.

وقد كان المكلفون من قبل السلطات لاختيار الشباب الجدد يمتازون بالفراسة والدقة فى اختيار هؤلاء الأطفال من تجار الرقيق، الذين كانوا يجوبون مراكز وأسواق النخاسة العالمية فى أواسط آسيا وتخوم القوقاز، ومناطق عديدة أخرى من العالم القديم، وكانوا يمضون الشهور والأيام فى معاينة البضاعة من أطفال وشباب وفتيات، وتطبيق قواعد القياس لاختيار الأحسن. وهكذا كانت هذه الاختيارات مثل هذه الاختيارات التى تعقد حاليا من كشف طبى ورياضى ونفسانى وكشف الهيئة، للمتقدمين للكليات العسكرية، وهكذا ماأشبه اليوم بالبارحة.

وعندما يتم شراء مجموعة من المماليك الصغار، يدفعون إلى معسكرات التدريب النائية، أو القلاع أو الأبراج فى استعراضات عسكرية، وكان يتم ذلك فى ظل نظام عسكرى دقيق، وبأصول وأوامر حازمة تحكم العمل فى هذه المراكز، أو إن شئنا أن نقول: هذه المعاهد أو الكليات أو الأكاديميات بلغة العصر، وهذا كان يتم طبقا لأصول ومناهج الفروسية فى العصور الوسطى من ركوب الخيل بالطرق المختلفة، وإتقان فنون القتال بمختلف أنواع الأسلحة، وكان على كل طالب أن يتفوق فى جميع التدريبات قتالية أو بدنية بلا استثناء، وحينما تمضى المجموعة فى التدريب وقتا كافيا كانت المناورات الحربية، أقرب إلى القتال الحقيقى، سواء بعربيات الحرب، أو على الخيول، أو على الأقدام حتى أنه كثيرا ما كان يخرج بعض هؤلاء المماليك الصغار (الطلبة) من هذه المناورات بجروح وإصابات، وكانوا يمضون فى هذه

المناورات أياما متتالية حتى يتعودوا على حياة التقشف، وتتعود أجسامهم على الجوع والعطش.... هذا والمصريون يراقبون هؤلاء القوم وهم يغدون ويروحون ويجيئون فى حللهم الزاهية لا يملكون إلا المشاهدة فقط والفرجة، ولا يحق لهم الاشتراك فى هذه التدريبات، وعندما نقول المصريين، فلم يكن هناك حينذاك فرق بين مسيحى أو مسلم، فكلهم محرومون من التدريب على القتال، وبالطبع على القتال نفسه، ولا على حمل السلاح.

اسمح لى عزيزى القارئ فى هذه اللقطة الدرامية أن نسأل أنفسنا: هل المصريون كانوا عازفين عن المشاركة فى التدريب على الدفاع وعن الدفاع نفسه؟ وعندما نقول المصريين فإننا لا نقصد مسيحيا أو ملسما، فإن هؤلاء المماليك لم يفرقوا بين مسيحى أو مسلم. وتأتى الإجابة من هذا الماضى على هذا كله - بأن المصريين مسلمين ومسيحين كان واجبهم ينحصر فى فلاحة الأرض، واستخدامهم فى السخرة، إلا من كان له مواهب أو له دراية أو خبرة فى الحسابات، أو قياس الأرض وجباية الضرائب، فكان يستخدم بما يخدم هذا النظام الإقطاعى المعقد، والصور فى هذا الصدد عديدة.

عزيزى القارئ، نرجع مرة ثانية إلى تدريب هؤلاء الشبان الماليك، فقد كانوا يلقون آناء الليل وأطراف النهار ما يغرس فى نفوسهم أهمية الولاء لسلاطينهم وأوليائهم؛ ليشبوا على الطاعة والولاء وحب ولاتهم وسلاطينهم، وكذلك التعود على الانضباط فى الحرب والسلام، وهذا ما يسمى بلغة العسكريين اليوم الضبط والربط والالتزام، وأيضا الولاء لقادتهم، وهو ما يسمى فى لغة السياسة أهل الثقة.

وهكذا حتى جاءت الحملات (الفرنجية) كما تعود المؤرخون تسميتها بالحروب الصليبية المتتالية، وكانت الحروب الضروس بين هؤلاء والمماليك سجالا طيلة قرون عديدة، وانبهرت أوروبا بهذه النظم العسكرية فى التعليم والتدريب والفروسية، الأمر الذى جعل ملوك أوربا يقومون بنقل هذه النظم والتقاليد إلى بلادهم، واستمر السلاطين المماليك من ناحيتهم فى تطوير هذا

النظام على مر الأيام. من هنا نرى أن نظم الدراسة فى الكليات العسكرية فى أوروبا وأمـريكا مـا هـى إلا تقليـد وتطوير لنظم الممـاليك فى هذه العـصـور الوسطى.

وعند الانتهاء من التدريب فى هذه المراكز، كان المماليك أصحاب الكفاءة العالية والتفوق فى العلوم المختلفة يلحقون بحاشية السلطان أو بحرس السلطان الحـاكم royal Mamlouk، أو مـا يطلق عليـه الحـرس السلطـانى، أو الحـرس المملوكى – أو الحرس الملكى أو الجمهورى حاليا – وكانت تدفع مبالغ باهظة ثمنا للواحد من هذه الدرجة. أما المماليك الأقل كفاءة ودرجة فيكونون أقل ثمنا ويبقون بميلشيات المماليك الأمراء فى الأقاليم المختلفة للسلطة، ومن ثم كـان الحرس السلطانى يزود بأرقى المماليك تدريبا وعلما وموهبة، وكانت قيمة الأبهة تظهر فى ركاب السلطان(٤)، فى الأعياد الدينية والمواسم.

وهذه المواكب بدورها كانت تلقى الرعب فى قلوب الشعب كافة، كل أفراده مسيحيين أو مسلمين. ويمضى هذا الشعب فى طريقه مبهورا من هذه الأبهة حزينا على حاله وعلى ما وصل إليه من قهر وظلم؛ فالظلم عندما يحل على شعب لا يعرف دينا ولا عقيدة ولا حتى وطنا... هكذا لا يملك الشعب من هذا كله إلا الفرجة، فلا يحق لأى من أفراد الشعب، مسيحيا أو مسلما – أن ينضم لهذه الجيوش، وهذه الميلشيات؛ لأن هذا كان محرما عليه. ودخل الاقتصاد المصرى والزراعة والتجارة فى التدهور مع الوقت. وما يهمنا فى هذه العجالة عن هذا النظام هو استحواز المماليك على مقاليد الحكم، والتصرف فى أمور الشعب على أهوائهم، ففى يدهم التجارة الدولية والداخلية، وهم الذين يملوكن الضياع والقلاع، فأصبحت العلاقة بين المماليك والشعب علاقة الغالب بالمغلوب على أمره، أو علاقة الأسياد بالعبيد، وهؤلاء العبيد هم المصريون مسلمون ومسيحيون على حد سواء.

فعندما كان يتولى السلطنة سلطان عادل كان يعامل رعيته (عبيده) بأساليب الإنسانية الحقة، وعندما يتولى السلطنة سلطان جائر كانت الرعية كلها

ترزح فى أغلال العبودية والذل. وهكذا كانت دول المماليك التى امتدت حوالى ثلاثة قرون – تمتاز بالتناقضات.

وفى هذا تقول المؤرخة إيريس حبيب المصرى إن عصر المماليك(٥) هو من أعجب الأحداث فى تاريخ مصر الملئ بالعجب، فقد جمع المتناقضات جمعا غاية فى الغرابة، ففيه انهزم الصليبيون إلى غير رجعة، وفيه انهزم المغول تماما، وامتد سلطان مصر من شمال سوريا إلى جزيرة قبرص إلى الحجاز، وخطب الملوك حتى الأوروبيين منهم ود مصر، وفيه أيضا رصدت الأوقاف على وجوه البر والإحسان ونالت العلوم والفنون حظا وافرا من التشجيع، وشيدت الجوامع الرائعة التى مازالت تبهر الناظرين، والزهور لقد كان يشتريها الناس داخل أصص فخارية ويزرعونها فى حدائقهم الخاصة، أو على أسطح منازلهم أما الطنافس فكانت تحفا فنية رائعة.

هوامش الفصل السادس عشر

(١) أنور زقلمة – المماليك فى مصر – مطابع المجلة الجديدة (ص ٢٠).

(٢) أنور زقلمة – المماليك فى مصر – مطابع المجلة الجديدة (ص ١٤).

(٣) أنور زقلمة – المماليك فى مصر – (ص ١٥ وما بعدها).

(٤) أنور زقلمة – المماليك فى مصر – مطابع المجلة الجديدة (ص ١٨ ومابعدها).

(٥) إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة القبطية – الكتاب الثالث – مكتبة كنيسة مار مرقص – اسبورتنج (ص ٤٠٨).

مصر وظلام الإمبراطورية العثمانية

أثناء حكم العثمانيين لقرون لم تنقطع الحروب الأهلية المتعاقبة التى اتخذت من مصر وشعبها مسرحا لها، مما أثقل كاهل الشعب، فكانت أنواع الضرائب، والإتاوات اثنين وثلاثين نوعا، فرضت على كل الناس، فمنها ما هو على الصناع والتجار والبغايا وأولاد الهوى، وحتى على الذبائح، وكذلك على الفلاحين، وعلى عدد من الشرائح المختلفة والقطاعات العديدة من الشعب.

(الخطط التوفيقية)

مصر وظلام الإمبراطورية العثمانية

زالت دولة المماليك عام ١٥١٨م بموت السلطان الغورى، ومن بعده السلطان طومان باى الشهيد الذى قتل كأعظم ما يموت الأبطال، دفاعا عن الوطن والعرض بمنطق المماليك فى ذلك العصر - فهم أصحاب البلاد الشرعيون خلال ثلثمائة عام مضت - هكذا كان منطق الأمور والسياسة فى العلم حينئذ، وبموته سيطرت الدولة العثمانية على مصر(١).

وكانت مصر حينئذ درة العالم؛ فقد كانت على جانب من الاتساع والعمارة، حيث كانت عاصمة مملكة عظيمة تمتد عبر بلاد الشام حتى جبال طور موسى شمالا(٢)، وشرقا عبر البحر الأحمر على الأراضى الحجازية بما فيها الأراضى المقدسة فى مكة والمدينة، كما تمتد على الرقعة الأفريقية جنوبا، وعلى ساحل البحر الأحمر حتى مصوع وسواكن، وفى الغرب حتى برقة على البحر الأبيض المتوسط، فكانت مصر تسيطر على كل التجارة العابرة أو مرور هذه التجارة، وما أن زالت هذه الميزة الاقتصادية باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، حتى توالت على البلاد الكوارث والمحن والاضطرابات، أورثها ذلك نقصا فى عزها وضعفا فى ثروتها. وكان الضعف على امتداد البلاد، انعكس

كل ذلك على الشعب مسلمين ومسيحيين على حد سواء؛ لأن معظم حكام البلاد قد سيروا الأمور طبقا لأهدافهم فى تحقيق أطماعهم دون النظر إلى مشاكل البلاد الحقيقية وسعادة أهلها، فقد طمست الطرق، وتهدمت الجسور، وأصبحت الترع مستنقعات، وانسدت القنوات، وظمأت الأرض وبارت وفسد الكثير منها، فكثر الغلاء والقحط وانتشرت الأمراض، وعم الوباء، وانسابت البلاد للأهوال والخراب والمجاعات من جراء الحروب والثورات والقلاقل، بالطبع تحمل العبء لكل هذا الهوان – الشعب، وعلى وجه التحديد الفقراء مسلمين ومسيحيين.

وأول أحداث هذه الحقبة كانت عند دخول العساكر العثمانيين بعد مقتل السلطان الغورى والسلطان طومان باى، وإشعال نيران الحرب بين الجيش العثمانى وجيش طومان باى، وشملت الحرب نواح متفرقة وعديدة من البلاد، بدأت فى العباسية وانتقلت إلى بولاق ثم جهة القصر العينى وباب اللوق والسيدة زينب ومصر العتيقة والرميلة وجزيرة البقر. وأصاب الخراب معظم المنازل والقصور والبساتين وعدة جوامع وزوايا منها: جامع شيخون وجامع طولون، ولم تسلم من التخريب الكنائس والأديرة، فالخراب والحروب لا دين لها، وكانت الجثث تملأ كل أنحاء القاهرة(٣) . لا نستطيع حينذاك أن نفرق بين جثة المسيحى وجثة المسلم.

وقد استمر هذا الحال من التخريب والتدمير لأكثر من أربعة أيام قتل فيها نحو عشرة آلاف نفس، منهم المسلم والمسيحى بالطبع، فكانت منازل الفقراء تهدم على أصحابها، مع ملاحظة أن عدد سكان القاهرة حينئذ كان لا يتجاوز الخمسين ألف نسمة. فالشعب كله فى مركب واحد، والمسلمون والمسيحيون مصيرهم واحد ...

ولم تخمد الحرب إلا بعد مقتل طومان باى، وعندها استقرت الدولة العثمانية فى مصر، وأخذ العساكر العثمانية يفتشون عن الأمراء والجراكسة، ويقتلون من يقبضون عليه وينهبون منزله، حتى مات الكثير منهم، وهرب

الباقى، بعد أن تهدمت أحياء بكاملها، وقتل كثير من خلق الله. كل هذا حدث بقيادة السلطان سليم نفسه، حيث أمضى فى مصر ثمانية أشهر يرتب أمورها، بعدها رحل إلى القسطنطينية بغنائم كثيرة، وجيش كبير من الصناع المهرة، وبالطبع عند جمع جيش الصناع هذا لم يراعى فى الاختيار دين معين، فكان منهم اليهودى والمسيحى[٤] والمسلم. وذاكرة التاريخ مازالت تذكر العديد من هؤلاء المصريين الذين استمروا فى خدمة الامبراطورية العثمانية.

واستقرت البلاد لفترة وجيزة بعد ذلك لا تتجاوز التسعة سنوات، حتى قويت شوكة المماليك مرة أخرى، واستطاعوا أن يكونوا مركز قوة، وتوال على البلاد عدة ولاة، ففى عام ١٥٢٧م كانت ولاية أحمد باشا الذى استطاع بالتعاون مع المماليك أن يجاهد بالعصيان ورغب فى الاستقلال عن الدولة العثمانية، وحدثت حرب عظيمة فى منطقة الرميلة وما جاورها، وقتل أحمد باشا، واسفرت هذه الواقعة عن خراب عظيم فى القاهرة قاسى منه المسيحيون والمسلمون على حد سواء، وبعد أحمد باشا تولى عدة ولاة ضعاف نذكر منهم: داود باشا واسكندر باشا وسنان باشا، عم فيها البلاء والظلم لضعف هؤلاء الولاة، واختل حال الرعية وضعف الأمن وكثر اللصوص، وقطاع الطرق، وعم الفساد سائر أرجاء القطر، لم يميز الظلم بين الفقراء إن كانوا مسلمون أو مسيحيون، إلى أن تولى مسيح باشا فى عام ١٥٧٠، فتصدى للمفسدين، وإزالة أهل الشر فقبض على نحو عشرة آلاف منهم وقتلهم[٥].

على أن حال البلاد لم يستقر لمدة طويلة، بل ظلت الانقلابات والثورات والحروب الأهلية كما لو كانت سمة عامة فى مصر آنذاك، ونذكر منها الحروب بين الدمياطيين والقطامشة، حيث خربت فيها البلاد ودمرت، واستمر الحال هكذا حروب وقلاقل عديدة قتل فيها خلق كثيرة.

وفى زمن حسنى باشا الخادم، تفشت الرشوة واتسع نطاقها، حتى صارت أمرا معتادا يحصل من الشعب بدون مبالاة، وجعل الباشا همه جمع الدنانير الذهبية، إلى أن وصل به الأمر أن يحتال بكل وسيلة لابتزاز الشعب غير مراع حلا ولا حرمه، ولم يكن له أثر قط يذكر به إلا تغيير زى اليهود والنصارى.

وفى زمن الوال محمد باشا الشريف عام ١٥٧٩م حدثت حرب أهلية امتدت وقائعها فى منطقة القلعة والرميلة وما جاورهما، وثارت العساكر على الوالى عدة مرات وعارضوه فى أوامره، ورفضوا طاعته، وأوقفوا السلب والنهب بالتجار والأهالى، واستمر مسلسل الفتن والاضطرابات والذى انعكس على الشعب المصرى مسيحييه ومسلميه.

وفى زمن الوالى خضر باشا عام ١٥٨٢ حدثت حرب أهلية دمرت فيه القاهرة، وهدمت منازل كثيرة على من فيها من سكان.

وأثناء ولاية إبراهيم باشا عام ١٥٩٤م قتلت العساكر الوالى نفسه إبراهيم باشا، وصارت الحكومة فوضى بلا رئيس لها، وحل بالناس المكروه، وتعطل السفر برا وبحرا لقيام الأشقياء من البدو والفلاحين الشاردين بالاعتداء على المسافرين والحجاج، وحل القحط والغلاء والبلاء والخراب بالقرى والمدن، وخصوصا فى القاهرة المحروسة، واستمر الحال هكذا سنين لم تحصل خلالها أية إيرادات ترسل إلى السلطان(٦)، وهكذا الشعب يقاسى الحرمان والهوان، وهوان الفقراء أشد وأنكى، مسيحيين ومسلمين على حد سواء.

وفى عام ١٦٠٩ أرسل السلطان أربعة آلاف عسكرى إلى مصر كانوا يثيرون الفتن فى استانبول، وكانوا المفروض أن يرسلوا إلى اليمن للخلاص منهم، ولإظهار هيبة السلطان فى مصر، ولما أراد الوالى إرسالهم إلى اليمن وتجهيزهم بما يحتاجون إليه – قام الجنود بالثورة على الوالى والعصيان على السلطان، وأغلقوا أبواب القاهرة، وأقاموا المتاريس بالشوارع، واستولوا على المتاجر والحانات وكثير من البيوت ولم يراعوا حرمتها، وبالطبع كانت هذه البيوت تضم المسيحيين والمسلمين. فالخراب والنهب والسلب لا يفرق بين أفراد الشعب الواحد، فهم لون واحد، وسحنة واحدة لا يعرف الفرق بين المسيحى والمسلم فيهم، وانقلب الحال إلى حرب أهلية طويلة بين الجيش العثمانى هذا وجيش المماليك لمدة عامين متتالين، وبالطبع دمرت البلاد تدميرا. هكذا كانت البلاد دائما فى حروب وقلاقل وظلم وتدمير وخراب.

ولما تولى منصور باشا ولاية مصر عام ١٦٣٤ كانت أنواع الضرائب والإتاوات اثنين وثلاثين نوعا، فرضت على كل الناس فمنها ما هو على الصناع، والتجار، والبغايا، وأولاد الهوى، وحتى على الذبائح، وكذلك الفلاحين، وعلى العديد من الشرائح والقطاعات[٧].

واستمر الحال على ذلك حتى عام ١٦٥٢ حيث حدثت حرب أهلية هائلة، وعرفت هذه الموقعة باسم «الصناجيق» وقد انقسم فيها المماليك أحزابا، واشتعلت نار الحرب فى شوارع القاهرة وضواحيها، وامتدت إلى الأقاليم القبلية، وجهز الوالى عدة حملات تأديبية على هؤلاء الأمراء وجيوشهم، انتهت بقتل أغلب الأمراء الفقارية نسبة إلى رئيسهم ذو الفقار[٨].

وفى عام ١٦٥٥ كانت ولاية عمر باشا، فاهتم بتهدئة النفوس وجمع السلاح من كل أرجاء البلاد من الأمراء والعامة على حد سواء، ولم يمض غير وقت قليل حتى قامت وقعة الزرب، وهم أقوام حضروا من الشام أغلبهم أروام ودروز انخرطوا فى سلك العسكرية[٩] ووصل بعضهم إلى مراكز السلطة فى البلاد، ثم انضموا إلى محمد بك حاكم جرجا وصاروا أنصاره، وأخذوا يسلبون وينهبون ويزهقون الأرواح من أجل أهون سبب، والشعب هو الضحية بشتى فئاته، وعلى أى دين كان، ورغم شكوى الناس للوالى، ازداد طغيانهم وفتكوا بهم، لكل هذا اضطر الوالى إلى محاربتهم، فأعد لهم ما استطاع من قوة، ووجه عليهم المدافع، وكانوا قد تحصنوا بجامع المؤيد، فحاصرهم فيه وقاتلهم قتالا شديدا، لم تسلم المساجد والجوامع والكنائس من الإصابات والتدمير، وخربت عمائر كثيرة فى السكرية والداودية والدرب الأحمر وتحت الربع، مات فيه الكثير من الشعب، وراح ضحيته أطفال ونساء، وحتى الشيوخ لم يأمنوا شر هذا العنف، كما امتد العدوان على الأموال، فسلبت المنقولات وصودرت الخيول والدواب، وبعد ذلك هدأت الأحوال نسبيا ولفترة وجيزة لالتقاط الأنفاس.

وفى غضون عام ١٦٦١م شب حريق هائل فى منطقة باب زويلة نتيجة الفتن وما تحمله الصدور من أحقاد وكراهية يكنها كل طرف للطرف الآخر، واستمر هذا الحريق أياما وخسرت البلاد ما خسرت فى هذا الدمار المستمر.

وفى خلال عام ١٦٨٢ ، كان الفساد قد بلغ منتهاه، وانتشر قطاع الطرق، وروع الناس وانقطع ورود الغلال إلى الشون السلطانية، وأصبحت خزينة الحكومة خالية ولم تصرف مرتبات الموظفين والجنود وكذا الولاة، وانسحب ذلك على أموال الأوقاف ومخصصات الأيتام والأرامل.

وبسبب هذه الأوضاع السيئة نشأ نظام غريب هو نظام الحماية، ويتلخص فى أن كل طائفة من الجند تقوم أو يقع على عاتقها حماية مجموعة من التجار أو الملاحين فى البحر داخل منطقة حدود معينة محدودة، فيحسبون على الناس ارباحـهم وذلك باتفـاق كـامل بين الجنود وبين أبناء البـلاد فى هذه المنطقة بتجارها وصناعها وأهلها - بالطبع المسلمين والمسيحيين على السواء - وكأنهم أسرة واحدة، وبمقتضى هذا الاتفاق يمتنع الأهالى عن دفع أى ضرائب أو مخصصات للحكومة، ولايتمكن الحاكم من التعرض لأحد منهم.

وهكذا الشعب مسيحييه ومسلميه تجاره وصناعه يتكاتفون من أجل الوقوف أمام الظلم، فالظالم لا يعرف دين ولا وطن.

وبمحـاولات عـديدة استطاع الوالى على باشا قلج أن يبطل الحـمـايات، وحارب حماة هذا الوضع وأفنى منهم الكثير فهدأت الأمور وأمن الناس على أنفسهم وأموالهم. على أن الغلاء الفاحش كان بلغ منتهـاه من جراء حوادث السنين الماضية.

ومع نهاية عـام ١٦٩٩م كان والى مـصـر «حسين باشا الوزير» حاول أن يضبط النظام مع الجند، ويصفى جيوب نظام الحماية، وما يتبع ذلك من أخذ الرشاوى من رجال الأعمـال والتجار والصناع، واستطاع هذا الوالى أن يقف بالمرصاد لكل محاولات الفساد، لكن الجنود احتجوا على محاولات الإصلاح؛ لأن الوالى لم يضمن لهم مـرتبـاتهم أو الحد الأدنى من مـرتبـاتهم، أو الحد الأدنى من الحياة التى تعودوها فقاموا عليه مرة واحدة وحاصروه بالقلعة ونهبوا القاهرة(١٠).

وفى عام ١٧٠٧م قام الجند بانقلاب جديد وحاصروا الوزير «خليل باشا»، وقطعوا الطريق والمرور فى مناطق: المحجر وعرب اليسار والرميلة والصليبة

والدروب الموصلة والمؤدية للقلعة. وقد استمرت أحداث هذا الانقلاب سبعين يوما، ازداد فيها تخريب القاهرة ومناطقها فى سوق السلاح والدوادية والخليفة والقصر العينى ومصر العتيقة والسيدة زينب.

وفى عام ١٧١٢م أثناء ولاية «عابدين باشا» نشبت حرب أهلية أخرى بين أعوان غيطاس بك وأعوان عابدين باشا، لاقت البلاد من جراء هذه الحرب الأمرين.

ومع عام ١٧٢٠ كان محمد باشا البستانى والى مصر على رأس البلاد، وأخذ فى تصفية الفقارية والقضاء على القاسمين، واستمرت حرب أهلية ضروس تأكل مصر ضمن مسلسل الحروب التى لا تنقطع حتى وقع الصلح، فاتفقت القاسمية والفقارية على تقسيم الوظائف بين الطائفتين، وأن تقسم الغنائم فيما بينهم، وقاموا متضامنين متحالفين بعزل الوالى. على أن الفريقين ظلا متربصين كل منهما للآخر، وخلال هذا التربص والترصد نال الشعب ما نال من عذاب وهوان وجراح من الرماح والسهام الطائشة - المسلم والمسيحى سواء - وفى عام ١٧٢٩م عين السلطان «عبدالله باشا» واليا على مصر، وكانت الضغائن ماتزال فى الصدور بين الفقارية والقاسمية ونشبت تلك الحرب التى انتصر فيها القاسمية، وهرب الفقارية وتفرقوا فى البلاد.

وفى عام ١٧٨٣ خلال حكم الوالى «محمد باشا السلحدار» اهتم إبراهيم بك بمصالحة أمراء الصعيد، وكان هذا بداية الخلاف بينه وبين مراد بك... وحدثت بين الطرفين حرب ضروس، ضاع فيها الشعب، وقاسى منها المسيحيون مثلما قاسى المسلمون وتحملوا مالا طاقة لهم به، من هوان وذل وتعذيب. ولما أتت الحرب على ما أتت، قام كل من مراد بك وإبراهيم بك بالتصالح، هذا التصالح الذى أزعج إسماعيل بك وشقيقه وجعلهما يحسان الخطر، الأمر الذى كان من نتيجته قيام الحرب بين حلف إبراهيم بك ومراد بك من ناحية ضد إسماعيل بك ومماليكه من ناحية أخرى.

وعلى الجملة كانت البلاد فى بلاء عظيم تتابعت المصائب والنوائب(١١).

وفى عام ١٧٨٥م انتشر الطاعون، وكانت هذه الأيام لا مثيل لها فى الشدائد، وواكب انتشار الطاعون جفاف النيل، فانتشرت المجاعات وتوالت المصادرات والمظالم وتعدى الأمراء المماليك كل حدود الظلم، وانتشر أتباعهم فى القرى لجلب الأموال، واتجه الأمراء إلى الملتزمين وبعثوا لهم فى بيوتهم بمضاعفة ما عليهم(١٢)، فباع الملتزمون أمتعتهم ودورهم ومواشيهم وفاء لذلك، ولم يكتفى الأمراء بذلك فتتبعوا كل من يشتم فيه رائحة الغنى أو اليسار أو حتى المقدرة، فيأخذوه ويحبسوه ويكلفون فوق طاقته أضعافا، بل أنهم طمعوا فى المواريث، فإذا مات الميت يستولون على ما خلفه سواء كان له وارث أو لم يكن، وبالطبع يتساوى فى ذلك المسيحيون والمسلمون.

من هذا العرض السابق على مدى التاريخ تتضح مدى الشدة التى عانتها مصر والمصريون، إلا من فترات قليلة كان فيها الحكام والولاة على قدر متفاوت من العدل، وعلى كل الأحوال كانت رحمة الله تظلل كل البلاد وتنشر الود والرحمة والحنان بين كل طوائف الشعب المسيحيين والمسلمين على السواء، فهم الجيران فى الحوارى والأزقة، وهكذا التقاليد المصرية فإن المصرى يعرف حق الجار عليه، يعينه ويرحمه ويوده، فكان فى كل هذه الشدائد والكوارث، الجار هو المعين وهو الأخ وهو المغيث.

كل هذه الصور التى التقطناها من أوراق التاريخ تظهر بجلاء تلك الحالة التى كانت عليها مصر، والآلام التى استطاع هذا الشعب أن يتحملها فى صبر عظيم وإيمان قوى، هكذا كان قدر مصر وقضاء الله سبحانه وتعالى.

وكما كان قدر مصر أن تشهد مزيدا من المعاناة، كان مقدرا لها أن تشهد مولد نجم جديد بدا يلمع على ساحتها الاجتماعية والسياسية، كان ضابطا شابا ضمن حملة جهزتها الدولة العثمانية لمقاومة تقدم الفرنسيين داخل الأراضى المصرية، أحب مصر وأحب أهلها، أبى على نفسه إلا أن يرتقى بها ويصعد بشعبها، فاستقبلته وأحبته وجاهد شعبها معه، ومنحه القيادة، فأعطاها وأعطى شعبها العزة والمجد.. إنه محمد على.

هوامش الفصل السابع عشر

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية – الجزء الأول – هيئة الكتاب (١٩٨٠) – (ص ١٤٦ ومابعدها).

(٢) إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة القبطية – الكتاب الثالث – (ص٤٠٨).

(٣) المصدر السابق (ص ١٤٧).

(٤) إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة القبطية الكتاب الرابع – مكتبة المحبة (ص٩).

(٥) على مبارك ٠ الخطط التوفيقية – هيئة الكتاب (ص١٤٨).

(٦) على مبارك ٠ الخطط التوفيقية – هيئة الكتاب (ص١٤٩).

(٧) المصدر السابق (ص ١٤٩، ص ١٥٠).

(٨) نفس المصدر السابق (ص١٤٩ ، ص ١٥٠).

(٩) نفس المصدر السابق (ص ١٥٠).

(١٠) نفس المصدر السابق (ص ١٥١).

(١١) المصدر السابق (ص ١٥٥).

(١٢) المصدر السابق (ص١٥٥).

حكم محمد على

إن مجد البلاد التى أحكمها وضمان الرفاهية الدائمة لها - أعز أمانى، وقد وقفت حياتى كلها على هذا الغرض وحده.

محمد علي

حكم محمد على

قبل مجئ محمد على، كانت مصر بشعبها مسلمين ومسيحيين يعيشون فى واد، والحكام فى واد آخر، فالشعب ليس مسموح له بالمشاركة فى الحكم ولا بالدفاع عنها، ولا بالاشتراك فى الجيش، ولا حتى بالدفاع عن نفسه، ولكن الدور الوحيد للشعب هو العمل والعمل فقط، فى الحقول والغوص بأقدامه، بل بسيقانه فى طينتها، من نظام السخرة أو حراسة الجسور - جسور النيل أثناء الفيضان أو فى حفر وفى تطهير الترع والقنوات أو تجهيز الجسور لمقاومة الفيضانات وفى هذا لم يكن الحكام وفى الأقاليم يفرقون بين مسيحى ومسلم.

وهكذا استمر نظام السخرة طيلة قرون مضت حتى حكم محمد على، والذى بدأ هذا النظام ينحسر فى عهده إلى أن انتهى نهائيا مع نهاية حفر قناة السويس، بقرار من الخديوى إسماعيل حتى انتهى النظام تماما ونهائيا فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، ونحن فى هذا الصدد نتفق - لعلنا نتفق معا عزيزى القارئ - على أن الشعب ما كان مسؤلا عن الأحداث الجسام فى مصر، وعن ظلم الحكام الذين تجبروا وطغوا، وذهبوا مع الزمن نفايات وأشلاء وجيفا، وعلامات على السخط الشعب عليهم.

والشعب المصرى بقدر ماله من حضارة ضاربة بجذورها نحن فى غنى عن أن نستطرد فيها، ونردد ما طال شرحه فى هذا المجال، نقول إن الشعب المصرى كان دائما بعيدا عن الغل والحقد والتشفى إلا من قلة ضالة هنا وهناك من أولئك وهؤلاء. هكذا كان حاله دائما لا فرق بين مسلمين ومسيحيين بل هم إخوة متحابون، لكن كل ما كان يكدر حال الشعب كان بفعل الحكام - من ظلم وجبر ت وتكبر من هؤلاء الولاة المستوردين أو المستعمرين، فكان الشعب المصرى فى حاجة إلى من يأخذ بيده وتواقا إلى من يوحد كلمته، ومنتظرين المخلص من هذا الهوان المستمر والظلم المستقر، وكان هذا المخلص هو محمد على، والذى تجاوز الثلاثين عاما بقليل....

فقد كان لنشأة محمد على وظروفه الاجتماعية والبيئية - دورا فى مقدرته على قيادة الشعب المصرى، فقد نشأ فى البلقان، وولد فى قولة، التى تقع تقريبا من سالونيك واستانبول، حيث يعيش المسلم مجاورا للمسيحى، فقد كانت البلقان حينذاك حديثة عهد بالاسلام، علاوة على تربيته - محمد على - البعيدة عن التعصب، هذا بالإضافة إلى ذكاءه الحاد، وشوقه للإصلاح، كان رائدا فى قيادة المجتمع المصرى، لتنمية مكنون نفوسهم وتفجير جوهر القيمة فى وجدانهم من أحاسيس الود ومشاعر الأخوة، ومفهوم السلام، وقوة الإيمان ذات الجذور المصرية العريقة التى نمت مع تكوين وادى النيل الخالد ونشأة الحضارة على ضفافه، وذلك من أجل الحياة فى سلام بين المسلمين والمسيحيين، فكان حكمه منذ بدايته على أسس من التصالح بين طوائف الشعب المصرى والحرية والعلم والمعقولية.

وهكذا نجح محمد على فى تجارب المسيحيين واستمالة المشايخ وزعماء الشعب إلى جانبه، فبعثوا برجاء إلى السلطان أن يجعله واليا عليهم، وفى مايو سنة ١٨٠٥م صدر فرمان السلطانى بتعيين محمد على واليا على مصر، وبصدور الفرمان بدأ عصر جديد لمصر، عصر من الانفراج والاستقرار، لم تكن مصر عرفت طعمه منذ قرون طويلة الأمد[١]، إلا أن المماليك ظلوا يناوشونه فى السنوات الأولى من حكمه، فدبروا مؤامرة هجموا بمقتضاها على

القاهرةفى أغسطس سنة ١٨٠٥ ليستعيدوا سلطانهم عليها، ولكن محمد على عرف بمؤامراتهم مقدما واستطاع أن يفتك بهم، وقد عبر الجبرتى عن إندحار المماليك بقوله: لم يتفق الأمراء المماليك أقبح ولا أشنع من هذه الحادثة، وطبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم غل أيديهم. ورغم هذه الهزيمة، فقد تزعم محمد بك الألفى حركة مكناوءة لمحمد على، فتواطئ مع الإنجليز أملا فى أن يقيموه واليا على مصر، ويعيدو للمماليك سطوتهم، وبالفعل سعو لدى البابا العالى لعزل محمد على وإقامة الألفى مكانه، وقد تعهد هذا الأخير بأن يدفع للسلطان ألف وخمسمائة كيس جزية سنوية ونجحت مساعى وتعهدت الألفىَ إلى حد أن أرسل السلطان أربع بوارج، وسفينتين وملحقاتهم إلى الإسكندرية، ووصل بعض الجنود الإنجليز مع الترك للاشتراك معهم فى القضاء على محمد على، ولما وصلت الأنباء تفاهم محمد على مع المشايخ على محاربة الإنجليز، وحينما تقرر القتال استعد الشعب كله للاشتراك فيه(٢).

والمسيحيون اشتروا القاطف والغلقان والفؤوس والقزم وآلات الحفر، وأسرعوا فى بناء حائط مستدير أسفل تل قلعة السبتية... ويسترسل الجبرتى فيقول: أما المسيحيين فإنهم حصنوا مساكنهم ونواحيهم ،حاراتهم وسدوا المنافذ وبنوا كزانك، واستعدوا بالأسلحة والبنادق، وأمدهم الباشا بالبارود وآلات الحرب(٣). وهكذا كان المسيحيون يساعدون محمد على، أيضا محمد على يعتمد على المسيحيين فى تثبتة حكمه... وهكذا حالف النصر محمد على، فكتب العلماء والمشايخ رسالة أخرى معلنين فيها صراحة إصرارهم على استمرار محمد على فى ولايته عليهم، لما رأى فيه الشعب من عدم الظلم والرفق بالضعفاء وأهل القرى والأرياف. وهنا تبرز شخصية الشعب المصرى الذى عبر عن إرادته تعبيرا من القوة بحيث رضخ له الباب العالى. ونجد أن محمد على نجح حيث فشل على الكبير، لأن الأول استعان بالمصريين وبزعمائهم الوطنيين، فى حين أن الثانى لم يرتكن إلا على مماليكه متجاهلا القوة الكامنه داخل أبناء مصر، فكان الفرمان (المرسوم) الذى أصدره سلطان تركيا بالإبقاء على محمد على مبنيا على تأييد الشعب لواليه. ثم شاءت العناية الإلهية القضاء على الحكم

المملوكي ومؤامراته فمات البرديسي بك في نوفمبر سنة ١٨٠٦ ، وتولى شاهين بك المرادى مكانه. وكان هذا الزعيم الجديد خصما لدودا الألفي بك فاتسعت الهوة بين المماليك وبالتالي تضاعفت أسباب فشلهم، وكان الأوان قد آن لأفول نجمهم؛ لأن الألفى بك توفي في يناير عام ١٨٠٧م.

ثم وصلت البوارج الإنجليزية إلى ميناء الإسكندرية في مارس ١٨٠٧ واتصلت بالقنصل الإنجليزى فى القاهرة، فاتصل هو بدوره بالمماليك فى الصعيد، كما تعهد بتقديم رشوة للمحافظ التركى بالأسكندرية. ورغم كل هذه المكايد فقد انهزم الإنجليز في موقعة رشيد في ٣١ مارس ١٨٠٧ ، ويصف الجبرتى ما حدث بقوله: «وردت الأخبار من ثغر رشيد يذكرون بأن طائفة من الإنجليز وصلت».. وكان من اثار مناخ الحرية الذى اتاحه محمد على ان نجح المسيحيون فى سعيهم إلى إعادة تعمير الكنيسة المرقسيةبالاسكندرية من أثر تخريب الفرنسيين، على أثر الحملة الفرنسية، وذلك بأن أصدر الوالى محمد على فرمان إلى المعلم صالح عطا الله أحد الأعيان المسيحيين بالإسكندرية يمنحه الأذن فى أن تجمع التريعات الخاصة باعادة بناء الكنيسة التاريخية، وكذلك منحه العمال اللازمين للبناء من بنائين وصناع مهرة، وكان لهذا الفرمان الأثر العظيم الذى شرح صدور المسيحيين فى كافة أنحاء مصر(٤). وفي مجال التعاليم عندما أرسل محمد على البعثات إلى فرنسا في عام ١٨٢٦ لم يفرق فى اختياره للمبعوثين بين أبناء مصر لهذه البعثات، ففى أول مجموعة تم اختيار ٤٥ شابا من أبناء مصر(٥) من جميع أرجاءها، مسيحيين كانوا أو مسلمين فكان الانتقاء والاختيار يتم طبقا للذكاء وإمكانيات التحصيل ولم يكن الاختيار على أساس الدين أو الجنس. واستمر سيل البعثات إلى الدول الأوروبية طيلة أكثر من قرن ونصف من الزمان، كان دائما الاختيار للأصلح. ورجع هؤلاء المبعوثون إلى مصر حاملين مشاعل العلم والثقافة والحضارة، وحققت مصر بهم ومعهم الكثير... فكانت سياسة محمد على فى الاصلاح هى العمل المتواصل، والعدل فى حكمه، لذلك كان النجاح المضطرد حليف إرادته المالية، ومن ثم خيب ظنون الذين كانوا يرقبون أعماله

ويتوقعون خرابه المالى، قائلين إن حروبه المتعددة يضاف إليها مشروعاته الداخلية، سوف تؤدى إلى أفلاسه وإفلاس خزينة البلاد العامة، ففى سنة ١٨٢٧ بينما كان عانقه مثقلا بنفقات الحرب فى المورة(٦)، وكانت موارده الماليه متعبة بسبب هبوط منسوب فيضان النيل عامين متتاليين، وكان محمد على رغم ذلك منهمكا فى تأسيس المصانع وإنشاء رصيف للبحر وترسانة فى الإسكندرية، ولم يمض على ذلك سوى أربع سنوات فقط حتى كان يضع أساس مشروعات تزيد فى ضخامتها ونفقاتها عشرة أضعاف عن نفقات المشروعات السابقة، وقد نجح فى الابتعاد عن إشراك الدائنين الأوروبيين، وحتى مع أزمة القطن العالمية فى عام ١٨٣٧، استطاعمحمد على تجاوز هذه الأزمة، حتى ظن كثير من المراقبين أنه يملك مصباح علاً الدين السحرى(٧).

وفى الحقيقة أن محمد على تخطى هذه العثرات والكبوات بالحكمة واليقظة والحزم والعدل - وليس بالسحر.

ففى مجال الإصلاح اكتشف أن الأعيان وأصحاب الأملاك الواسعة، يرشون موظفى المساحة ليشهدوا على أن أراضيهم قاحلة جرداء تعوزها مياهى الرى(٨)، وبالطبع لا فرق بين مسيحى ومسلم بين هذا وذاك، فالتزوير والرشوة والاختلاس لايعرف دين، ولا أخلاق، ولا ذمة، ولا حتى وطن، وبالطبع استولى الباشا على معظم أملاك الملتزمين والأعيان والملاك أو معظمهم من المماليك وهكذا، فقد قاسى محمد على مع بداية استقراره على كرسى ولاية مصر ، فيما بين كيد المماليك (وكلهم من المسلمين) ، ومحاولتهم المستمرة لاغتياله أكثر من مرة، وإجهاض حركة الإصلاح، التى كان يقوم بها فى المجالات لكى ينهض بالبلاد - هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى مغالطات الكتبة (ومعظمهم من المسيحيين) الذين جعلوا الحسابات العمومية نموذجا للتعقيد، وكانت غايتهم من هذا التعقيد مزدوجة، ذلك بأن يجعلوا المماليك وكبار الملاك والأعيان فى حاجة إلى خدماتهم وخبرتهم، بما لا يمكن الاستغناء عنها، وثانيا لأن التعقيد يستر أغلاطهم بحيث يتعذر اكتشافها(٩) - أى الكشف عنها - ومن الغريب أن محمد على من ناحيته لم يكن يهتم إن كانوا

هؤلاء أو أولئك مسلمين أو مسيحيين، ولكن ما كان يهمه هو الانحراف من أولئك أو هؤلاء، فأخذ المماليك على حين غرة، وقضى على نفوذهم وكسر شوكتهم فى القلعة عام ١٨١١، وكانوا كلهم بالطبع مسلمين، بل كانت حادثة القلعة هذه هيه البداية المنعطف من أجل المجد الذى حققه فى مطلع القرن الثان عشر، وفى نفس الوقت كان يضرب بيد من حديد على يد كل مهمل، هذا علاوة على ما لجأ إليه الباشا من وسائل الضغط والعقاب والتفتيش. وإنك إذ تقرأ كتبه الدورية - وقد كانت تتضمن وسائل الضغط المذكورة - تجد أنها مكاتبات مممتعه لذيذة ومفيدة[١٠] وإن كانت تثير الضحك تارة والأسى تارة أخرى؛ لأنها تضمن أحيانا وعيد مخيفا، فمثلا هناك كتاب صادر فى عام ١٨٢٦ يتضمن شكاية الباشا من أن الموظفين لا يعنون العناية الكافية بتحسين الزراعية، وقد جاء فى هذا الكتاب أن الباشا أن يقوم بنفسه بزيارة الأاليم وتفتيش أراضيها الزراعية، وقد أنذر كل موظف يرى أثر للأهمال فى منطقته بدفنه حيا فى حفرة خاصة .ولكن أمثال هذا الوعيد لم يكن يمكن أن ينظر إليه الإنسان نظرة جدية؛ ذلك لأنه هدد بعد عام من ذلك التاريخ بمعاقبة المهملين فى الشئون الزراعية بالعصا أو باليد. وفى بعض المكاتبات الأخرى التى دفع الحقد باركر القنصل العام إلى رئيسه بالمرستون بقص تسليته - ترى الباشا وقد صب جام غضبه على الموظفيذن، وإنك لترى أثر لذلك لمناسبة الأهمال فى دفع الضرائب، إذ يقول للموظف المختص: «من ذلك يتبين لى أنك غبى مهمل، وأنك لدليل جديد على أنك كالحمار فى غباوته، فإن لم تدفع الأموال فورا فكن على يقين بأننى سأقطعك إربا إربا [١١]». وكتب مرة إلى أحد الموظفين بمناسبة التباطؤ فى تقديم العدد اللازم الأنفار للقرعة العسكرية: وأنت أيها الحمار ماذا عساك؛ صانع... إننى لم أضعك فى هذا المركز إلا لعدم وجود من هو أقدر منك على أن يشغله، وقد جعلتك مديرا فهل يكون ذلك بأن تمهل فى أداء واجبك كل هذا الأهمال وكل هذا الوقت... فبمجرد استلامك لأمرى هذا ضع عقلك فى رأسك وارسل بقية الأنفار، وإن تباطأت فى تنفيذه صلبتك مثلا بين بقية مديرى الأقاليم.

وهكذا كان حزم محمد على مع موظفيه فى شتى أرجاء مصر، ولم يكن على باله فى اختيار هؤلاء الموظفين إن كانوا مسلمين أو مسيحيين وكان على باله فقط مصر ومصر فقط.

وكان على رأس المسيحيين المعاونين لمحمد على باغوصك بك كبير النظار ونوبار (باشا فيما بعد) الأرمنيان، ومن مساعديه مسيحيين أقباط كثيرين أمثال: المعلم جرجس، وشقيقه المعلم حنا [١٢]، والمعلم منقريوس أبو يوسف البتنونى، والمعلم عبدالملك أو يوسف حباطة، والمعلم جرجس حسب الله البياض، وكذلك المعالم غالى وشقيقه المعلم فرنسيس. وهكذا كان عصر محمد على عهد عمل وإنتاج ورقى تقدمت فيه مصر وطاولت عنان السماء، وعاش المسيحيون والمسلمون أعظم عصور الحرية الدينية. وفى نفس الوقت لم يخل هذا العصر الذى امتد حوالى نصف قرن من الزمان من بعض الضحايا، نذكر منها: اغتيال ابن شيخ المؤرخين عبد الرحمن الجبرتى لنقده الدائم لمحمد على باشا وطريقته فى الحكم والصراحة، وأيضا اغتيال المعلم غالى لخطأ ارتكبه شقيقه المعلم فرنسيس لتزيفه خطاب باسم محمد على[١٣]... أيا كان الأمر فإن مصر عاشت أعظم عصورها فى الحرية والتنمية والتقدم فى عصر محمد على باشا، واستمر الولاة أولاد وأحفاد محمد على على نهج بانى مصر الحديثة والذى لم يكن مصريا ولكنه احب مصر ووهبها حياتة - واعطته مصر فى المقابل العزة والخلود...

استمر أحفاد محمد على الدرب، ونشر العلم وإفشاء الحرية فى ربوعها بين المسلمين والمسيحيين، ويذكر منهم التاريخ الخديو إسماعيل الذى عشق مصر وأعطاها الكثير وكذلك الخديو عباس حلمى الثانى.... وهذا ما سوف نستعرضه فى الفصل التالى، وهو بلورة الوحدة الوطنية.

هوامش الفصل الثامن عشر

(١) إيريس حبيب المصرى ـ قصة الكنيسة المصرية ـ الكتاب الرابع ـ (ص٢٥٨) .

(٢) نفس المصدر.

(٣) المصدر السابق (ص٢٥٩) .

(٤) إيريس حبيب المصرى ـ قصة الكنيسة المصرية ـ الكتاب الرابع ـ (ص٢٦٤) .

(٥) هنرى دوديل ترجمة أحمد عبد الخالق ـ محمد على ـ مكتبة الأداب ومطبعتها. (ص٢٢٨) .

(٦) المصدر السابقة نفسه. (ص٣٣٠ وما بعدها) .

(٧) المصدر السابق (ص٢٣٣) .

(٨) المصدر السابق (ص٢٣٣) .

(٩) هنرى دوديل ـ ترجمة أحمد عبد الخالق ـ محمد على ـ مكتبة الآداب (ص٢٣٣) .

(١٠) هنرى دوديل ـ ترجمة أحمد عبد الخالق ـ محمد على ـ مكتبة الآداب (ص٢٢٢) .

(١١) المصدر السابق (ص٢٢٣) .

(١٢) إيريس حبيب المصرى ـ قصة الكنيسة القبطية الكتاب الرابع ـ (ص٢٦٤) .

(١٣) إيريس جيمس المصرى ـ قصة الكنيسة القبطية الكتاب الرابع ـ (ص٢٧١ وما بعدها) .

الوحدة الوطنية

«إذا كان الإنجليز يتمسكون ببقائهم فى مصر بحجة حماية الأقباط، فإننى أقول ليمت الأقباط وليحيا المسلمون أحرارا...»

القمص مرقص سرجيوس

ثورة ١٩١٩

الوحدة الوطنية

كانت عين بريطانيا دائما على مصر منذ وطئها نابليون عام ١٧٩٨ ، وبذلوا قصارى جهدهم لإخراج الجيش الفرنسى، وبالفعل تم مباغتة نلسون بأسطوله المزود بالمدافع الحديثة للأسطول الفرنسى المستقر فى اطمئنان فى خليج أبو قير طاويا أشرعته. والذى تم إعادته فى عام ١٧٩٩ .

ودخلوا مرة ثانية فى عام ١٨٠٧ ، وهزمهم محمد على وأخرجهم من مصر، واستمرت المحاولات ووضع المخططات إلى أن جاءت الفرصة، واستحكمت حلقات المؤامرة، وتم دخول قوات الإنجليز مصر فى عام ١٨٨٢ ، وخلال عام واحد تم السيطرة على كل البلاد من أدناها إلى أقصاها، وبدأ فى تنفيذ المخطط الاستعمارى الشهير، فرق تسد، وفى وضع العراقيل، واستنباط أساليب الفرقة بين طوائف الشعب.

وأشعلت بريطانيا وأعوانها من العملاء المسلمين والمسيحيين - وهم قليلون جدا - نيران الحرب السياسية والنفسية، لتفتيت الوحدة الوطنية المصرية.

فبدأت الصحف الإنجليزية فى إفشاء روح العداء بين أفراد الشعب المصرى... وفى مقدمتها (التيمس) و (الديلى تلجراف) - على ادعاء أن

الأقباط لم يشتركوا فى الثورة ضد الاحتلال البريطانى إلا خوفا على أموالهم وأرواحهم من المسلمين.

وكان الهدف من ترديد هذا الادعاء - الذى ينكر على الأقباط وطنيتهم - يتأثر به الأقباط، فإما أن يحاولوا نفيه بالانسحاب من الحركة الوطنية، أو بالدخول مع المسلمين فى مساجلات لإثبات شجاعتهم وعدم خوفهم، وتكون نتيجة ذلك إحياء الفتنة الطائفية، وتفتيت الوحدة الوطنية.

وكان من أهداف هدا الادعاء أيضا، الإيحاء بأنه لاعداء بين المسيحيين والإنجليز، وأنه لولا المسلمون لما أثار المسيحيون ضد الإنجليز، وفى هذا الإيحاء استمالة واضحة من الإنجليز للمسيحيين، لإبعادهم عن تيار الثورة.

ولكن الصحف المصرية الوطنية كانت على درجة عالية من الوعى السياسى، جعلتها تهب جميعا تفند ادعاءات صحف الاستعمار فى جو من الحرص الشديد على تعميق الوحدة بين إخوان الوطن (أشقاء الوطن)، وإزالة ما قد يكون عالقا بالنفوس من آثار الفتنة التى أثرت فى مستهل القرن العشرين، حتى أن صحيفة الوطن (القبطية) التى خالفت الثورة فى كثير من الأمور، قالت إن الصحف الإنجليزية أزعجها «اتفاق المسيحيين وارتباطهم بالشعور الوطن الواحد فى المطلب الواحد» ونفت «الوطن» عن المسيحيين صفة البجن والخوف، وأكدت أنهم اشتركوا فى الثورة مدافعين بوطنيتهم العريقة الراسخة التى تتغلغل فيهم، ثم أكدت الصحفية شجاعة الأقباط ووطنيتهم قائلة إنه «لوصح أن المسيحيين حريصون على أموالهم يبيعون بها وطنهم وشرفهم - لكن الأولى بهم أن يرتموا فى أحضان الإنجليز وهم أصحاب الأساطيل والجيوش، ولم يلقوها فى أيدى المسلمين وهم لا حولا لهم ولا قوة ولابطش»(١). وأكدت جريدة الوطن اشتراك المسيحيين فى ثورة ١٩١٩ بمحض إرادتهم بقولها إن «الوطنية المصرية تنزهت فى الحركة الأخيرة عن الشوائب، فسارع الأقباط إليها وعانقوها جزلين مسرورين». وردت عليها جريدة الأهالى فى هذا الصدد بقولها: إن المصريين أرفع نفسا من أن يحقد بعضهم على بعض، وأن تكون وطنية فريق منهم جبنا وخوفا.... وقد علموا دائما أنه إذا حدثت فى

وقت من الأوقات مناقشة بين العنصرين فى إحدى المسائل الجزئية، فما كان إخوانهم المسلمون ليحملون من أجل ذلك حقدا، ولا يكنون ضغينة من ضعائن أهل الشر الخائنين[٢].

وردت مجلة النظام على مفتريات جريدة «التيمس» اللندية برد بعض مظاهر الإخاء والتضامن بين المسيحيين والمسلمين بما لايدع مجالا للشك فى صدق وطنيتهما وقوةاتحادهما.

لم يكف المستعمر عن اتهام الحركة الوطنية، ودأبت بريطانيا فى نفس الوقت اتهام الحركة الوطنية المصرية بالتعصب الدينى الإسلامى. ووجهت هذه التهمة إلى الثورة العرابية، وكذلك للحزب الوطنى. واستغلت ما كان يلتبس بالحركة الوطنية من المسوح الدينية التى تبحث فى سياسة مصطفى كامل القائمة على الاستناد إلى تركيا وسيادتها الرسمية على مصر فى محاربة الاحتلال البريطانى، وتأثر بعض كتاب الحزب الوطنى وأعضائه بفكرة «الجامعة الإسلامية»[٣].

وكان هدف الاستعمار فى ذلك:

١ ـ تبرير بقاء الاحتلال البريطانى بمصر أمام الرأى العام الأوربى؛ لأن الأوروبيين تستعديهم دعوى التعصب الإسلامى ضد المسيحيين، ولأن ذوى الاتجاه العلمانى تستعديهم دعاوى التعصب الدينى عامة، وهو دليل لديهم على تخلف الشعب تخلفا يحق معه بقاء احتلاله.

٢ ـ تفتيت الوحدة الوطنية، وعزل المسيحيين عن تيار الحركة الوطنية، وإيجاد الخلافات الطائفية، أو تغذية القائم منها حتى تستحيل مقاومة الاحتلال بتجميع شعبى وطنى واحد، ويتعذر بناء الدولة أو تنظيمات الأحزاب على نحو علمانى قادر على تطوير المجتمع.

٣ ـ تجريد الحركة الوطنية المصرية من مضمونها الوطنى والقومى، وإخفاء حقيقة الصراع بين الحركة الوطنية والاستعمار، بتصويره كصراع دينى لا سياسى، صراع بين التخلف الشرقى والتنور الأوروبى، وليس صراعا سياسيا

واقتصاديا بين الاستعمار، وبين شعب وقع وطأته. وفى نفس الوقت الذى دأب فيه المستعمر على اتهام الحركة الوطنية بالتعصب الدينى الإسلامى، سعى إلى تغذية الاتجاه المسيحى المتعصب الذى كان يمثله جندى إبراهيم حينذاك - صحيفة (الوطن).

وقد وجهت ثورة ١٩١٩ بنفس الاتهام، ولنفس الأهداف. ولذلك كان سعد زغلول وأيضا واصف بطرس غالى حريصين دائما فى أحاديثهما للصحف الأجنبية فى باريس، على نفى الصبغة الدينية عن الثورة، وتأكيد وطنيتها وعلمانيتها، ولما ترددت الشائعات حول وقوع الخلاف بين أعضاء الوفد فى باريس، بادر سعد زغلول بالكتابة إلى لجنة الوفد المركزية بالقاهرة، ليؤكد أن الاتفاق تام بين جميع الأعضاء، والاتحاد متين بين المسيحيين والمسلمين.

وفى بيان زعيم الثورة إلى الأمة المصرية يوم ١٨ فبراير سنة ١٩٢٠ - أكد سعد زغلول الصفة الوطنية الشعبية للثورة، وأبعد عنها الصفة الدينية قائلا: إن الثورة لم تقم تعصبا لدين، ولكنها اشتعلت حبا فى الوطن. وقد أرجع اللورد ملنر فى تقريره - رفض المصريين للحماية البريطانية إلى أن وجود المسلم فى مركز سياسى تحت إشراف المسيحى مناف لروح الإسلام، وهذا ما حدا بالعنصر الدينى فى البلاد إلى معارضة الناس والحكومة الإسلامية لملك مسيحى خضوعا دائما. فردت جريدة «النظام» على ادعاءات ملنر بأن المصريين ليسوا مسلمين فقط، بل وأقباطا أيضا، وقد اشتركوا جميعا فى الثورة، فهل فسر الأقباط معنى الحماية كما فعل المسلمون.

ولقد كان اشتراك رجال الدين المسلمين والمسيحيين فى المظاهرات، واستخدام الجوامع والكنائس كمراكز الثورة - دليلا على وحدة شقى الأمة، ولكن الاستعمار اعتبر ذلك دليلا على اصطباغ الثورة بالصبغه الدينية العامة منكرا صفتها العلمانية، وهذا ما أوردته صحيفتا «التيمس» و«الإجيشان ميل»، فردت عليهما صحيفتى «الأهالى» و«وادى النيل» بإن رجال الدين جزء من الأمة، واشتراكهم فى الثورة كفيل بسيرها فى سبيل التعقل والحكمة[٤]. وفى مواجهة ادعاءات كتاب الصحف الأجنبية الاستعمارية، عنيت الصحف

الوطنية بآراء الأجانب المستعمرين والمتعاطفين مع القضية المصرية التى كانوا يعلنونها على صفحات بعض الصحف الأجنبية بالطبع، وفى الاجتماعات السياسية بالجامع الأزهر، ويؤكدون فيها الوحدة بين المسيحيين والمسلمين، وينفون كراهية المسلمين للمسيحيين المصريين وأيضا الأجانب.

وعن الصلة الدينية بين مصر وتركيا، وأثرها على مشاعر المسلمين تجاه عطف بريطانيا، نقلت (وادى النيل) عن (المانشستر جارديان) قولها إن عطف المصريين على دار الخلافة الآستانة لا يحدوها إلى الهياج، واشتراك المساجد فى الثورة لم يصبغها بالصبغة الدينية، ولا توجد بواعث دينية تحركها، وإنما مطالب المصريين وطنية محضة.

وقال «النظام» إن المصريين المسلمين تغاضوا عن العلاقات الدينية التى تربطهم بخلافتهم، وساعدوا الحلفاء على قتالها وكسرها؛ لأنهم سمعوا سادتهم يعلنون الجهاد فى سبيل المبادئ السامية الشريفة؛ ولأنهم اعتقدوا أن انتصار الحلفاء يعد انتصارا لآمالهم الوطنية وحقوقهم القومية». وعبرت صحيفه (مصر) عن غلبة «الجامعة المصرية» على «الجامعة الإسلامية» بقولها: (إن المصريين اعتنقوا دينا جديدا هو دين الوطن الذى أقرته كل الأديان السماوية، وعلم المصريون على اختلاف أديانهم أن يتحدوا قلبا وقالبا، ويصيحوا بصوت واحد «لتحيا مصر»).

وكان ثالث المحاور التى ركز عليها الاستعمار من أجل ضرب الوحدة الوطنية، هى إثارة الصراع حول الوظائف الحكومية، وخلق التنافس المشوب بالحقد بين المسلمين والمسيحيين من ناحية، ومن ناحية آخرى استثارة الموظفين المسلمين ضد المسيحيين بحجة أن المسحيين يزاحمونهم فى شغل الوظائف، ويشغلون من المناصب نسبة تزيد عن نسبتهم العددية، وكان من ناحية أخرى استثارة الموظفين المسيحيين بادعاء أن الشعور الإسلامى هو الذى يحد من ترقيتهم فى وظائف الدولة الكبرى، وكانت الصحف الأوروبية تهول من الأمر، وتنشر التعليقات المستفزة. وقد أثير موضوع تولى المسيحيين

المناصب العامـة، قبل ثورة ١٩١٩، منذ سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١١ – على صفحات (الدستور، واللواء، ومصر، والوطن، والمقطم).

وقد أقر المؤتمر المسيحى بأسيوط والمؤتمر المصرى بالقاهرة – مبدأ الاختيار للوظائف حسب الكفاءة بغض النظر عن الدين. وفى مستهل ثورة ١٩١٩ نشرت صحيفة الـ(إجبشيان جازيت) رسالة ادعت أنها من مواطن مسيحى، تضمنت عدة مطالب للمسيحيين منها: إسناد بعض الوظائف الإدارية الكبرى إليهم.

ولكن صحيفة (مصر) المسيحية أسرعت بتكذيب الـ(إجبشيان جازيت)، ونبهت على أن هذا القول نسب إلى المسيحيين حينما ظهر اتحادهم مع بقية إخوانهم الوطنيين بشكل واضح تجلى فيه الإخلاص بنوره الساطع. وسردت الصحيفة تاريخ العلاقات الطيبة بين المسيحيين والمسلمين منذ تحرير مصر من المستعمر البيزنطى، ودخول الإسلام إليها، وأظهرت كيف ساد الإخاء والعدل مصر كلها وقالت: ما كان يفسد التآخى بين أفراد الشعب خلال التاريخ الطويل... غير عوامل خارجية.

وفى نفس يوم تعيين يوسف وهبة باشا رئيسا للوزارة – نشرت الـ إجبشيان جازيت) رسالة نسبتها إلى حبيب شنودة بك عمدة أسيوط وبعض المسيحيين، يشكون فيها من السياسة الإنجليزية التى حرمت المسيحيين من الوصول إلى الدرجات العليا من الوظائف الحكومية، وقد حمل كثير من المسيحيين على الانضمام إلى الحركة الثورية القائمة الآن فى مصر، لذا نرجوا أن توجهوا التفات لجنة ملنر إلى هذه الحقيقة[٥]. وكان الهدف من نشر هذه الرسالة بهذا الأسلوب، إشاعة الشكوك بين المسلمين والمسيحيين[٦]، وإظهار المسيحيين كأنهم يطالبون بالوظائف ثمنا لانسحابهم من الحركة الوطنية، ولكن ثورة المسيحيين الفورية العنيفة ضد يوسف وهبة باشا ـ لم تعط فرصة للشكوك أن تنتشر، كما أن الصحف الوطنية بادرت بإفساد ما كان يقصد بنشر الرسالة من بث روح الفرقة. فقالت (الأخبار) إن كتابة هذه الرسالة ليس من الكياسة فى شئ، وإنها تؤول تأويلا سيئا، وقالت إن سعد زغلول كتب إلى سينوت حنا فى

العام السابق يقول: «إن المسلمين متضامنون مع المسيحيين فيما يختص بمسألة الوظائف وغيرها من المطالب الثانوية».

وأوضحت صحيفة «النظام» أن الرسالتين التى نشرتهما (صحيفة الجازيت) ملفقتان، وطلبت من الجازيت الكف عن محاولتها لهدم الوحدة الوطنية، وأكدت أن تلك الوحدة أقوى من كل الافتراءات. ولم تمض ثلاثة أيام حتى أرسل حبيب شنودة تكذيبا إلى الصحف، أكد فيه أن الرسالة مزورة، وطلب من الإجبشيان جازيت» تكذيب ما نشرته، أو تقديم الخطاب إلى النيابة للتحقيق، وتقديم صاحبة للمحاكمة على جنايته التى يزيد بها التفريق بين أبناء أمة شاء الله أن تتحد إلى الأبد».

واحتج المسيحيون على الرسالة المزيفة، وبعثوا بالتحية إلى عمدة أسيوط الذى أسرع إلى تكذيبها.

وألقى وليم مكرم عبيد خطابا فى حفل تكريم صادق حنين بعد رفده من وظيفته – قال فيه: خذوا منا وظائفنا وأموالنا ومستقبلنا، ولكن اتركوا لنا إخلاصنا؛ فهو كل ما نملكه، قواما لحياتنا وغذاء لنفوسنا... وفى أثناء عمل لجنة الدستور، أشيع أن وزارة عبد الخالق ثروت وزرعت أمرا سريا على مصالح الحكومة المختلفة بأن تراعى فى التعيين أن تكون نسبة الموظفين المسيحيين إلى المسلمين واحدا إلى اثنى عشر، تنفيذا لمبدأ حماية الأقليات ورد فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢.

ووجه (المستر سوات) عضو مجلس العموم البريطانى المتعاطف مع المسألة المصرية، سؤالا إلى وكيل وزارة الخارجية البريطانية. «عن مدى صحة هذه الشائعة، وهل يراد بهذه السياسة الانتقام من المسيحيين لانضمامهم إلى المسلمين فى الحركة الوطنية»؟

وعندئذ طالبت بعض الصحف المصرية الحكومة المصرية بإعلان موقفها، ولكن الوزارة سكتت، فاتهمتها بعض الصحف بأنها «تعمل بوحى من الاقتراحات التى عرضتها عليها حكومة لندن». واحتج المسيحيون وأعلنوا أنهم

«فى غنى عن تلك الحماية الموهومة التى لا يراد بها إلا التفريق بيننا وبين إخواننا المسلمين، والقضاء على الحركة الوطنية».

وكان رابع المحاور التى سلكها الاستعمار فى حرب الوطنية المصرية هو محاولة إثارة الفتنة الطائفية بتعيين رئيس وزارة مسيحى يتعاون مع الإنجليز، وهو يوسف وهبة باشا على أثر استقالة وزارة محمد سعيد نتيجة للمعارضة الشديدة التى واجهتها من الوطنيين، وكان هدف الإنجليز أنه لو سكت الشعب على الوزارة تحقق الهدوء الذى يرجوه الانجليز عند وصول لجنة ملنر، ولو ثار الناس عليها يقال إن الثورة موجهة إلى رئيسها المسيحى الذى رفضه المسلمون، وفى الحالتين يمكن الادعاء بأن المسيحيين يرحبون بلجنة ملنر، وأما إذا تعرض رئيس الوزراء للاغتيال، فإنه يمكن استغلال الحادث كما استغل من قبل حادث اغتيال بطرس غالى باشا.

وفور زيوع خبر تشكيل الوزارة يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩١٩ - اجتمع عدد كبير من المسيحيين فى الكنيسة المرقسية الكبرى، وأبرقوا إلى يوسف وهبة محتجين بشدة على قبوله رئاسة الوزارة «إذ أن قبوله للوزارة قبولا للحماية ومناقشة لجنة ملنر، وهذا يخالف ما تخالفت عليه الأمة المصرية فى طلب الاستقلا التام، ومقاطعة اللجنة».

وأخذت الصحف تنتشر رسائل الاحتجاج من المسيحيين على اختلاف طبقاتهم بالعاصمة والأقاليم».

وكتب سينوت حنا فى صحيفة «مصر» يهاجم يوسف وهبة، وينبه إلى أن الهدف من تعيينة هو التفرقة بين المسيحيين والمسلمين، ونقلت مصر عن الـ «جورنال دى كير» قول ويصا واصف باشا أن يوسف وهبة لا يمثل المسيحيين، ولا يعبر عن أمانيهم.

ولما رأى قادة الحركة الوطنية مدى استياء المسيحيين من مخالفة يوسف وهبة اتجاه الحركة الوطنية، وخشيتهم من حدوث نفور بينهم وبين إخوانهم المسلمين - توجهت جماعة من أعضاء الوفد ولجنته المركزية، يتقدمهم عبد

الرحمن فهمى سكرتير عام اللجنة، إلى الكنيسة المرقسية يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٩١٩ ليؤكد لإخوانهم المسيحيين تألم المسلمين أيضا من فعلة يوسف وهبة، وأنها لا يمكن أن تسبب فتورا فى العلاقات بين العنصرين، لأنه إذا وجد بين المسيحيين خائن وقبل رئاسة الوزارة فى هذه الظروف الحرجة، فقد وجد بجواره سبعة من الوزراء المسلمين. ونشرا لهذا المعنى، أفسحت الصحف المجال لرسائل المواطنين المسلمين التى يشكرون فيها إخوانهم المسيحيين، على صدق وطنيتهم وإخلاصهم لأمتهم».

ولا غرو فى ذلك فإن المسحيين والمسلمين أخوة، فهم أولاد عم وأولاد خال بدرجات، فهم كلهم (أقباط)، أقصد مصريين.. دم واحد وعنصر واحد. وأبدى سعد زغلول إعجابه بتبرء المسيحيين من يوسف وهبة، وبما كتبه ويصا واصف فى صحيفة «الجورنال دى كير» من اعترض شديد عليه(٧).

وبذلك أكدت قيادة الوفد والصحف الوطنية، أن المسلمين متضامنون مع المسيحيين لإسقاط الوزارة غير الوطنية. وردا على تعيين يوسف وهبة رئيسا للوزارة، انتخبت اللجنة المركزية للوفد مرقص حنا وكيلا للجنة ونائبا لرئيسها محمود سليمان، الذى كانت السلطة البريطانية قد حددت إقامته خارج القاهرة. ورحبت الصحف الوطنية بتلك الخطوة التى «خرجت بالوحدة القومية المصرية التى أرادوا تفكك عراها - أقوى وأبهى مما كانت عليه. وتلقى رسالة العالم من المصريين درسا لا ينسى فى الوطنية الصحيحة والدهاء السياسى...»

وعندما أرادت الحركة الوطنية التخلص من يوسف وهبه باغتياله، جندت لذلك أحد الوطنين المسيحيين هو عريان يوسف سعد، وكان طالبا بكلية الطب، وذلك حتى لا تعطى للمستعمر الفرصة لإشغال نار الفتنة بين أبناء الأمة، إذا قام بالاغتيال أحد المصريين المسلمين.

وبالفعل ألقى عريان يوسف قنبلتين على رئيس الوزارة صباح يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٩، بينما كان مارا بسيارته بشارع سليمان باشا متجها إلى وزارة المالية، ورغم انفجار القنبلتين، إلا أنهما لم يصيبا رئيس الوزارء ولا السيارة.

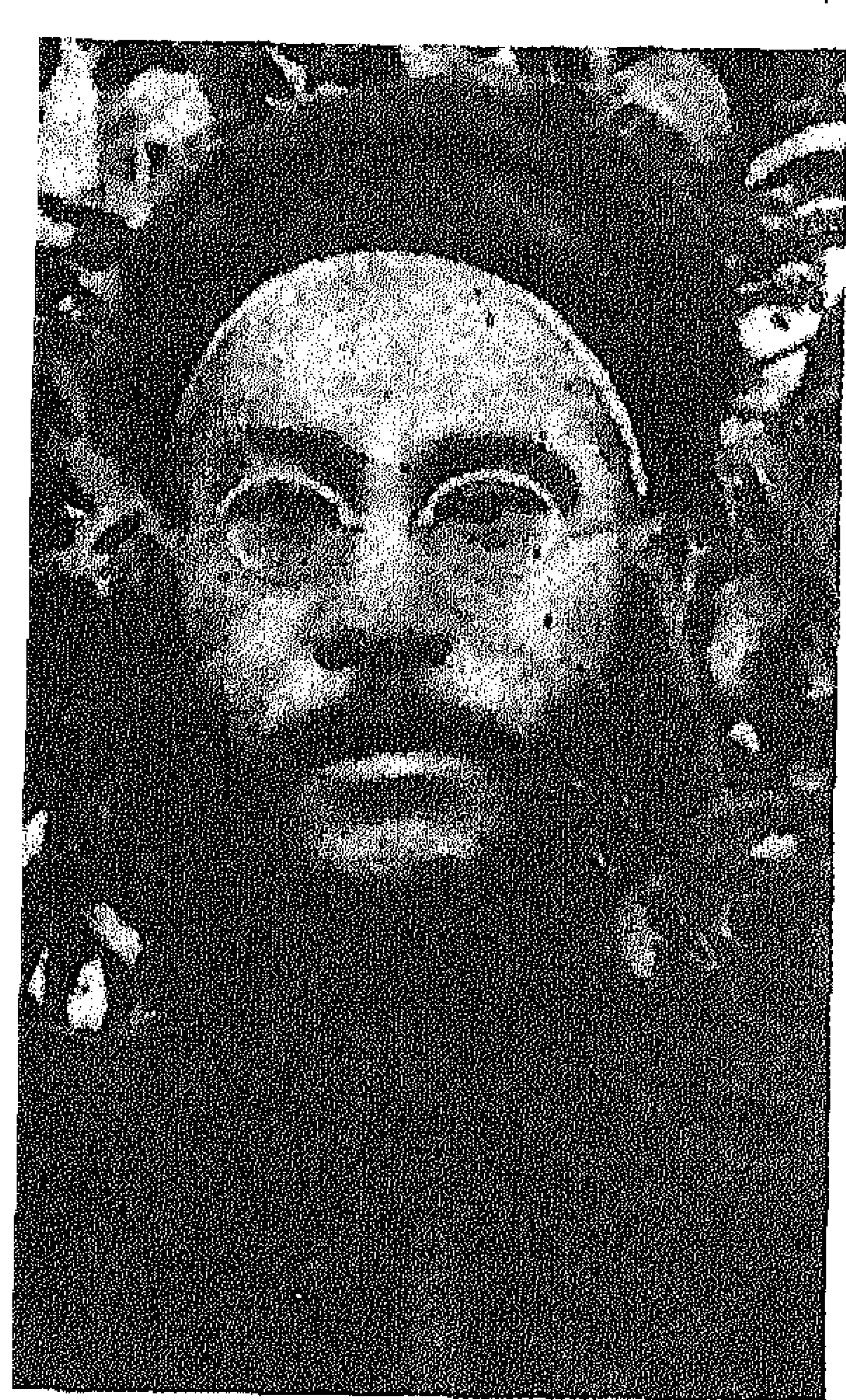
وقبض على الشاب الوطني وهو يحاول إخراج مسدس من جيبه، واعترف في التحقيق أنه كان يحاول اغتيال يوسف وهبه باشا، وحولوه أمام محكمة عسكرية إنجليزية، قضت عليه بالأشغال الشاقة لمدة عشرة سنوات، وأفرج عنه سنة ١٩٢٤ ضمن من شملهم العفو في عهد وزارة سعد زغلول.

وكانت حينئذاك الصحف الوطنية، متعاطفة مع عريان يوسف عن محاكمته، فقالت جريدة النظام إن الذى دفعه إلى اغتيال رئيس الوزراء هو إخلاصه لوطنه مصر.

ثم نقلت عن صحيفة الـ «جورنال» الباريسية قولها إنه «أراد أن يبرهن بهذا العمل على تعاضد وتماسك المسيحيين والمسلمين فيما يختص بالمطالب الوطنية». وكتب عبد الرحمن فهمي من القاهرة إلى سعد زغلول في باريس، يصف مدى شجاعة عريان يوسف في أثناء المحاكمة ويقول: «إن شجاعته يفتخر بها المصرى أينما كان وحيثما كان».

وأوضح إبراهيم عبد الهادى كيف أن عريان يوسف يعد، الشاب المسيحى الوطنى الذى كان طالبا متفوقا بكلية الطب – أصر على اغتيال رئيس الوزراء، ورفض رفضا قاطعا أن يتولى هذه التضحية أحد سواه، باعتباره مسيحيا مصريا صميما، وبذلك تسد المسالك على اللاعبين بالنار، المحاولين إشعال نار التفرقة والفتنة الدينية، وتفويت الفرصة على الإنجليز للتدخل في الأمور الداخلية المصرية.

وتوالت بعد ذلك محاولات اغتيال ثلاثة من الوزارء المسلمين الأعضاء في وزارة يوسف وهبة باشا، فلم يكن الدافع وراء محاولات اغتيالهم جميعا هو الانتماء الدينى أو الطائفى[٨]، بل السلوك السياسى، وفي وجدان هؤلاء كلهم أنهم إخوان وأولاد عم وأولاد خال، فهم كلهم أحفاد الأقباط، أقصد المصريين الذين استشهدوا من أجل مصر، ولم يحنوا الرؤوس للأباطرة والقياصرة إن كان ذلك في عصر الاستشهاد، والذى قاده دقلديانوس، أو في عهد قسطنطين حتى عصر هرقل فإنهم لم يطأطئوا الرؤوس، وفي النهاية فشل المستعمر في تحقيق



شارك القمص مرقص سرجيوس فى ثورة ١٩١٩ رافعا شعار «وحدة الهلال مع الصليب». وكان يكتب فى الصحف ويخطب فى الجوامع والكنائس والشوارع منددا بالاحتلال مطالبا بالاستقلال. واشتهر بين رجال الثورة بلقب «خطيب مصر» الذى ناداه به سعد زغلول واعتقلته سلطات الاحتلال البريطانى لمدة ٨٠ يوما فى معتقل رفح.

أثر عنه قوله على منبر الأزهر: إذا كان الإنجليز يتمسكون ببقائهم فى مصر بحجة حماية الأقباط فإننى أقول: «ليمت القبط وليحيى المسلمون أحرارا..»



يوسف وهبه

كان وزيرا للمالية فى وزارة محمد سعيد، فلما استقالت الوزارة وضعه الإنجليز يوم ٢١ نوفمبر ١٩١٩ على رأس الوزارة الجديدة، فى وقت حرج اتفقت فيه الأمة على الامتناع عن تولى مناصب الوزارة، وعلى مقاطع لجنة (ملنر)، فثار عليه الأقباط والمسلمون، واجبروه على الاستقالة بعد أن تطوع شاب قبطى لاغتياله.

هدفـه فى إذلال الشـعب المصـرى، وتعـيين يوسف وهبـة رئيـسا للوزراء، وانتـصرت فى النهاية الوحـدة الوطنية وأخـفقت وزارة يوسف وهبة باشا فى تحقيق مهمتها والتعاون مع لجنة ملنر، ونجحت مقاطعة الشعب للجنة وسارت الحركة الوطنية فى طريقها، فقدمت الوزارة استقالتها فى عام ١٩ مايو سنة ١٩٢٠.

وبعد أن فشلت بريطانيا فى خلق الفـتنة بين عنصرى الأمـة.... كـانت أوراق المحور المنافس جاهزة فى الخفاء بالفعل، إذا بدأت التدبير فى ضرب القومية المصرية، وهى محاولة تفتيت المجتمع المصرى إلى أكثرية مسلمة وأقليات غير مسلمة تحت الحماية البريطانية، مركزا على المسيحيين؛ باعتبارهم الأقلية الدينية الأساسية فى مصر، فإذا أمكن عن طريقها إقرار مبدأ الأقليات، أمكن اصطناع أقليات أخرى كالعرب (البدو) والأوروبيين والشوام وغيرهم.

فكانت بريطانيا تسعى لتبرير وجودها الدائم فى مصر بحماية الأقليات: المسيحيين، والأوروبيين، والأقليات المقيمة فى مصر؛ كزريعة للتدخل المستمر فى شئون مصر الداخلية. ودأبت على اتهام الأغلبية المسلمة بالتعصب الدينى ضد المسيحيين وبقية الأقليات المسيحية الأخرى لوصف المصريين بالتخلف الحضارى، ولتبرير حماية الأقليات.

فقد حرص اللورد كيرزون، فى مشروع المعاهدة الذى قدمه لعدلى يكن فى نوفمبر سنة ١٩٢١ على تخصيص بنود الباب العاشر لحماية الأقليات. وعندما اعترف الإنجليز باستقلال مصر فى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، انتقصوا من هذا الاستقلال بالنص على حماية الإنجليز للمصالح الأجنبية والأقليات. غير أن ثورة ١٩١٩ وقفت ضد الاعترافات بأى تحفظ دولى بخصوص الأقليات المصرية وهاجم الوفد والحزب الديمقراطى المصرى تصريح ٢٨ فبراير ورفضته الحركة الوطنية، واعتبرت حماية الأقليات وسيلة للتدخل البريطانى فى الشئون المصرية(٩).

وهم[10] يعلنون رفضهم الحماية البريطانية واعتبارهم اقلية، وأكدوا أنهم يفضلون الاندماج فى الأكثرية المسلمة. وكان موقفهم هذا استمرار لتاريخهم الذى يؤكد أن العقيدة الدينية لديهم اتحدت بالوطنية، فكان شرط دخول واحد منهم تحت حماية دول أجنبية أن يغير عقيدته، ويتنكر للوطنية، وهذا يتضمن فى نفس اللحظة التنكر للكنيسة، ولقد أدى حرص المسيحيون على عقيدتهم وإيمان كنيستهم إلى رفضهم كل دعوة للانضمام تحت أى لواء أجنبى دينى أو، سياسى، وجعلهم أحد الأركان الوطنية فى مقاومة السيطرة الاستعمارية الدخيلة.

وتأكيدا لهذه المعانى أعلن واصف بطرس غالى سكرتير الوفد ـ أن انجلترا ليس لها حق حماية الأقليات؛ لأنه من اختصاص عصبة الأمم، وأن المصريين يعتبرون ذلك تدخلا فى شئونهم. وقالت صحيفة (وادى النيل) التى نشرت أقوال واصف بطرس، إن حماية الأقليات تهدف إلى التفرقة بين المصريين[11].

وأكدت صحيفة مصر أن الأقباط جزء لا ينفصل عن الأمة المصرية، ونحن نقاوم هذا التمييز كل المقاومة، إذ لا غرض منه سوى التفريق بين أمة متحدة لبلوغ أغراض سياسية.

وكان رأى صحيفة النظام أن حماية الأقليات وسيلة لتحقيق أغرض ومطامع الإنجليز، وهدم استقلال مصر.

وكان المحور الأساسى فى ضرب القومية المصرية. هو محاولة تفتيت المجالس النيابية المصرية إلى أكثرية وأقليات. وهكذا دأب الاحتلال البريطانى على وضع مبدأ تمثيل الأقليات فى الهيئات النيابية المصرية، تأكيدا للتفرقة بين المصريين.

وقد أثير هذا الموضوع فى المؤتمرات المصرية العديدة التى انعقدت فى مصر فى هذه الفترة، ولكن المصريين رفضوا مبدأ التمثيل الطائفى، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين، رغم جو الإثارة الطائفية الذى افتعله الاستعمار، فانتهز

الإنجليز فرصة إنشاء الجمعية التشريعية عام ١٩١٣، وحرص اللورد كتشنر الذى وضع نظامها على تقرير مبدأ التمثيل الطائفى، ثم نص تصريح ٢٨ فبراير على حماية إنجلترا للأقليات، وألقى هذا النص بظلاله على مناقشات لجنة إعداد دستور سنة ١٩٢٣ فقد طالب حسين رشدى بالنص فى الدستور على حماية الأقليات لإسقاط حجة بريطانيا فى حمايتها لهم.

وطالب توفيق دوس بوضع نظام لأقليات يضمن تمثيلها النيابى لسببين: أولهما سياسى هو: غلق الباب أمام التدخل الأجنبى، وثانيهما سبب قانونى هو : أن يوجد من يمثل مصالح الأقليات فى المجلس النيابى الذى يقرر التنظيمات التشريعية فى مصر، ودساتير بلجيكا وأسبانيا عرفت نظام تمثيل الأقليات.

وأيد محمود عزمى رأى توفيق دوس،.وقال إن المجلس النيابى يتولى بحث شئون اجتماعية وتعليمية مرتبطة بالدين، وإن تضامن العناصر المصرية يوجب تمثيل الأقليات، وانضم إلى توفيق دوس محمود عزمى، وإلياس عوض ويوسف قطاوى(١٢)، وعلى المنزلاوى، وعبد اللطيف المكباتى.

وقد أيدت صحيفة الوطن تمثيل الأقليات، وقالت إنه برهان عملى على أن الحكومة تصون مصالح هذه الأقليات، فليس ثمة ما يدعو الحكومة الإنجليزية إلى تحريك ساكن بحجة الدفاع عن مصالحهم يوما ما. وروت الوطن مناقشات لجنه الدستور حول استقالة الأنبا يوأنس منها، وكيف أجمع الأعضاء على ضرورة انضمام أب روحى بدلا منه واستخلصت الصحيفة من ذلك أنه إذا كان أعضاء لجنة الدستور لم يستطيعوا الاستغناء عن عضو أو أعضاء يمثلون الأقليات المسيحية وهم يضعون نصوص الدستور، فهل فى وسع البرلمان المصرى الذى سيكون وليد هذا الدستور أن يستغنى عن الأعضاء الذين يمثلون الأقليات ليعرف آراءهم فيما سيعرض عليهم من الأمور التى لها مساس بهم؟! إننا لا نعتقد ذلك، ويشاركنا فى هذا الاعتقاد أعضاء لجنة الدستور أنفسهم. وأخذت صحيفة المقطم تنشر آراء المسيحيين والمسلمين المؤيدة لتمثيل الأقليات، وكانت تدور حول السبب السياسى، وهو أن عدم تمثيل المسيحيين فى البرلمان يجعل من العسير على من يفاض الإنجليز من النواب المسلمين

سينوت حنا

من أوائل أعضاء الوفد الأقباط. رافق الوفد برئاسة سعد زغلول فى باريس سنة ١٩١٩. زامل سعد زغلول فى منفاه بجزيرة سيشل سنة ١٩٢٢. نالت مقالاته «الوطنية ديننا والاستقلال حياتنا» فى صحيفتى (مصر) و (الأفكار)، شهرة واسعة. أثر عنه قوله: «إن القبط يقبلون التضحية بحياتهم فى سبيل استقلال مصر».



عريان يوسف سعد

الشاب القبطى الوطنى (١٩ سنة) الذى تطوع لاغتيال يوسف وهبة رئيس الوزراء القبطى، لازاحته عن طريق الحركة الوطنية، ولتلافى حدوث فتنة طائفية اذا قام بالاغتيال أحد المسلمين، وقد نال تقدير الجميع.



التحدث باسم المسيحيين، والقول بأنهم لايريدون حماية الإنجليز لهم، وأن تمثيل الأقليات. فى البرلمان هو الطريق العملى لرفض الحماية.

أما معارضى تمثيل الأقليات فى لجنة الدستور فكان فى مقدمتهم: عبد الحميد بدوى، وعبد العزيز فهمى، وعلى ماهر، وأحمد طلعت، ومحود أبو النصر، وخلينى فهمى.

وكان رأى عبد الحميد بدوى أن السبب السياسى الذى ادعاه توفيق دوس – وهو إسقاط حجة بريطانيا فى التدخل – سبب غير قائم، وأن المعاهدات الدولية لم تزد عن تأكيد مبدأ المساواة، ولم يقبل أحد تقرير مبدأ تمثيل الأقليات. وقال إن السبب القانونى غير قائم أيضا؛ لأن الأكثرية ليست أكثرية فحسب، بل هى طوائف تفصل بينها المصلحة: كالملاك والتجار والمهندسين، ولا يقول أحد بوجوب تمثيل هذه الطوائف، وأضاف أن تمثيل الأقليات فى دستور بلجيكا يتعلق بالأقليات السياسية لا الدينية.

ورد عبد الحميد بدوى على تخوف دوس من ضياع حقوق الأقلية، بأن الأساس هو التفاهم والتسامح، وكان الخلاف دائما موقفا استثنائيا، وأن الفارق الدينى ينمحى بمرور الزمن، ووجود تمثيل الأقليات يوجد الجهة التى تحرص عليه، فتزيد الفوارق وتنمو. وقال عبد العزيز فهمى فى هذا الصدد إن تمثيل الأقليات يعنى منحهم امتيازا ليس لغيرهم، مع أن الروح الديمقراطية تعنى إزالة الفوارق.

بقية آراء معارضى التمثيل فى اللجنة حول هذه المعانى، وقد عارض الوفد والحزب الوطنى مبدأ تمثيل الأقليات، كما عارضته الأغلبية الساحقة من المسيحيين(١٣). وكتب عزيز ميرهم عن الحزب الوطنى الديمقراطى فى الأهرام وغيرها –يرد على مؤيدى تمثيل الأقليات وخاصة محمود عزمى، فاتهم لجنة الدستور بوجود عناصر رجعية بها، وقال إن القوانين تتطور من دينية محضة إلى مدينة صرفة، والأكثرية والأقليات ستزول وتحل محلها جماعات سياسية واقتصادية تتألف منها الأحزاب، ويجب على الدساتير

مساعدة هذا التطور. ولا شك أن عزيز ميرهم بأرائه هذه المتطورة والحديثة ما هو إلا انعكاس لما فى وجدانه وأحشائه من أن دماء المصريين واحدة، وعنصرهم واحد، فهم أبناء وحفدة الشعب القبطى العريق.

أما صحيفة النظام فقالت إن الدساتير العصرية لا تعترف بالأقليات الدينية، وأن النص على تمثيلها يقوى حجة الاستعمار ويبرر له التدخل فى شئون المصريين، وأشادت الصحيفة ببيان الوفد الذى أكد أن الحرية والاستقلال هما دين الأمة المصرية. ووصف الاجتماع الكبير الذى عقده جمهور كبير من المحامين والأطباء والوجهاء والتجار والأعيان والطلبة المسيحيين فى الكنيسة البطرسية، وتحدث فيه سلامة ميخائيل، وأنطون جرجس، وويصا واصف، والشيخ مصطفى القاياتى، وأعلن الجميع تمسكهم بالوحدة الوطنية ورفضهم تمثيل الأقليات، وثقتهم فى مستقبل تسوده المساواة والأخوة.

واحتج مطران أسيوط وراعى كنيسة الروم، وكثير من الأفراد والهيئات على تمثيل الأقليات وعلى أراء توفيق دوس، وأعلنوا تضامن المسيحيين مع المسلمين والرغبة فى فناء الاختلافات الدينية فى الجنسية المصرية، كما أعلن المسيحيون براءتهم من توفيق دوس، ورفضهم أن تعين الحكومة ممثلين لهم فى البرلمان؛ لأن ذلك يعنى افتقارهم إلى من يصلح للانتخابات إذا تركت حرة، أو أن دوس يعتقد بوجود من يصلح، ولكنه يخشى أن يحرم تعصب الأكثرية المسلمة المسيحيين من وجود من يمثلهم. وهكذا أزعجة موقف المسيحيين الوطنى الاستعمار، فهبت وسائل الدعاية والإعلام الاستعمارية تهاجم، فوصفت صحفية «المورننج بوست» بالمنادين بتمثيل المسيحيين بالشجاعة، ووصمت الرافضين للتمثيل بالجبن، وأخذت صحفية الإجبشيان جازيت تضرب على نعمة الأكثرية المسلمة والأقليات المسيحية.

فتصدت النظام لهذه الحملة، وقالت إن الهدف منها هو فتح ثغرة فى اتحاد الشعب المصرى، وأن المسيحيين كانوا أكثر الناس تضحية، وأكثرهم ثباتا وحرصا، ولو تمشوا مع السياسة الانجليزية لكانت «المونتج بوست» أول من

وصفتهم بالشجاعة الأدبية، ولكنهم وقفوا أمام هذه السياسة نوقفا مشرفا، فأغضبوا الاستعمار».

وعارضت اللواء - صحفية الحزب الوطني - تمثيل الأقليات، وامتدحت موقف المسيحيين الذين كانوا في مقدمة المطالبين بالاستقلال، والمعارضين لتفتيت الوحدة الوطنية وقالت «نريد أن نبقى أمة واحدة ممثلة أحسن تمثيل في برلمانها، يجلس كل مندوب فوق كرسيه، ولا يشعر إلا أنه مصرى، فلتكن لإخواننا المسيحيين الأغلبية ولتكن للمسلمين الأقلية، وإنما لا توجد المساواة حتى يكون إحساس كل منهم واحد هو أنه مصرى ولا يعمل لغير مصر».

وأفسحت الصحفية صدرها لآراء المسلمين والمسحيين الذين عارضوا تمثيل الأقليات. ورغم أن المقطم رحبت بأراء المؤيدين لتمثيل الأقليات فقد نشرت آراء المعارضين أيضا، كما نشرت اقتراحا يحاول حل المشلكة ابتداء من جذورها، ويقضى بتشكيل جمعية من الكتاب والصحفين والعلماء والمحامين والمتعلمين، وتعضدهاب الحكومة ماديا وأدبيا، لتوعية عامة الشعب، وإرشادها إلى كيفية الانتخاب الحر، حتى ينتخب الشعب الأشخاص الأكفاء والمخلصين بغض النظر عن الدين، فيختفى التعصب الدينى وتزول مشكلة الأقليات(١٤).
من هذه الصور العديدة لتأييد أو معرضة تمثيل الأقليات فى الهيئات النيابية، كانوا من بين المسيحيين والمسلميين على السواء، وكذلك كان معارضى التمثيل الطائفى ينتمون إلى شقى الأمة بقدر مساو أيضا، فلم تكن مواقف الشعب المصرى، ناتجة عن الفكر الدينى أو الانتماء الطائفى، بل كانت متبعثه أساسا من النظرة القومية الوطنية، والفكر السياسى للأمور، وهى النظرة القومية الوطنية، والفكر السياسى للأمور، وهى النظرة الواجبة والضرورية لكى ينصهر جميع أفراد الشعب فى بوتقة واحدة، يخرجون منها معدنا صلبا قويا، يواجه الاحتلال والاستغلال والتخلف ويهزمهم جميعا.

وقد انتهت مسألة تمثيل الأقليات برفض هذا التمثيل الطائفى من قبل الأقباط والمسلمين ، فى اللجنة العامة للدستور، بأغلبية ساحقة.

وكـان هذا الرفض خطوة هامـة على طريق التـقـدم فى المألتين الوطنيـة والعلمـانية، ونعنى بـه طلائع المطالبين بـهذا التقدم، وكـان وعدا بالعمل على المزج بين لعناصر الأمة المصرية، وتحقيق العصرية مجتمعا ودولة وعلاقات، ومواجهة الاحتلال البريطانى وأعوانه القلائل الخرنة من المصريين (مسلمين كانوا زو مسيحيين) - من الناحية الوطنية، وفى مواجهة الراوسب الاجتماعية والفكرية القديمة من الناحية العلمانية.

وهكذا نجد أن التاريخ يعيد نفسه ويؤكد الشعب المصرى أنه مع الوقت ومع انقضاء السنين يزداد صلابة ويثبت أنه سبيكة واحدة من خـلال الانصهار والذوبان والتـفـاعل الذى تم خلال المحن والقلاقل عبـر السنين. وكـانت ثورة ١٩١٩ أكبر مثال للوحدة الوطنية فكان الخطباء يشدون بأحلى الكلام من أجل الوحدة، وكـان خطيب الثورة حينذاك القمص مرقص سر جيوس، هكذا كـان يلبقبه المصريون لفصاحة لسانه، وإسلوبة المميز المحب لقلوب المصريين، فقد كان مصريا حتى النخاع، ولم يكن للتعصب مكان فى قلبه، ولا لغل موضع فى صدره، ولا للكراهية مساحة فى مشاعره.

فقد وقف القمص سرجيوس على منبر الأزهر الشريف معلنا أنه مصر أولا. ومصر ثانيا، ومصرى ثالثا، وأعلن أن الوطن لا يعرف مسلما ولا مسيحيا، بل مجاهدين فقط دون تميز بين عمامة ببضاء أو عامة سوداء، وقدم الدليل لجميع المستعمين إليه بوقفته بعمامته السوداء على منبر الأهر، وكذلك كان يخطب فى الشوارع والميـادين، بل كـان يخطب من نوافـذ القطارات اثناء نقله إلى المنفى مقبوضا عليه(١٥).

وذات مرة وقف فى ميدان الأوبرا عند مواجهة فندوق الكونتنتال يخطب فى الجماهير المتزاحمة لا فرق بين مسلم ومسيحى، كلهم مصريون، وفى أثناء خطبته تقدم إليه جندى إنجليزى، شاهرا مسدسيه فى وجـهه حينئذ، هبت الجماهير المحتشدة محذرة إياه «حاسب يا أبونا حيموتوك. وفى هدوء أجاب

أبونا: ومتى كنا نحن المصريون نخاف الموت؟ دعوه.. لتروى دمائى أرض وطنى التى أرتوت بدماء آلاف الشهداء، دعوه يقتلنى ليشهد العالم كيف يعتدى الإنجليز على رجال الدين». وأمام ثباته واستمراره فى الخطابة تراجع الجندى عن قتله.

ومازالت أرجاء صحن مسجد ابن طولون تختزن ذكرى القمص سرجيوس أيضا وشقيقة الشيخ الغاباتى، يتناوبان الخطابة من فوق منبر المسجد، فلما ضاق بهما الإنجليز ذرعا، قاموا بنفيهما معا إلى رفح بسيناء، وكانا فى منفاها يتحدثان عن مصر ويتغنيان بأناشيد الحب والهيام بمصر.

ومازال التاريخ يحتفظ بالكثير من صور الوحدة الوطنية. وفى هذا الصدد أستسمحك عزيزى القارئ فى سياق ما جاء على لسان أخى وصديقى الدكتور رمزى ميخائيل فى كتابه «الوحدة الوطنية فى ثورة ١٩١٩»، فى فصل «الوحدة هى الأساس» إذ يؤكد على حقيقة هامة تبدو واضحة أمام دراسى تاريخ مصر هى «أن الوحدة بين الأقباط والمسيحيين كانت دائما الأساس القوى، والشقاق هو الاستثناء وهو الضعيف».

«وثمة حقيقة ثانية لا تقل أهمية عن الحقيقة السالفة، هى أن أعداء مصر، ينشغلون دائما كلما قويت الحركة الوطنية، لافتعال الفتنة بين الأقباط والمسلمين، أو تغذية أسبابها ودواعيها لدى المتعصبين من الطرفين، الذين يقعون فى شراك السياسة الاستعمارية الرامية رلى تفتيت الجبهة الداخلية، والقضاء على الحركة الوطنية، وليس ظهور النغمة الطائفية فى عام ١٩٠٨، مع اشتداد حركة المطالبة الوطنية بالدستور - سوى مثال واحد لذلك».

إلا أن الوحدة الوطنية كانت تخرج من جولاتها مع الاستعمار أشد قوة وتماسكا، يؤكد ذلك أن المنهج الوطنى العلمانى المتنور، سيطر فى النهاية على ذروة أشد شقاق حدث بين الأقباط والمسلمين فى تاريخ مصر الحديث، وهو الشقاق الذى حدث من عام ١٩١٠ إلى ١٩١١، وعند اغتيال بطرس غالى رئيس الوزراء القبطى، وإعدام قاتله الشاب المسلم إبراهيم الوردانى، ثم انعقاد

المؤتمر القبطى والمؤتمر المصرى، فقد تمكن عقلاء الأمة المصرية من المسلمين والأقباط من قيادة المؤتمرين إلى نبذ التفرقة، وتأكيد الوحدة بين شقى الأمة.

«وقد تمكنت الوحدة الوطنية من احتواء الخلافات والفتن المصطنعة الطارئة؛ لأنها تعتمد على دعائم قوية موغلة في القدم منها: الحالة المتقدمة من الاندماج والانسجام القوى، والتشابه السكانى الذى تحقق خلال تاريخ مصر الطويل، بفعل العوامل الجغرافية والمؤثرات النفسية، ومن شواهدها أن الأقباط والمسلمين يعيشون مختلطين في القرى والمدن، وينتمون إلى نفس الطبقات الاجتماعية، ويمارسون ذات الأعمال الإنتاجية، ويتجاورون في مقاعد الدراسة والوظائف، ويجمعهم كثير من التقاليد والعادات الاجتماعية المشتركة».

«وهذا إلى جانب اللغة والثقافة والتاريخ والكفاح المشترك، والمصالح والآمال القومية الواحدة، والإخاء والطيبة وكراهية العنف المتأصلة في الشخصية المصرية، والتى حالت دون وقوع فتنة طائفية عنيفة واحدة كالتى حدثت فى الهند أو إنجلترا (١٦)».

«وقد اعترف اللورد كرومر، المعتمد البريطانى فى القاهرة ـ بفشل سياسة «فرق تسد» البريطانية فى مصر، على الرغم من نجاحه فى تنفيذها قبل ذلك فى الهند، واضطر حين تحدث عن الأقباط فى كتابه «مصر الحديثة» أن يبرز الوحدة الصلبة التى تضمهم مع أخوتهم المسلمين المصريين. وسجل أن الأقباط كانوا يواجهون الإنجليز بمشاعر خالية من الصداقة، وأنه لم يجد أى فارق بين سلوك الأقباط والمسلمين فى الأمور العامة، وأكد أن الفارق الوحيد بين القبطى والمسلم هو أن الأول يصلى فى كنيسة والثانى يصلى فى مسجد(١٧)».

وبهذا اعترف اللورد كرومر أن المصريين شعب واحد، وأن انتماءهم الوطنى موجه إلى مصر وحدها، على خلاف ما حاول الإقناع به فى نفس

الكتاب، من أن سكان مصر ينقسمون إلى عناصر وطوائف مختلفة الصفات والانتماءات، وأوضح اللورد كرومر أن الاختلاف الوحيد بين الأقباط والمسلمين، هو اختلاف العقيدة الدينية، الذى لم يؤثر إطلاقا على الانتماء الوطنى والسلوك السياحى. والحق ما شهد به الأعداء

ويضيف الدكتور رمزى ميخائيل: «كان للأقباط والمسلمين مواقف موحدة فى كل مراحل الثورة وأعمالها، التى تواجهت من حيث الشدة واللين بين استخدام العنف واللجوء إلى أسلوب التفاوض. وكان رد الاحتلال أن رصاصه لم يفرق بين قبطى ومسلم، وأن أسوار معتقلاته ضمت الوطنيين من الطرفين، تؤكد ذلك محاضر أقسام الشرطة، وسجلات المعتقلات، وتقارير وزارة الداخلية[١٨].

وقد زخرت الصحف والمذكرات والدراسات المختصة بالثورة، بمظاهر الوحدة السياسية بين الأقباط والمسلمين، كالمظاهرات فى الشوارع والاجتماعات السياسية فى المساجد والكنائس التى كان يتصدرها رجال الدين من الطرفين، والتى أحالت الجوامع والكنائس إلى مراكز للثورة، يرفرف عليها شعارها: «الهلال يحتضن الصليب»، فقد أدرك الجميع أن الهلال والصليب ذراعات فى جسد واحد، له قلب واحد هو مصر».

ورحبت الصحف بتأليف «جمعية الوحدة الوطنية» التى كان هدفها تثبيت دعائم الوحدة بين الأقباط والمسلمين، وانتخب لرئاستها الشاعر الشيخ محمود عبد الله القصرى، وضمت مجموعة من خطباء مصر وأدبائها المعروفين من شقى الأمة، وتابعت الصحف نشاط الجمعية التى تمثل فى إقامة الاحتفالات فى الأعياد المسيحية والإسلامية، والاحتجاج على اعتقال الطلبة الوطنيين، والاعتراض على من يخالف اتجاه الحركة الوطنية، وشكر كل من يعضدها[١٩].

وأخذت الصحف تنشر احتجاجات الأقباط المسلمين معا على نفس سعد زغلول وزملاءه، واستخدام العنف مع الوطنيين، واعتقال زعمائهم. ولما

لاحظ القمص مرقص سرجيوس أن الاحتجاجات كادت أن تنصب على اعتقال سينوت حنا، كتب فى صحيفة مصر يقول: «لماذا لا تمتد أشعة هذا الشعور الحار إلى إخوانى العلماء: كالأستاذ الغاباتى والأستاذ أبو العيون، ومحمد أفندى كامل حسين، الذين يقاسون برد الشتاء القارس فى رفح، فضرب بذلك مثلا طيبا على المشاعر الأخوية الوحدوية التى جمعت بين زعماء الاقباط والمسلمين».

وأظهرت الصحف تضامن الأقباط والمسلمين فى مقاطعة لجنة اللورد ملنر، بنشر المقالات التى يعلن فيها رجال الدين والأهالى من الطرفين مقاطعتهم اللجنة. وكان كثير منها يوقع بعبارات تدل على تضامن شقى الأمة مثل «أقباط ومسلموا أسيوط».

وعندما اقتحم الجنود الإنجليز الأزهر يوم ١١ ديسمبر ١٩١٩، اعتبر الأباط ذلك اعتداء على كنائسهم، واحتجوا لدى السلطان، وعلى صفحات الصحف.

«ولما أعلن مستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانى أن مصر جزء من الإمبراطورية البريطانية، احتج الأقباط على ذلك».

«وإيمانا من الأقباط بوحدة وادى النيل، فقد احتجوا على محاكمة الضابط الوطنى على عبد اللطيف فى السودان، وأعلنت صحيفة النظام أن مرقص حنا نقيب المحامين قرر السفر إلى السودان للدفاع عنه»[٢٠].

وهكذا استمرت منظومة الحب، والكفاح المشترك، والاعتقال والحبس والسجن والنفى - على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان تتأكد معها وحدة الدم والجنس واللغة والنعصر، ووحدة الوطن، خلال الوحدة الوطنية، التى لمسناها أثناء مطالعتنا للأوراق السابقة خلال جزئى الكتاب، منذ أن وطئت أقدام الأم الرؤوم السيدة مريم البتول أرض مصر، وبرفقتها ابنها الوحيد عيسى عليه السلام.

الخاتمة

والآن عزيزى القارئ وقد قاربت رحلة إبحارنا على صفحات هذا الكتاب على الانتهاء، حامله فى مضمونها رسالة المحبة والسلام لكل المصريين، والتى استهدفت التأكيد على معان كثيرة لا نشك أن الكل منها يعيها جيدا بمصريته الأصيلة؛ لأننا جميعا نبت هذه الأرض الطيبة الذاخرة بأشجار المحبه الوارفه، وسنابل القمح الكثيفة، وأغصان الزيتون، وأبراج الحمام البيضاء، والتى تملأ حقولنا الخضراء.

حسين كفافي

وأرجو أن تكون رحلتنا هذه قد اتسمت بمتعة فكرية نتيجة غوصنا فى أعماق التاريخ لفترة تمتد لأكثر من عشرين قرنا، ونأسف لما لاقيناه فى رحلتنا هذه - خلال فترة زمنية من إبحارنا - حيث (تخضبت) بعض الأوراق، بدماء كثير من أجدادنا المصرين الذين استشهدوا فى سبيل العقيدة، وكان أنين الكلمات أعلى من أصواتنا، من قسوة التعذيب الذى عانوه كثيرا، نتيجة اعتناقهم المسيحية، على يد المستعمر الدخيل، سواء كان رومانيا، أو بيزنطيا، أو فارسيا، أو مملوكيا، أو عثمانيا، أو فرنسيا، أو بريطانيا.....

وهو أمر ليس بجديد على المصريين الذى اعتنقوا التوحيد منذ فجر التاريخ بينما كان الظلام يسود العالم من حولهم، وحتى قبل ذلك كانوا يسعون فى البحث عن الدين القديم. ومن خلال تلك الرحلة الشائقة استشرفنا رياح التغير تهب من الشرق تحمل نسمات طيبة، والأمل فى حياة أفضل، فكانت إرهاصات التحول بما شابها من خوف وفزع ورهبة الوقوع فى براثن مستعمر جديد، خاصة أن التاريخ قد علمنا أن المستعمر هو المستعمر مهما اختلف الجنس والعرق، وسرعان ما تبدد الخوف وحل محله الأمن والزمان شيئا فشيئا إلى نفوس المصريين، وتحرروا من ذل الخوف ، وعبودية الفزع، ومارسوا حياتهم باطمئنان، وأطلقوا العنان لعقيدتهم أيا كان، لكل عقيدته ووجهته مع احترامه لما يعتقده الآخرون، لكل وجهة هو موليها، لا إكراه فى الدين، وقد تبين الرشد من الغى.

ولم تذكر كتب التاريخ مقاومة ا لمصريين للعرب أثناء تحرير الشعب المصرى، ولم تذكر وقائع تعذيب أو اضطهاد، مثل تلك التى حرصت على ذكرها خلال فترة حكم البيزنطيين، أو الرومان، أو الفرس.

ولم يجد المصريون فى الدين الجديد سوى السماحة والحب والسلام والعدل والطهارة، وهى مبادئ كثيرا ما كانوا يتطلعون إليها ويحلمون بها، قبل اعتنقاهم المسيحية، وكان اعتناق البعض منهم للدين الإسلامى، بعد ذلك،

ناشئا عن اقتناع، وكأنه شئ فطرى، وبالطبع لم يكن ذلك عن رهبة أو فزع أو خوف أو أجبار، بل كان بمحض إرادتهم وإقتناعهم، خاصة وأن حاكمهم عمرو بن العاص كان له علاقات ومعاملات سابقة مع أحد الرهبان المصريين من زمن قصير عند لقائة به، وإنقاذه من الموت وصحبته له إلى مصر، هذا إلى جانب موقف أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب عند تسلمه لكنيسة القيامة عند فتح بيت المقدس، وهم الموقف الذى تواترت به الأنباء، ووصل إلى مسامعهم، بالإضافة إلى موقفه من والى مصر عمرو عند ضرب ولده لأحد المصريين المخالفين له فى العقيدة ظلما، فكانت صيحته المشهورة «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا».

كان ذلك كله من عوامل بعث الطمأنينة فى نفوس المصريين الذى انخرطوا فى صفوف جيوش المسلمين، وتحققت وصية الرسول صلى الله عليه وسلم، بأن أبناء مصر من خير أجناد الأرض، فتحقق للإسلام الانتشار فى شمال أفريقيا برعاة وجند مصريين كانوا مسيحيين قبل ذلك. وتنتهى بنا الرحلة على ضفاف النيل لنتأمل ما تتناوله الرسالة ولنترك العنان لأفكارنا تحلق وتحلق حتى تصل إلى تحقيق وتأكيد ما نبتغيه من هذه الرسالة التى تضمنتها الأوراق بين دفتى هذا الكتاب، ولنؤكد أن المصريين جميعا شعب واحد، وأن مصر الطيبة رحبة الصدر، وتتسع أرضها لكل المعتقدات بسماحة نادرة لا يمكن أن نلمسها أو نجدها فى أى مكان من عالمنا المعاصر، ومن منا مسلما كان أو مسيحيا ليس له صديق أو زميل أو جار يعتنق الدين الآخر، وما تنطوى عليه هذه العلاقة من مواقف إنسانية كبيرة.

إن المجتمع المصرى نسيج واحد، غزلت خيوطه؛ أصالة وفكرا ومعاناة الشعب من أقدم شعوب الأرض قاطبة، ومن الصعب أن نصنف خيوط هذا النسيج على أسس عرقية أو عقائدية، فكما توجد على أرض مصر الكرازة المرقيسية فى كنيسة الإسكندرية أقدم كنائس الأرض بعد كنيسة القيامة، يوجد الجامع الأزهر الشريف، أقدم الجامعات الإسلامية، وكل من الكنيسة والأزهر يقوم بدوره الريادى منذ أقدم العصور، وحتى الآن، وطالما حاول الكثير من

الحاقدين فى عصور لاحقة للفتح الإسلامى بذر بذور الفرقة، ولكنها محاولات باءت بالفشل لأنها نابعة من نظرة ضيقة يحكمها الكثير من العوامل المتدنية الرخيصة، والتى كان من شأنها أن تريد لنحور أصحابها من المستعمرين؛ لأن البيئة المصرية غير قابلة لهذه المحاولات الفاشلة للنيل من وحدة نسيج المجتمع المصرى المتين. وأنه لخير دليل على ذلك فى تاريخنا المعاصر ما يحكيه الاجداد عن مظاهرات ثورة ١٩١٩، والتى كان يقودها القساوسة والشيوخ،يهتفون يحيا الهلال مع الصليب، وسيظل المجتمع المصرى نسيجه المتين الذى يستحيل تمزيق خيوطه أوتصنيفها، متماسكا أمام المتغيرات الدولية، والصراعات العرقية، والقبلية والدينية التى تجتاح العالم من حولنا، كما سيظل هذا المجتمع بنيانا أشم لا تؤثر فيه عوامل التغيير والأفكار المستوردة التى تسعى لشرخ جدران وحدته التى صانها على مر القرون.

ومن هنا كانت رحلتنا على صفحات هذا الكتاب الذى يحمل فى طياته رسالة المحبة والسلام، ليس لتأكيدها فحسب، وإنما لتأصيلها بهدف التذكير، والذكرى تنفع المؤمنين، هداية لأجيال الناشئة فى خضم صراعات مستعرة من حولنا فى عالمنا المعاصر، وقوى لا تألوا جهدا من أجل النيل من مصرنا الحبيبة التى عرفت دائما بسماحتها، ولكن جميع المؤمرات والدسائس التى تستهدف ضرب وحدة المجتمع المصرى مصيرها دائما كان الفشل، فإن دماء هذا الشعب واحدة غالية يضحى بها من أجل الحفاظ على كيانه، كما ضحى بها من قبل. من هذا اكتسب أصالته وكبرياءه وشموخه عبر التاريخ، فكان شعب السلام الذى لم يعتد به طيلة تاريخه على امتداد آلاف السنين - على جيرانه، كما أنه عاش يجمع الحب بين أفراده .

وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

كتب ينبغى الإطلاع عليها

المراجع

١ - إيريس حبيب المصرى - قصة الكنيسة القبطية - الجزء الأول - مكتبة كنيسة مار جرجس - الإسكندرية.

٢ - إيريس حبيب المصرى - قصة الكنيسة القبطية - الجزء الثانى - مكتبة كنيسة مار جرجس - الإسكندرية.

٣ - إيريس حبيب المصرى - قصة الكنيسة القبطية - الجزء الثالث - مكتبة كنيسة مار جرجس - الإسكندرية.

٤ - إيريس حبيب المصرى - قصة الكنيسة القبطية - الجزء الرابع - مكتبة كنيسة مار جرجس - الإسكندرية.

٥ - إيريس حبيب المصرى - قصة الكنيسة القبطية - الجزء الخامس - مكتبة المحبة.

٦ - القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - الجزء الأول - مكتبة المحبة.

٧ - إطارق البشرى -المسلمون والأقباط (فى أطار الجماعة الوطنية - دار الشروق.

٨ - إدكتور نظمى لوقا - عمرو بن العاص - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

٩ - رمزى مخائيل حنا - الوحدة الوطنية - هيئة الكتاب.

١٠ - الاستشهاد فى المسيحية - القمص شنودة السريانى - مطبعة دار العالم العربى - الضاهر.

١١ - من تراث القديس إثناسيوس الرسول - إبراهيم صبرى معوض - دائرة المعارف القبطية الأرثوذكسية.

١٢- دكتور صوفى أبو طالب - تاريخ القانون فى مصر - دار النهضة العربية.

١٣- دكتور حسنين ربيع - تاريخ الدولة البيزنطية - دار النهضة العربية.

١٤- دكتورة سميرة بحر - الأقباط فى الحياة السياسية المصرية - مكتبة الأنجلو المصرية.

١٥- الاستشهاد فى المسيحية - القمص شنودة السريانى - مطبعة دار العالم العربى - الضاهر.

١٦- الإمام محمد أبو زهرة - محاضرات فى النصرانية - دار الفكر العربى.

١٧- محمد الغزالى - عقيدة المسلم - دار الدعوة للطبع والنشر.

١٨- أندريه ريمون (ترجمة لطيف فرج) - القاهرة - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع.

١٩- الدكتور الفريدج بتلر (ترجمة محمد فريد أو حديد) - فتح العرب لمصر - الناشر مكتبة مبدبولى - القاهرة.

٢٠- دكتور محمد أحمد الحفنى - موسيقى قدماء المصريين - المكتبة الثقافية (الهيئة المصرية العامة للكتاب).

٢١- القدس مرقس حبيب مطبعة قاصد خير.

٢٢- جيمس هنرى بريستند (ترجمة الدكتور سليم حسن) - فجر الضمير - الألف كتاب - الناشر مكتبة مصر دار مصر للطباعة.

٢٣- د. عبد العزيز صالح - الشرق الأدنى القديم (الجزء الأول مصر والعراق) - الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.

٢٤- د. حسين كفافى - محمد على (رؤية لحادثة القلعة) - الهيئة المصرية للكتاب.

٢٥- د. حسين كفافى - إسماعيل (ومعشوقته مصر) - الهيئة المصرية للكتاب.

٢٦- د. مراد فوهمان - الإسلام كبديل - مؤسسة بافريا.

٢٧- عدنان سعد الدين - حوار مع الاستاذ رجاء جاوروودى - مكتبة وهبة - عابدين.

٢٨- محمد رمزى - القاموس الجغرافى للبلاد المصرية - خمسه أقسام.

٢٩ـ الجبرتى ـ تاريخ عجائب الآثار (الجزء الأول) ـ دار الجيل بيروت.

٣٠ـ الجبرتى ـ تاريخ عجائب الآثار (الجزء الأول) ـ دار الجيل بيروت.

٣١ ـ الجبرتى ـ تاريخ عجائب الآثار (الجزء الأول) ـ دار الجيل بيروت.

٣٢ ـ المقريزى ـ المواعظ والاعتبار بتركز الخطط والآثار ـ الجزء الثانى ـ المكتبة الثقافية الدينية.

٣٣ ـ د. وليم سليمان، المسيحية والإسلام فى مصر، دار سينا للنشر، ١٨ ش ضريح سعد.

٣٤ ـ جاك تاجرو، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى إلى عام ١٩٢٢، كراسات التاريخ المصرى، ١٩٥١

٣٥ ـ مصطفى الفقى، الأقباط فى السياسة المصرية، مكرم عبيد ودوره فى الحركة الوطنية، القاهرة، ١٩٨٥، دار الشرق.

٣٦ ـ طارق البشرى، المسلمون والأقباط فى إطار الجمعة الوطنية، القاهر الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٢

٣٧ ـ محمد عمارة، الإسلام والوحدة الوطنية، القاهرة، ١٩٨٢ .

٣٨ ـ وليم سليمان، طارق البشرى، مصطفى الفقى الشعب الواحد والوطن الواحد، الزهرام ١٩٨٢ .

٣٩ ـ وليم سليمان، الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار اوالصيهونية، الهيئة العامة للكتاب.

٤٠ ـ أعمال مؤتمر الأقليات فى العالم العربى مكتبة مدبولى.

٤١ ـ أنور زقلمه ـ المماليك فى مصر ـ مطبعة المجلة الجديدة.

٤٢ ـ كريم ثابت ـ محمد على ـ دار المعارف ـ ١٩٤٨

الفهرس

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٣٠٢٠ / ١٩٩٨

I.S.B.N 977 - 01 - 5930 - 1



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية. وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

جنيهان

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب